

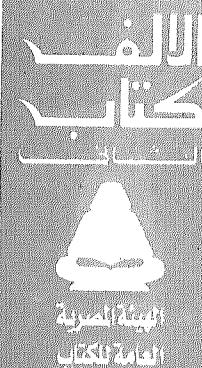
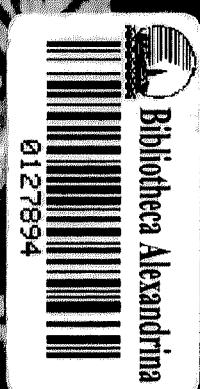
# محنة الإسلام الكبرى

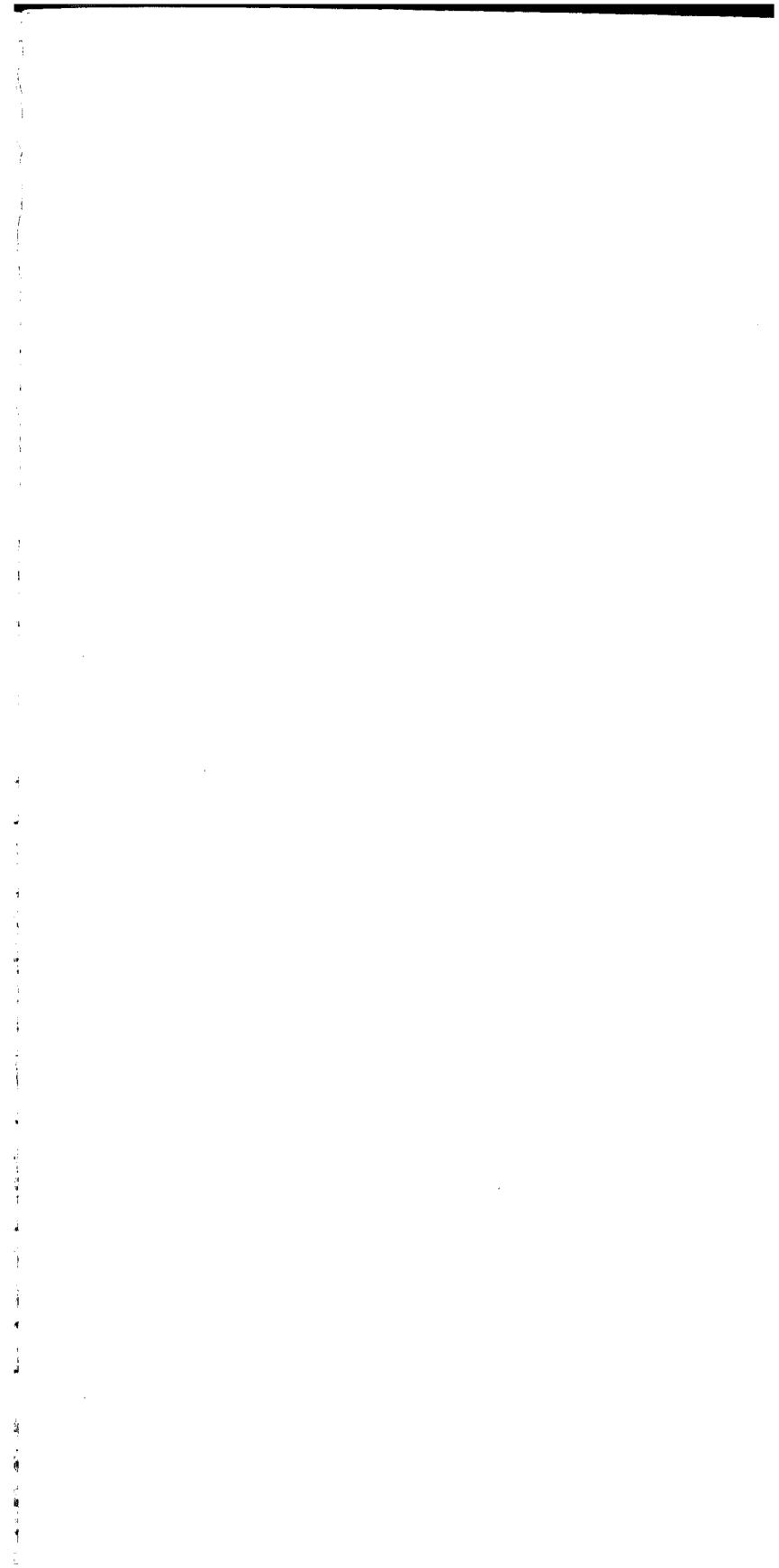
أو زوال الخلافة العباسية من بغداد  
على أيدي المغول



العمل  
الختارة

تأليف: د. مصطفى طه بدر







# **الألف كتاب الثاني**

## **نافذة على الثقافة العالمية**

الإشراف العام

الدكتور / سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

**أحمد صليحة**

مدير التحرير

**عزن عبد العزى**

سكرتير التحرير

**حلياء أبو شادى**

المشرف الفنى العام

**محسنة حطبة**

٢٠٠٣  
١٩٩٣  
٢٠٠٣  
١٩٩٣

# محنة الإسلام الكبرى

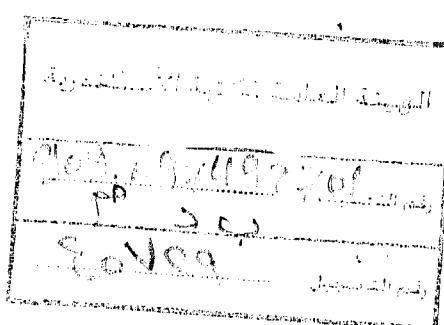
أو

زوال الخلافة العباسية من بغداد  
على أيدي المغول

تأليف

د. مصطفى طه بدر

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

[REDACTED]

# الفهرس

الصفحة	الموضوع
--------	---------

٩	تصدير
١٢	مقدمة

## الباب الأول

### ضعف الخلافة العباسية

١٧	الفصل الأول : تخلص الخلفاء العباسيين من السلجوقية .
١٧	نبذة عن ضعف الخلافة العباسية حتى آخر عهد بنى بويه .
١٨	١ - اضمحلال السلجوقية وأسبابه .
٢٠	(أ) ضعف شخصية السلاطين .
٢٤	(ب) انعدام روح التضامن بين أفراد البيت المسلطوى .
٢٥	(ج) ظهور دول الاتباكة .
٢٧	(د) ظهور طائفة الاسماعيلية .
٢٩	٢ - حسن معاملة السلجوقية للخلفاء العباسيين وأثرها في زوال النفوذ السلجوقى من العراق .
٣٩	الفصل الثاني : أيام العباسيين الأخيرة في العراق .
٣٩	١ - الحالة الداخلية .
٣٩	(أ) الناحية السياسية .
٤٧	(ب) الناحية الحربية .
	(ج) الناحية الطائفية . أهل السنة ، أهل الشيعة ، أهل
٤٩	الذمة .
٥٢	(د) الناحية العمرانية .
٥٤	٢ - الحالة الخارجية .

## الصفحة

## الموضوع

٥٤	(أ) العالم الإسلامي في عهد استقلال الخلفاء . . . . .
٥٤	١ - الدولة السلجوقية في فارس . . . . .
٥٦	٢ - الدولة الخوارزمية . . . . .
٥٧	٣ - الاسماعيلية . . . . .
٥٩	٤ - الدول الأيوبية . . . . .
٦٢	٥ - الروم السلاجقة . . . . .
٦٣	٦ - أتابكة الموصل . . . . .
٦٣	(ب) علاقة الخلافة العباسية بالممالك الإسلامية . . . . .
٦٤	١ - تأمين العراق من الأخطار الخارجية . الخلفاء العباسيون وسلامقة فارس ، الخلفاء ال Abbasiyoon والدولة الخوارزمية استدعاء ال الخليفة الناصر للمغول . . . . .
٦٤	٢ - نشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي . علاقات الخلفاء العباسيين مع الأيوبيين ، علاقتهم مع الاسماعيلية ، أثر هذه العلاقات في مصير الخلافة العباسية . . . . .
٦٨	

## الباب الثاني

### انتشار نفوذ المغول

٧٣	<b>الفصل الأول : البيئة المغولية وأثرها في تكوين المغول . . . . .</b>
٧٣	١ - بيئه المغول الأصلية : منغوليا ، سطحها ، مناخها ، نباتها ، حيوانها . . . . .
٧٣	٢ - معيشة المغول . . . . .
٧٦	(أ) المأكل . . . . .
٧٧	(ب) الملبس . . . . .
٧٨	(ج) المسكن . . . . .
٧٩	(د) القوانين : نظم الزواج ، القوانين الجنائية . . . . .
٨٠	(ه) الدين - الشamanية ، معتقداتها ، رجال الدين

الصفحة	الموضوع
٨٢	معارفهم . نفوذهم . . . . .
	٣ - صفات المغول : الصلفات الجسمية وملامحها للبيئة المغربية ، الخلقية : الشجاعة ، الصراحة ، الطاعة ، الصبر ، الفروسية . . . . .
٨٤	٤ - جيوش المغول : تنظيمها ، امدادها بالأسلحة ، خططها العسكرية . . . . .
٨٩	٥ - المغول في نظر المؤرخين : ابن الأثير ، ياقوت ، الجويني . روجر بيكون ، ولیام الكربینی ، مجموعة كمبردج دوسن
٩٢	٦ - رأينا الخاص في المغول . . . . .
٩٥	<b>الفصل الثاني : توحيد المغول . . . . .</b>
٩٩	١ - أصل المغول . . . . .
٩٩	٢ - الأمم المغولية القديمة . . . . .
١٠٠	٣ - حالة الأمم المغولية القديمة حتى أوائل القرن الثاني عشر الميلادي . . . . .
١٠٢	٤ - توحيد الأمم المغولية القديمة على يد تيموجين . . . . .
١٠٣	(أ) حروب تيموجين مع الأمم المغولية المتحالفة . . . . .
١٠٤	(ب) حروب تيموجين الفردية . . . . .
١٠٤	١ - حرب المركيت . . . . .
١٠٥	٢ - حرب النيمان . . . . .
١٠٦	٣ - حرب التتار . . . . .
١٠٦	٤ - حرب الكريت . . . . .
	<b>الفصل الثالث : التوسيع المغولي في آسيا وأوروبا . . . . .</b>
١٠٩	١ - جنكيزخان . . . . .
	(أ) المرحلة الأولى : اخضاع امارات الكمكجوت والقرغيز والويغور وكياطيج والملج . . . . .
١١٠	(ب) المرحلة الثانية . حروب جنكيزخان في مملكة

الصفحة	الموضوع
١١٠	التنجوت في كوريا ، حروب مع أسرة كين . (ج) المراحل الثالثة : حروب جنكيزخان ضد امبراطورية خوارزم ، القضاء على سلطان محمد خوارزم
١١١	شاه ، طرد جلال الدين منكرتى الى الهند .
١١٢	٢ - عهد خلفاء جنكيزخان (أجطاي وكيوك) .
١١٣	(أ) نشر نفوذ المغول في الصين : قضاء أجطاي على أسرة كين ، محاربة أجطاي لأسرة سنج في الصين الجنوبيّة ، أخضاع أجطاي لكوريا .
١١٤	(ب) نشر نفوذ المغول في آسيا : حملة باقو وأعمالها الحربية في روسيا وبولونيا وهنغاريا .
١١٥	(ج) نشر نفوذ المغول في غرب آسيا : قضاء أجطاي على نفوذ جلال الدين منكرتى ، نشر نفوذ المغول في أذربيجان وجورجية وأرمينية ، تغلغل التغول المغولي في بلاد السروم السلاجقة وأرمينية الصغرى (قيليقية) وسوريا .
١١٦	(د) غارات المغول على أملاك الخلافة العباسية : غارات المغول السنوية على العراق ، الخليفة المستنصر والخطر المغولي ، الخطر المغولي في أوائل عهد الخليفة المستعصم .
١٢٠	

### الباب الثالث

## الفتح المغولي للعراق

١٢٣	الفصل الأول : بغداد قبيل الفتح المغولي .
	١ - طبوغرافية بغداد : اشارات الى بغداد كما بناها المنصور اتساعها ، بغداد الشرقيّة و محلاتها ، اتساع بغداد الشرقيّة في أيام بنى بريه والسلجقة ، بغداد عند محاصرة هولاكو لها : محلاتها ، قصور الخلفاء وما بقي من ماضيها .
١٢٤	٢ - حكم المستعصم ببغداد .
١٣٠	(أ) أخلاقه وصفاته .
١٣٠	

## الموضوع

## الصفحة

١٣٢	( ب ) الحالة الداخلية في عهده . . . . .
١٣٣	١ - النزاع بين الرؤساء في بغداد . . . . .
١٣٥	٢ - ضعف الجيش . . . . .
١٣٦	٣ - اضطراب الأمن في بغداد . . . . .
١٣٧	( ج ) الحالة الخارجية . . . . .
١٣٨	١ - العالم الإسلامي . . . . .
١٣٩	(١) مصر . . . . .
١٤٠	( ب ) بلاد الشام . . . . .
١٤٠	( ج ) آسيا الصغرى . . . . .
١٤١	( د ) بلاد الجزيرة . . . . .
١٤٢	( ه ) الاسماعيلية . . . . .
١٤٣	٢ - علاقة الدول الإسلامية بالخلافة في أيام المستعصم . . . . .
١٤٧	الفصل الثاني : حملة هولاكو . . . . .
١	١ - اعداد الحملة : ارتقاء مانجو عرش الخانية ، حملة فارس ، اعدادها ، نصيحة مانجو لهولاكو قبل سيره ، خروج هولاكو من قره قورم ، الطريق الذي سلكه هولاكو .
١٤٧	٢ - قضاء هولاكو على الاسماعيلية : ضعف ركن الدين خورشاد ، الدور الذي قام به نصير الدين الطوسي
١٥١	٣ - قضاء هولاكو على الخلافة العباسية : وصول هولاكو إلى همزان . . . . .
١٥٦	(١) دعوة الخليفة المستعصم إلى التسليم : تبادل المراسلات بين هولاكو والخليفة . . . . .
١٥٨	( ب ) الاستعداد للحرب : استيلاء جيوش هولاكو على الأماكن الواقعة في الطريق ، استئناس هولاكو برأي الفلكيين ، رأي الفلكي حسام الدين ، رأي نصير الدين الطوسي . . . . .
١٦٠	

## الموضوع

## الصفحة

- (ج) مسيرة هولاكو الى بغداد : محاولة استئمالة الاتراك  
فى جيش الخليفة ، ارسال بيجونويان لهاجمة بغداد  
من الغرب ، حروب بيجو نويان مع جيوش الخليفة ،  
وصول الجيوش المغولية الى بغداد . . . . .
- ١٦٣
- (د) حصار بغداد . . . . .
- ١٦٩
- (هـ) سقوط بغداد : محاولة المستعصم استئمالة هولاكو  
قتل سليمان شاه الدفتردار ، عرض كبار اهل  
بغداد تسليم المدينة الى هولاكو ، تسليم الخليفة ،  
دخول الجيوش المغولية ببغداد ، اعمال القتل  
والنهب ، اذلال الخليفة ، قتله . . . . .
- ١٧٣
- (و) اتمام فتح العراق . . . . .
- ١٨٥
- الفصل الثالث : موقف اهل بغداد من الفتح . . . . .
- ١٨٧
- ١ - موقف اهل السنة . . . . .
- ١٨٧
- ٢ - موقف الخليفة المستعصم . . . . .
- ١٨٨
- (ب) الدفتردار الصغير . . . . .
- ١٩٠
- (ج) سليمان شاه . . . . .
- ١٩١
- ٢ - موقف الشيعة . . . . .
- ١٩١
- (أ) موقف الوزير ابن العلقمي . . . . .
- ١٩٤
- ١ - المؤرخون الذين يتهمون ابن العلقمي بالخيانة  
وأقوالهم . . . . .
- ١٩٤
- ٢ - المؤرخون الذين يبرئون ابن العلقمي وأقوالهم
- ٢٠٢
- ٣ - مجهر الفرنجة فى بحث موقف ابن العلقمى
- ٢٠٤
- ٤ - تحليل أقوال المؤرخين فى موقف ابن العلقمى
- ٢٠٧
- (أ) تحليل أقوال المؤرخين الذين يتهمون ابن  
العلقمى . . . . .
- ٢٠٨
- (ب) تحليل أقوال المؤرخين الذين يدافعون  
عن ابن العلقمى . . . . .
- ٢١١
- ٥ - الرأى الأخير فى ابن العلقمى . . . . .
- ٢١٣
- ٦ - موقف أهل إلذمة : انضمام اليهود للمدافعين عن بغداد  
مساعدة المسيحيين للمغول . . . . .
- ٢١٥
- ٧ - خاتمة القول فى زوال الخلافة من بغداد . . . . .
- ٢١٨

## تصدير

هذا الكتاب يبحث في تاريخ عصر يعد بحق من أهم العصور الإسلامية ، هو ذلك العصر الذي ظهرت فيه دول إسلامية – كالدولة السلجوقية والدولة الأيوبية – كان لها أثر بالغ في تقديم الحضارة الإسلامية وفي حماية الإسلام من خطر الصليبيين ، وذلك على الرغم من أن هذا العصر كان عصر انحلال الدولة العباسية الذي انتهى بسقوط بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨) و زوال الخلافة العباسية وانتقالها بعد قليل إلى مصر ، حيث حلت القاهرة محل بغداد ، وقام المماليك – كما قام السلاجقة والأيوبيون من قبلهم – بالدفاع عن الإسلام ، وأحرزوا نجاحاً تاماً في الوقوف في وجه التتار الذين اجتاحتوا الدول وثلوا العروش في الشرق والغرب .

وان بعض مظاهر العصر العباسى الشانى فى الدول الإسلامية عامة وفى العراق خاصة قد نالت ما تستحقه من العناية والاهتمام ؛ بفضل ما بذله الدكتور مصطفى طه بدر من جهود فى اماتة اللثام عن كثير من المسائل التاريخية المعقده ، ولا غرو فقد ألقى على هذه المسائل ضوءاً كشف به عن كثير من غواصتها ، وأرجو أن يلقى ظهور هذا الكتاب الممتع ما يستحقه من اهتمام قراء العربية ولا غرو فانه عمل علمي دقيق ، بذل فيه صاحبه مجهدًا علميًا موفقاً واستطاع أن يحل كثيراً من المسائل التاريخية الغامضة ، ولا سيما

موقف ابن العلقمي و موقف طوائف بغداد على اختلاف تحليها  
ومذاهبها من الفتح المغولي ، وما كان لهذا الفتح من أثر في  
العراق بوجه خاص وفي الدول الإسلامية بوجه عام ٠

وأرجو أن تتاح الفرصة قريبا لظهور كتاب آخر قام به  
المؤلف تحت اشرافى ونال به درجة الدكتوراه فى الآداب  
(التاريخ الإسلامي) وموضوعه « إيران فى عهد غازان  
وعلاقتها بمصر بوجه خاص » فهذا الكتاب يتم ما بدأه  
الدكتور مصطفى طه بدر من دراسة تاريخ الشرق الإسلامي  
فى العصور الوسطى ، ومحاولة كشف ذلك الدور المهم الذى  
قامت به مصر فى ذلك العصر دفاعا عن كثير من البلاد  
الشرقية والإسلامية ، وحالت دون وقوعها فى أيدي المغول ،  
ويبحث هذا الكتاب فترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي ٠

وأرجو أن يكون نشر هذين الكتابين باكورة لأبحاث  
علمية متصلة يقوم بها الدكتور مصطفى فى سبيل نشر كثير  
من المؤلفات فى التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية وأن  
يكون ذلك مساهمة منه فيما يقوم به قسم التاريخ فى كلية  
الآداب بجامعة فؤاد الأول فى سبيل أحياء تراث الإسلام ٢

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف المرسلين . أما بعد ، فهذا كتاب جديد في موضوعه يتناول بالتأريخ فترة من فترات التاريخ الإسلامي التي أهملها الناس من زمن بعيد ولا يكاد يعرف عنها الكثيرون الا القليل . فترة يكاد يكون المعروف عنها طيفاً غامضاً وسراً با خادعاً . وهذه الفترة لها أهميتها المظيمة بغير شك وإن كانت فترة اضمحلال قد انتهت إلى زوال ، وذلك لأن فترات العظمة والقوة ان كانت دراستها تفيد للمثل والقدوة فإن فترتنا التي نؤرخها وأمثالها تفيد للعظة والعبرة . إذ لا شك أن التاريخ هو المعلم الأول الذي يحفظ ذكريات الماضي وتجاربه ليعرضها على الناس لتكون لهم هداية ونوراً يسلكون بفضلها الطريق ويصلون إلى بر السلام . وقد تكون فترات المحن والاضطرابات أفضل من فترات الهدوء والاستقرار في تبليغ هذه الرسالة العزيزة .

ولنأتكلم هنا كثيراً على الموضوعات التي يتناولها الكتاب والنقط المهمة التي يعالجها ، فحسب القارئ أن يتصفح الفهرس أو يقلب الصفحات ليبدو له الكتاب على حقيقته . ولكن يكفي أن أشير إلى أن القارئ لهذا الكتاب

يستطيع أن يكون صورة واضحة للعالم الاسلامى فى أواخر القرن السادس الهجرى وأوائل القرن السابع ويرى كيف أصبح هذا العالم مسرحا لظهور كثير من الدول الصغيرة المتباغضة المتنازعة ، بعد أن كانت تجمعها سلطة واحدة وتنظره رأية واحدة هي رأية الخلافة العباسية ذات المجد التلييد والصيت البعيد . وقد أدى هذا إلى ضعفه أمام الخطر الأكبر الذى ظهر فى تلك العصور ، وهو خطر المغول وعجزه عن مد يد المساعدة إلى الخلافة العباسية حين هددها هذا الخطر بالزوال .

ويستطيع القارئ أيضا أن يكون صورة جلية للخلافة العباسية منذ أخذ الضعف يدب فى أرجائها ويعيلها إلى هيكل أجوف قد عدم الحياة والقوة ، و يجعلها ألعوبة فى أيدي الأجانب يفعلون بها ما يشاءون دون أن تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . حقا أنها أفاقت من غشيتها مدة من الزمن وأخذت تحاول استعادة شىء من عظمتها الذاهبة وقوتها المتداعية ؛ ولكنها على ما يبدو كانت قد نسيت كيف تلعب دورها وفقدت ارادتها فلم تستطع أن تصل إلا إلى مظاهر جوفاء واحترام شكلى ونفوذ اسمى لم ينفعها عندما تعرضت للخطر المغولى العظيم .

أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب يقدم لأول مرة فى اللغة العربية وبالأسلوب العلمى الحديث ، صورة كاملة مجسمة للمغول فلا يهمل ذكر البيئة التى نشأوا فيها ولا أثر هذه البيئة فى صفاتهم البدنية والخلقية ، كما يعنى عنایة قائمة بتوضيح قوانينهم ونظمهم الحربية ، ويتناول الكلام على نشأتهم الأولى واتمام وحدتهم السياسية فى عهد عاهلهم

العظيم جنكيز خان وتوسّعهم في آسيا وأوروبا وتقديمهم تدريجيا نحو العراق العربي في عهود خلفائه . وكل هذا الذي مضى لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب ما ورد في الكتاب عن ذلك الحدث التاريخي المهم ، وهو حملة هولاكو التي قضت على الأسماعيلية ثم على الخلافة العباسية . ولا شك أن القارئ هنا سيشبع عاطفة حب الاستطلاع فيه التي طالما سمعت عن قضاء المغول على الخلافة العباسية أو قرأت القليل دون أن تجد ما يشفى غلتها . اذ سيرى أمام عينيه كيف أعدت حملة هولاكو هذه وكيف سارت في طريقها وكيف استطاعت أن تقضي على مقاومة الأسماعيلية وتجعلهم آثراً بعد عين ، ثم كيف تبودلت المراسلات بين هولاكو وبين الخليفة العباسي المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ، وكيف سار المغول نحو بغداد وأحاطوا بها وكيف انتهت أمرهم باذلالها وإذلال الخليفة وقتله بعد قتل رجال الدولة وأغلبية سكانها ، وكيف كانت هذه النتيجة المؤلمة آثراً من آثار ضعف شخصية الخليفة وضعف مركز الخلافة بوجه عام .

وسيرى أيضاً كيف كان موقف كل طائفة من طوائف بغداد المهمة ، وهي أهل السنة والشيعة واليهود والنصارى أيام هذه النازلة . كما سيرى موقف بعض كبار الرجال من أمثال ابن العلقمي والدفتردار الصغير وسليمان شاه وحكم التاريخ عليهم . وفي الختام سيرى وصف الأهوال والفضائع التي حلت بالإسلام والمسلمين في تلك الظروف القاسية . وما كان لازالت الخلافة العباسية من بغداد من آثر في حياة المسلمين السياسية والأدبية في العصور التالية .

وأحب أن يعلم القارئ أن هذا الكتاب ألف منذ سنوات وقدم كرسالة حصلت بها على درجة ماجستير في التاريخ من

محلية الاسلام الكبرى

كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في يونيو سنة ١٩٣٩ ، وأن  
أكبر الفضل فيما يbedo فيه من ترتيب وتنظيم يرجع إلى  
أستاذنا الدكتور حسن بك ابراهيم حسن الذي أشرف على  
الرسالة أثناء وضعها وكان خير مرشد وموجه لنا .

وأسأل الله أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه خير العلم وطالبيه .

الجيزة في ١٢/٩/١٩٤٦ مصطفى بدر

## الباب الأول

### ضعف الخلافة العباسية

#### الفصل الأول

#### خلوص الخلفاء العباسيين من السلاجمقة

يرجع ضعف الخلافة العباسية إلى عدة آسباب منها اعتماد العباسيين على الفرس والأتراك ، وسوء معاملة هؤلاء الخلفاء لأعدائهم السياسيين من أمراء وعلويين مما كان سبباً في انسلانٍ كثیر من أجزاء دولتهم كما حدث في الأندلس وشمال إفريقيا ، ومما كان سبباً أيضاً في ظهور الحركات الهدامة ، مثل حركة صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠) والقرامطة ، وكذلك ولادة العهد لأكشن من واحد ، ونحن لا ننسى ما كان لذلك من أثر في قيام النزاع بين الأمين والمأمون ، والعصبية في الجيش العباسى بين اليمنية والمصرية ، وقد كان لها أثر كبير في ضعف الدولة العباسية في بلاد المغرب والأندلس . وغزوات البيزنطيين وتنافس الكبراء على الوزارة كانت من عوامل ضعف الخلافة العباسية أيضاً ، ولا يمكن أن ننسى ما كان من ارتقاء خلفاء ضعاف عرش الخلافة من أمثال المقتدر

( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ - ٩٣٢ م ) الذي كان مسرفاً في وقت قل فيه دخل الدولة والذي ترك أمر الدولة للنساء .

وقد حاول الخليفة الراضي ( ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ = ٩٤٠ م ) أن يخلص الدولة العباسية من الضعف فأنشأ منصب أمير الأمراء (١) ( ٣٢٤ - ٣٢٤ هـ ) ولكن محاولته هذه أتت بعكس ما كان يؤمن : بسبب تنافس الكبار على هذا المنصب كما كان من قبلهم يتنافسون على الوزارة .

وكان من أثر التنافس على أميرة الأمراء بين الكبار توجيه نظر الأجانب إلى العراق ، فاستولى عليه الحمدانيون في مستهل شعبان سنة ٣٣٠ هـ ثم جاء بعدهم معن الدولة بن بويعه (٢) ( جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ ) وأسس دولته ظلت قائمة أكثر من مائة سنة ( ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ) تناوب السلطة فيها أحد عشر أميراً كان آخرهم خسرو فيروز الذي يطلق عليه الملك الرحيم ، ولم تنته أيام بنى بويعه في العراق إلا على يد طغرل بك السلاجقى الذي دخل بغداد وقبض على الملك الرحيم واتبعه في رمضان سنة ٤٤٧ هـ (٣) وبذلك بدأ عهد النفوذ السلاجقى في العراق الذي ظل حتى سنة ٥٥١ هـ .

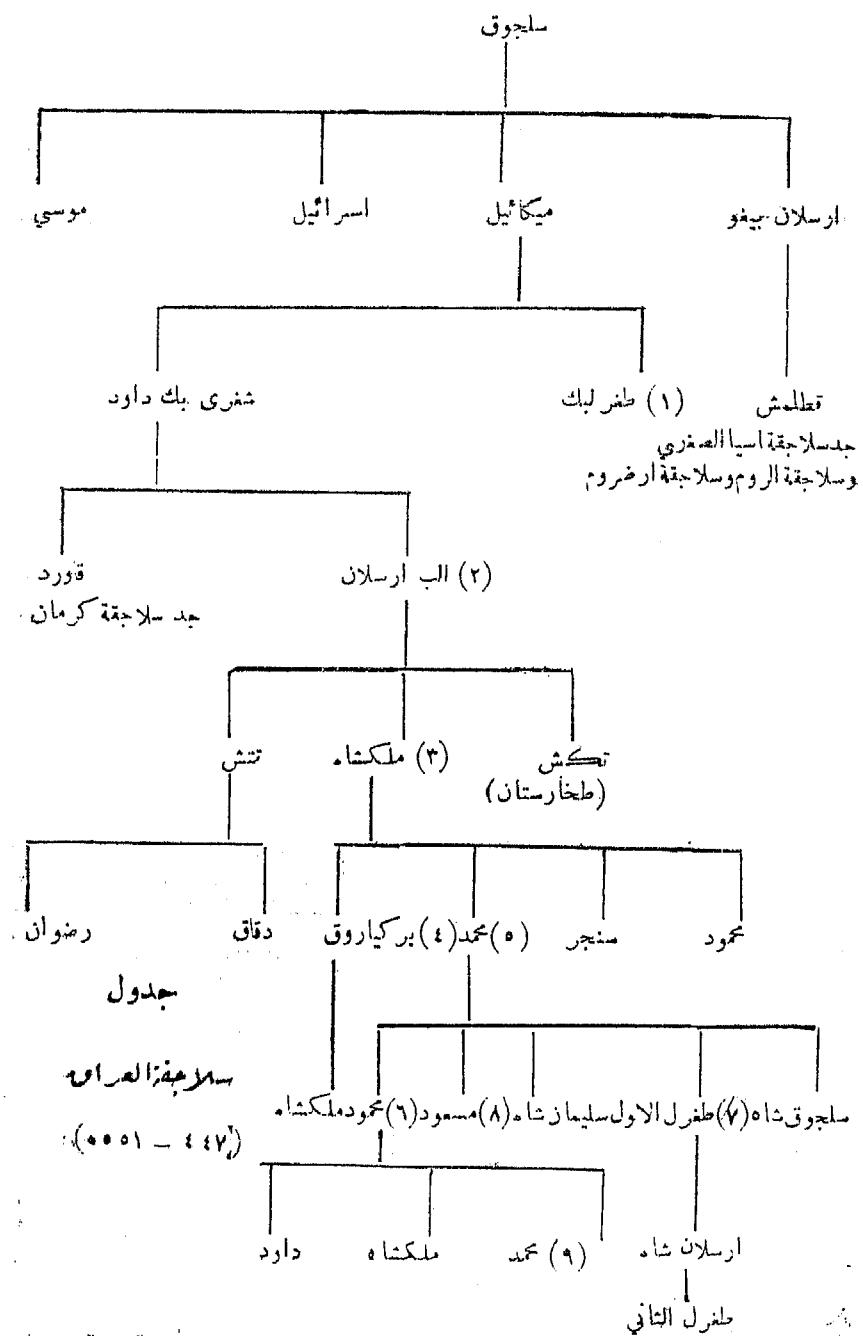
## ١ - أضمحلال السلاجقة وأسبابه

ظل السلاجقة أصحاب الكلمة العليا في العراق طوال حكم طغرل بك ( ٤٤٧ - ٤٥٥ هـ ) وألب أرسلان ( ٤٥٥ -

(١) الصولي - الأوراق ج ٣ ص ٨٥ - ٨٦ ، وتجارب الأمم ص ٣٣٢ ، والفارسي ص ٢٠٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٥٥ .



٤٦٥ هـ ) وملكشاه ( ٤٦٥ - ٤٨٥ هـ ) وبركياروق بن ملكشاه ( ٤٨٥ - ٤٩٨ هـ ) ومحمد بن ملكشاه ( ٤٩٨ - ٥١١ هـ ) وهى مدة لا تقل عن ثلاثة وستين سنة تتمتع العراق فيها بالسلام والطمأنينة وقلت فيها المنازعات بين أهل السنة والشيعة بعد أن كانت لا تكاد تنقطع فى أى عهد من العهود (١) .

على أن الأضمحلال بدأ يدب في جسم السلطنة السلاجوقية في العراق منذ ارتقى عرشها محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ ثم أخذ يتغلغل تغلقاً عظيماً في عهد خلفائه حتى زال نفوذهم عن العراق في عهد محمد بن محمود سنة ٥٥١ هـ .

وي يمكننا أن نعزى ضعف السلاجقة إلى عدة عوامل ، منها ضعف شخصية السلاطين الذين ارتقوا عرش السلطنة منذ أيام محمود بن ملكشاه ، وانعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلاجوقى في ذلك العهد ، وظهور دول الأتابكة ، وظهور طائفة الاسماعيلية .

### (أ) ضعف شخصية السلاطين

كان محمود بن محمد ضعيفاً خاماً ، ولذلك نجد عصبة من الأمراء على رأسها على بار ووزيره أبو القاسم الانساباذى الدركيين (٢) قد افتسبت السلطة منه ومن وزيره كمال

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٤ و ج ١٠ ص ٨٨ و ١٩١ .

(٢) دركزين يفتح أوله وسكون ثانية وفتح الكاف وزاي مكسورة وياء ونون ۳۰۰ قال أنوشروان بن خالد الوزير ، هي بلدة من أقاليم الأعلم ينسب إليها أبو القاسم ناصر بن على الدركريني وزير السلطان محمود بن السلطان محمد السلاجوقى ، ثم وزير أخيه طغرل وهو الذي قتلته في سنة ٥٢١ هـ وأصله من قرية من هذا الإقليم يقال لها انساباذ فحسب نفسه إلى دركازين لأنها أكبر قرى تلك الناحية ... وقال وأهل هذا الإقليم كلهم مزدكية ملحدة » . (راجع اللفظ في معجم البلدان لياقوت ) .

الملائكة السميري ثم أخذت تعمل ما فيه مصلحتها غير ناظرة الى ما يسببه عملها من أضرار . فقتلت الشخصيات الكبيرة مثل أنوشتكين شيركير قائد محمد بن ملكشاه ، الذي كان يحارب الأسماعيلية ليخلو لها الجو كما بدت أموال الخزانة السلطانية في ملذاتها بل أنها حضرت الكثرين مثل دبليس بن صدقه بن منصور بن دبليس الأسدى ومسعود بن محمد أخي السلطان على الخروج على محمود حتى يشتغل بمحاربتهم عنها (١) . وقد كان لأعمال هذه العصبة أثرها السيئ زانها فقدت الدولة كثيرا من عظماء الرجال كما أفسرتهما وبدت أموالها . وقد كان طفرة بن محمد الذي خلف محمودا مسلوب السلطة مع أبي القاسم الدركييني كما كان سابقه ، وهو وان حاول أن يفك القيد بقتله الدركييني على أبواب ليبستري Lishter (٢) فان القضاء لم يمهله ومات سنة ٥٢٧ هـ بعد غريميه بقليل .

ولم يكن مسعود بن محمد أشد سطوة وأقوى مراسا من سابقيه ولذلك كثر خروج الأمراء عليه ، وقد ذكر ابن خلكان وابن الأثير أنه لم يكن له من السلطة غير الاسم (٣) . وأول الخارجين كان قره سنقر صاحب اران الذي أحس بنيمة الغدر من كمال الدين محمد الخازن وزير السلطان ، ولذلك ذهب إلى همدان سنة ٥٣٣ هـ بعشرة آلاف ثم أرسل إلى مسعود يطلب منه إعدام وزيره أو تسليمه : « فاما ان تعدهمه واما ان تسلمه ، فان دفعته اليينا فنحن طائعون ، وان دافعت عنه

(١) البنداري - زبدة النصرة ونخبة العصرة . ص ١٥٥ وابن الأثير ج ١٠ ، ص ٢٨٥ .

Brown, Account of a Rare Ms. Hist. of the Seljuks, p. 53. (٢)

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٢ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٢٠ .

فنحن عن أنفسنا مدافعون » . وقد سلم مسعود الوزير لقره سنقر فضرب عنقه كما اتخذ مجد الدين عن الملك البروجردي وزيرا له تبعاً لرغبة قره سنقر . وقد خرج بعد ذلك على مسعود عباس صاحب الرى ووزراه صاحب فارس ولم يخضعا إلا بعد أن استعان السلطان بجاولي الجاندار ، الذى كان قد خلف قره سنقر على أذربيجان . هذا إلى أن جاولي الجاندار نفسه خرج على السلطان مسعود واتفق مع بوزراه على محاربته ، ولو لا موته لما نجا السلطان من خطره (١) .

ويظهر ضعف السلطان مسعود بكل وضوح فيما حدث بعد ذلك سنة ٥٤٥ هـ ؛ إذ اتفق بوزراه صاحب فارس وال حاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغاييرك وعباس صاحب الرى على اغتصاب السلطة من السلطان مسعود ولم يسعه إلا أن « رأى السلامة فى سلمهم وأقسم على رضاهم » (٢) . وعزل وزيره وعين تاج الدين أبا الفتح بن دارست الفارسي وزير بوزراه بدلا منه ، يضاف إلى ذلك أنه خضع لرأيهم حين قرر الثلاثة أن يكون أحدهم بالنوبة ملازمًا لخدمته ، ويعنى آخر حين تناوبوا حراسته والاشراف عليه . كذلك لم يعارضهم حين أبعدوا من رأوا في وجوده بالقرب منه خطرا عليهم مثل خاصبائ بن بلنكرى فانهم أرسلوه مع فخر الدين ابن طغاييرك - أحد الثلاثة - الذى ولـى أذربيجان واران سنة ٥٤١ هـ (٣) .

(١) البندارى ص ١٨٧ و ٢٠٢ - ٢٠٤ و ابن الأثير ج ١١ ص ٥٣ .

(٢) البندارى ، ص ٢١٤ .

(٣) البندارى ، ص ٢١٤ و ابن الأثير ج ١١ ص ٤٧ .

وذكر ابن الأثير ج ١١ ص ٧٣ أن خاصبائ كان صبياً تركمانياً اتصل بالسلطان مسعود . ثم تقدم على سائر الأمراء .

حقيقة أن مسعودا لم يرضخ للأمر طوبيلا وحاول أن يسترد سلطته ، واقتصر فرصة قتل خاصبى بن بلنكرى لفخر الدين بن طغاييرك غيلة فى أذربىجان ؛ ليقتل هو بدوره فى نفس السنة عباس صاحب الرى الذى كان عليه الدور فى خدمته ويصرف تاج الدين بن دارست عن وزارته . كما أنه حين رأى ثالث الشركاء بوزابه يغتاظ لفقد زميليه ويسيء ومعه ابن شريكه عباس صاحب الرى إلى همدان لاقاه هو أيضا ومعه خاصبى بن بلنكرى وأسره وقتل ابن عباس . إلا أنه بسبب ضعفه لم يستفاد من مجده الذى بذله وما ثبت أن وقع تحت سيطرة خاصبى ، الذى أخذ بدوره يتخلص من منافسيه والذى وجد فى الوزير الأصم شمس الدين أبي النجيب الدركنزينى أداة لنشر راية الظلم والارهاب (١) .

ويلاحظ أن السلطان سنجر بن ملكشاه – عميد البيت السلاجقى وصاحب الأمر فى خراسان – هاله ما حل بالعراق من الفوضى ، فى أيام محمود بن محمد وطغرل ومسعود ، وحاول اصلاح أموره ولكن محاولاته لم تجد فتيلها . ذلك لأنه حين قصد العراق فى أيام محمود قابله هذا ووقعت بينهما موقعة هزم فيها محمود ، إلا أن سنجر عفا عنه وجعله وكيله فى العراق كما زوجه من ابنته ماه ملك خاتون واكتفى باعادة الوزارة إلى كمال الملك السميرمى (٢) . وكذلك حين قصد العراق فى أيام مسعود سنة ٤٥٤ هـ وتلاقى مع مسعود فى الرى عاد

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ - ٥٤ و ٦١ و ٦٠ و ٠٠

Browne, Account of a Rare Ms. Hist of the Seljuks, pp. 61 - 63.

(٢) البندارى ، ص ١٣٤ و Ibid, pp. 45, 53.

أدراجه وترئ الأمر على ما هو عليه (١) فكانت بذلك أعماله قليلة الأهمية ولم يمكنه انتزاع الموقف .

### (ب) انعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلاجوقى

لم يكن أفراد البيت السلاجوقى متضامنين فيما بينهم ، بل كان الشقاق بينهم متفشياً . وقد كان الأمراء الذين يخرجون على السلاطين يعروفون ما لهذا الشقاق من أثر ، ولذلك تجدهم يحاولون توسيع الهوة وزيادة شقة الخلاف ، وكثيراً ما نجدهم يستميلون أحد أفراد البيت السلاجوقى إلى صفوفهم ويمنونه بالسلطنة فيكون لهم من وراء ذلك كثرة عدد أعوانهم والفت في عضد أعوان السلطان . وقد حدث ذلك عند النزاع بين قره سنقر والسلطان مسعود ، إذ استدعي قره سنقر الملك سلاجوق بن محمد ووعده بأن يمضى معه إلى فارس ويستخلصها له ، كما أخذ معه داود بن محمود وأتابكه أباً (٢) . كما حدث أيضاً عندما قام النزاع بين عباس وبوزابه من جهة وبين السلطان مسعود من جهة أخرى ، فقد استدعايا سليمان بن محمد أخي السلطان وأغرياه ووعده بالسلطنة ، ولما اتفق بوزابه مع جاوى الجاندار على الخروج على مسعود بعد ذلك تعهد له بأن يأتيه بالملك محمد بن محمود (٣) ، وأخيراً لم ينس بوزابه حين سار للأخذ بثار شريكه ابن طفایرک وعباس ، أن يأخذ معه محمد وملکشاه ابنی السلطان محمود الى اصبهان حيث توجهما ثم صار الى همدان ليلاقی حتفه (٤) .

(١) البندارى من ١٣٤ وابن الأثير ج ١١ ص ٦٠ و ٦٤ .  
Browne, Acc. of a Rare Ms. Hist. of the Seljuks. p. 47.

ذكر الداوندي أن المقابلة بين سنجار ومسعود في الرى كانت سنة ٥٤٢ هـ .

(٢) البندارى ، ص ١٨٧ و Browne, Acc. Ms. H. Selj., p. 58.

(٣) البندارى ، ص ٢٠٣ و Ibid, p. 60.

(٤) البندارى من ٢٠٢ و Ibid, p. 63.

## (ج) ظهور دول الآتابكة

ذكر ابن خلكان (١) أن «الآتابك هو الذي يربى أولاد الملك ، وأن الآتابا بالتركية هو الأب ، وبك هو الأمير ، فأتا بك مركب من هذين المعنين ومعناه اذن أبو الأمير ». كما ذكر ابن الأثير أن السلطان ملکشاه خلع على نظام الملك ولقبه آتابا من جملتها آتابك ومعناه الأمير الوالد (٢) .

وكان سلاطين السلاجقة يعيينون أولادهم وهم حسشار على أجزاء من أملاكهم ويرسلون معهم رجلاً يكونون لهم بمثابة المربيين يديرون الأمور باسمهم ويطلدون عليهم اسم الآتابكة . وكان هذا النظام ممكناً عندما كان رئيس الدولة رجلاً قوياً مثل ملکشاه له هيبة القلوب ، ولكن عندما ضفت السلاطين وضاعت هيبتهم كان هذا النظام سبباً في اضعاف الدولة السلجوقية ؛ لأن كثيراً من الجهات انفصلت عنها نتيجة لاستقلال الآتابكة بها وعملهم على تثبيت حكم أسراتهم فيما (٣) .

وقد ظهرت بهذه الطريقة الدولة البوالية (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ - ١١٥٤ م) التي أسسها طغطكين الذي عينه تتش آتابكا لابنه دوقادق في دمشق ولكنه لم يلبث أن اخذها لنفسه ، والشى ظل حكمها في أبنائه من بعده حتى سنة ٥٤٩ هـ حين انتزعها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من الفرنجة الذين كانوا قد أخذوها من مجرير الدين أرتق آخر أفراد الدولة البوالية في نفس السنة والتي امتد

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٢ و ٢٤١ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٣٣ .

Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 313.

(٣)

نفوذها فى دمشق وحماة ردها من الزمن . كما ظهرت أيضاً الدولة الأرتقية ( ٤٩٥ - ٧١٢ هـ = ١١٠١ - ١٣١٢ م ) التي أسسها أرتق بن أكسب ، والتي امتد نفوذها فى حصن كيما وماردين وأمد وخرتبرت وميافارقين ، بل حلب والقدس زمنا طويلاً . وكذلك يجب ألا ننسى دولة دانشمد ( ٤٩٠ - ٦٥٠ هـ = ١٠٩٧ - ١١٦٥ م ) التي أسسها كمشتكين بن الدانشمد فى كيادوكيا ، والتي شملت سيواس وقىصرية وملطية ، والتي ظلت حتى ضم أملاكها سلاجقة الروم اليهم . ودولة الآتابك عماد الدين زنكى ( ٥٢١ - ٦٤٨ هـ = ١١٢٧ - ١٢٥٠ م ) التي بدأت فى الموصل ثم اتسعت حتى شملت جزءاً عظيماً من الجزيرة الفراتية والشام . ودولة آتابكة أذربيجان ( ٥٣١ - ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ - ١٢٢٥ م ) من أفراد أسرة ايلدكز الذى أسسها وحكمها بعد أن كان رجلاً عادياً نشأ فى بلاط السلطان مسعود ثم أعطيت له حكومة أذربيجان مع زوجة أخي السلطان الأرملة ، ثم خلفه عليها أولاده وأحفاده . والدولة الغورية التي بدأت فى ولاية الغور بين هراة وغزنة ثم امتدت إلى غزنة وظلت قائمة حتى قضى عليها محمد خوارزمشاه . ودولة شاهات خوارزم نفسها التي أسسها أنوشتيجين أحد مماليك السلطان ملكشاه بعد أن عينه حاكماً عليها ، ودخل فى حوزتها العراق العجمى وفارس وخراسان وما وراء النهر ، والتي ظلت قائمة حتى قضى عليها المغول فى عهد أخطاى بانتصارهم على جلال الدين منكيرى ابن خوارزمشاه وموت جلال الدين مشرداً سنة ٦٢٨ هـ ( ١٢٣١ م ) فكانت مدتها حوالي قرنين من الزمان ( ٤٧٠ - ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ - ١٢٣١ م ) . ودولة السلغورية التي

شملت جزءاً عظيماً من الجزيرة الفراتية والشام . ودولة آتابكة أذربيجان ( ٥٣١ - ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ - ١٢٢٥ م ) من أفراد أسرة ايلدكز الذى أسسها وحكمها بعد أن كان رجلاً عادياً نشأ فى بلاط السلطان مسعود ثم أعطيت له حكومة أذربيجان مع زوجة أخي السلطان الأرملة ، ثم خلفه عليها أولاده وأحفاده . والدولة الغورية التي بدأت فى ولاية الغور بين هراة وغزنة ثم امتدت إلى غزنة وظلت قائمة حتى قضى عليها محمد خوارزمشاه . ودولة شاهات خوارزم نفسها التي أسسها أنوشتيجين أحد مماليك السلطان ملكشاه بعد أن عينه حاكماً عليها ، ودخل فى حوزتها العراق العجمى وفارس وخراسان وما وراء النهر ، والتي ظلت قائمة حتى قضى عليها المغول فى عهد أخطاى بانتصارهم على جلال الدين منكيرى ابن خوارزمشاه وموت جلال الدين مشرداً سنة ٦٢٨ هـ ( ١٢٣١ م ) فكانت مدتها حوالي قرنين من الزمان ( ٤٧٠ - ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ - ١٢٣١ م ) . ودولة السلغورية التي

تنسب الى سلغار Salghar رئيس جماعة من انتركمان نزحوا الى خراسان ثم انضموا الى طغرل بك الذى جعل سلغار من ضمن حجابة ، وتمكن واحد من نسل سلغار هو سنقير بن مودود من حكم فارس سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وتأسيس دولة لأسرته فيها ظلت أكشن من قرن (٥٤٣ - ٦٨٦ هـ = ١١٤٨ - ١٢٨٧ م) ، وقد دفع بعض أمرائها الجزية للدولة الخوارزمية كما خضع آخرون للمغول عند ظهورهم (١) .

#### (د) ظهور طائفة الاسماعيلية (الخشيشية)

أول ما ظهرت دعوة الاسماعيلية في بلدة ساوه في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي (٢) وقد ساعد على سرعة انتشارها في طول البلاد وعرضها الغاء ملكشاه لنظام أصحاب الأخبار ثم قيام النزاع بعد موته بين ابنيه بركياروق ومحمود (٣) وقد تمكن الاسماعيلية في أيام بركياروق من نشر دعوتهم في اصبهان ثم الاستيلاء عليها وذلك حين كان يرأسهم أحمد بن عطاش ، كما أنهما في عهد رئاسة تلميذه الحسن بن الصباح استولوا على الموت وعلى كثير من القلاع الأخرى مثل قهستان وزوزن وتون وغيرها من أمثال خالنجان وأمل وكردكوه (٤) . فلما مات بركياروق وتولى السلطنة أخوه محمد بن ملكشاه رأى فيهم خطرا شديدا على نفوذه ، وسيطر جيشه لمحاربتهم وظل يكافحهم مكافحة شديدة ولكنه لم يعش طويلا حتى يقضي عليهم قضاءاما (٥) .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٢٤ و ١٤٣ و ١٤٨ و ص ١٦٥ - ١٧٦

و ٢١٦ و Browne, Acc. Ms. h. Seljuks. p. 8.

Cam, Med. H., Vol. IV, pp 313-315.

Lane-Poole, Muh. Dyns., pp. 159-180.

و

و

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

(٣) البنداري ص ١١٧ و ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٣١ - ١٣٢ و ص ١٢٢ - ١٢٣ و ص ١٢٠ - ١٢١ .

Camb. Med. H., pp. 222 و 202 و 182 - 180 .

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص 38, 43, Vol. IV, p. 311.

و

هذا وقد كان ظهور هؤلاء الاسماعيلية سبباً في اضعاف الدولة السلجوقية ليس فقط باستيلائهم على البلاد التي تقدمت الاشارة إليها وسلخها عن أملاك الدولة السلجوقية أو باضطرارهم للسلطان إلى تسيير الجيوش عليهم ، بل لأنهم زعزعوا الأمن في جميع أرجاء الامبراطورية السلجوقية كما أدخلوا الرعب في قلوب الأهلين (١) .

أضاف إلى ذلك أن الاسماعيلية كانوا سبباً من تسلطوا على البلاد في أيام سلاطين السلاجقة الضعاف مثل أبي اسحق الدركييني في أيام السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ومثل خاصبائ بن بلنكري في أيام السلطان مسعود ، فعاونوهم في سياستهم التخريبية كما أزالوا أعدائهم من الوجود . وقد بلغ من اعتماد هؤلاء المستبدین على مساعدة الاسماعيلية لهم في عدوائهم أن قال أبو اسحق الدركييني للسلطان طغرل بن محمد الذي خلف محموداً على السلطنة ، والذي وزر له الدركييني وقتاً قصيراً حين سأله عن الجندي الذي يلزم للقضاء على ثورة أخيه مسعود : « لا تبال ولا تخطر خطاً بالبال ، فإني قد ندب جماعة من الحشيشية لقتل أعدائك » (٢) .

هذا وليس في امكان الباحث عن آثر الاسماعيلية في اضعاف السلاجقة أن ينسى أن هؤلاء الاسماعيلية بقتلهم كثيراً من الشخصيات البارزة في أيام السلاجقة حرموا الدولة من معاونتهم ، وليس هناك من ينكر ما خسرته الدولة بقتل أمثال نظام الملك وزير ملكشاه ، وجمال الملك السميرمي ووزير محمود بن محمد بن ملكشاه ، وفخر الملك بن نظام الملك وزير السلطان سنجر صاحب الأمر في خراسان (٣) .

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ١٢٠ .

(٢) البنداري ، ص ١٦٩ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٤٠ و ٢٥٦ و ١٧٥ .

## ٢ - حسن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين وأثرها في زوال النفوذ السلجوقي من العراق

لم تكن حالة الخلفاء العباسيين في أيام السلاجقة تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في أيام بنى بويه . ذلك لأنَّه بينما كان أمراء بنى بويه يقيمون في بغداد ويجمفون في يدهم كل السلطة ، كان نواب السلاجقة العسكريين يحكمون العراق ويستأذنون بالنفوذ فيه (١) . وقد بلغ من عجز الخلفاء عن تدبير الأمور في ذلك الوقت وضلاله أنهم أُنذن في بغداد قاموا في أيام الخليفة القائم سنة ٤٦٤هـ « وأنكروا كثرة المغنيات والخمور ، فقطع بعضهم أوتار عود مغنيه كانت عند جندى فشار به الجندي الذي كانت عنده فضوله فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة . واستغاثوا إلى الخليفة وطلبوه هدم المواخير والحانات وتبطيلها فوعدهم أن يكاتب السلطان في ذلك » (٢) ، ولم يجرؤ أن يت忤د قراراً في هذا الشأن . أضف إلى ذلك أنَّ الخلفاء العباسيين ظلوا يعيشون في أيام السلاجقة من اقطاعات مقررة يديرونها لهم عمال من بينهم الوزير وكاتب الائشأ على ما كان عليه الأمر في أيام بنى بويه (٣) ولم يكن لهم من الأمر سوى ذكر اسمائهم في الخطبة ، كما كانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وتنميئها (٤) .

Richard Coke, Baghdad The city of Peace, p. 114.

(١)

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٣٨ .

(٣) البنداري ، ص ١٩٤ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ، ص ١٦٢ . و : Le Strange, Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 327.

على أن هذا يجب ألا يحجب عن أنظارنا تلك الحقيقة الواضحة وهي أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم<sup>(١)</sup> ، فقد وصف لنا ابن الأثير الاجتماع الذي حدث بين السلطان طغرل بك - عندما عاد إلى بغداد سنة ٤٦٩ هـ على آثر اخضاعه الموصل وقضاءه على مناواة دبيس بن مزيد وقريش بن بدران - وبين الخليفة القائم فقال<sup>(٢)</sup> : « وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوساً عاماً وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد وحضر السلطان في الماء وأصحابه حوله في السميريات ، فلما خرج من السميرية أركب فرساً من مراكب الخليفة ، فحضر عند الخليفة ، وال الخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبع أذرع وعليه بردة النبي وبهذه القصيبة الخيزران ، فقبل السلطان الأرض قبل يده وأجلس على كرسى ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له ان أمير المؤمنين شاكر لسعيل حامد لفعلنك مستأنس بقربك وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولات واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر العدل وكف الظلم واصلاح الرعية . فقبل الأرض ، وأمر الخليفة بافاضة الخلع عليه ، فقام إلى موضع لبسها فيه وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخطبه الخليفة بملك مشرق وغرب وأعطي العهد وخرج ، وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسون ألف دينار وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وغيرها » .

Cambridge Medieval history, vol. IV, p. 277.

(١)

(٢) ابن الأثير ج ٩ ، من ٢٦٤ - ٢٦٥

ولا شك أن هذا الوصف يبين ما كان يحمله طغرل بك لل الخليفة من الود والاحترام الحقيقى ، كما يوضح أن ما حدث فى هذا الاجتماع كان طبيعيا لا تكلف فيه بعكس ما حدث عند اجتماع الخليفة الطائع وع ضد الدولة بن بويه ، ذلك الاجتماع الذى لم يدع إليه سوى رغبة ع ضد الدولة فى اظهار أبهته ونفوذه أمام رسول الخليفة الفاطمى العزيز ، الذى كانت تغلب عليه الكلفة والتصنع .

والأمثلة على احترام السلجوقة للخلفاء العباسيين وحسن معاملتهم كثيرة ، منها أن طغرل بك عندما عاد إلى بغداد مرة أخرى سنة ٤٥٥ هـ قادما من أرمينية وعلم أن الخليفة القائم يريدان يستقبله بنفسه ، أفاءه من ذلك واكتفى بأن يستقبله وزيره ابن جهير . ومنها أن السلطان ملكشاه عندما وفد عليه الشیخ أبو اسحق الشیرازی سنة ٤٧٥ هـ يحمل رسالة من قبل الخليفة المقتدى تتضمن شکواه من العمید أبي الفتح بن الليث عمید العراق ، أكرمه وأجا به إلى جميع ما التمسه ، فآهين العمید ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة . ومنها أن السلطان ملكشاه أيضا عندما ذهب إلى بغداد سنة ٤٧٩ هـ في أيام الخليفة المقتدى ، طلب أن يقبل يد الخليفة ولكن هذا لم يعجبه إلى ذلك ، فسأل أن يقبل خاتمه ، ولما أعطاه أيام قبله ثم وضعه على عينيه ، كما أنه أمر أن يزاد في اقطاع وكلاء الخليفة نهر بربزى من طريق خراسان وعشرة آلاف دينار من معاملة بغداد (١) .

وان أقوى العلاقات بين الخلفاء العباسيين والسلطانين السلجوقة لتنتجلي فيما كانوا يتداولونه من الخلع والتفويض

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٦٤ و ٦٥ و ٥١ و ٩ .

فقد كان الخليفة عند ارتقائه عرش الخلافة يرسل إلى السلطان السلاجوقى لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا ، كما كان السلطان السلاجوقى بعد أن يتولى السلطنة يلتمس التفويض من الخليفة العباسي (١) . كما تظهر تلك العلاقات أيضا فيما كان بين البيتين السلاجوقى والعباسى من الارتباط بأواصر الزواج ، وان المؤرخين ليذكرون لنا أمثلة كثيرة لذلك ، فهذا طغرل بك قد تزوج سنة ٤٥٤ هـ ابنة الخليفة القائم ، وذاك الخليفة القائم نفسه قد زوج ابنه المقتدى من ابنة السلطان آل بـ أرسلان سنة ٤٦٤ هـ ، كما أن الخليفة المستظاهر ابن المقتدى تزوج من ابنة السلطان ملكشاه سنة ٥٠٢ هـ ، وتزوج الخليفة المقتفي فاطمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان مسعود (٢) .  
ولا شاء أن السبب فيما كان هناك من علاقات طيبة بين السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين يرجع إلى أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السنى الذى كان الخليفة العباسي رئيسه الأعلى ، وقد ذكر فى ذلك السير توماس أرنولد : «أن السلاجقة كانوا يحتسرون الخليفة العباسي لا لمركته السياسي ، بل لأنّه خليفة الله (٣) » .

وان ما ذكره وان كان يدل دلالة واضحة على ما كان بين السلاجقة والخلفاء العباسيين من طيب العلاقات وحسن التفاهم وتبادل الاحترام ، الا أنه فى الوقت نفسه لا يحول دون ذكر ما حدث من سوء تفاهم بين الطرفين فى بعض الأحيان

(١) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٤٠ و ٦٤ .

(٢) ابن خلkan ج ٢ ، ص ٦٢ و ٦٣ و ابن الأثير ج ١٠ و ٥ من ٨ و ٢٩ و ١٩٩ .

(٣) Arnold, the Caliphate, p. 80.

وتعهدى السلاطين على الخلفاء ، ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما غضب السلطان ملکشاه على الخليفة المقتدى وأمره بالخروج من بغداد والذهاب إلى البصرة بسبب تدخله في شؤون الحكم على ما ذكره سير وليام ميور<sup>(١)</sup> ، أو بسبب رغبة ملکشاه في اسناد الخلافة إلى جعفر بن الخليفة المقتدى من أخيه على ما ذكره ابن خلكان<sup>(٢)</sup> . كما أنه لم يمنع اعتداء السلاجقة على الخلفاء في بعض الأوقات، وقد ذكر في ذلك السير توماس أرنولد أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب ظل الله الذي كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم في الماضي وأنهم أخذوا من الخليفة المسترشد بردة الرسول التي كان الخلفاء يلبسونها عند توليهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية<sup>(٣)</sup> . غير أن مثل هذه الأعمال لم تصدر من السلاجقة إلا نادراً بل إن الأمثلة المذكورة قد تكون كل ما ذكر في هذه الناحية .

ولم يكن احترام الخلفاء العباسيين في ذلك الوقت مقصوراً على السلاجقة ، بل إن غيرهم من الأمراء الذين كانوا إما راتهم بقوة السيف كانوا لا يزالون ينظرون إلى الخليفة العباسي كواسطة لتشبيت عروشهم واقتساب حكمهم صبيحة شرعية . وقد ذكر سير توماس أرنولد<sup>(٤)</sup> أن يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين في إسبانيا أرسل إلى الخليفة المقتفي يلتئم منه تشبيته في حكم الملائكة ، فكان في قوله

(١) Muir, The Caliphate, its rise, decline & fall, p. 577.

(٢) ابن خلكان - وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

(٣) Arnold, The Caliphate, p. 80.

... جاء في مجموعة كمبردج للقرن الوسطى أن ملکشاه لقب أمير المؤمنين وهذا اللقب لم يطلق قبل ذلك إلا على الخلفاء .

Arnold, the Caliphate, p. 38. (٤)

هذا دليل على أن الخلفاء مازالوا في ذلك العهد يتمتعون بسلطة أدبية في داخل بغداد وخارجها .

على أن أهم ما يجب ملاحظته هو أن معاملة السلاجقة للعباسيين بالحسنى أعادت إلى انفسهم الأمل وجعلتهم يفكرون في إعادة مجد الخلافة العباسية السالف (١) . وقد ذكر سير وليام ميور (٢) أن الخليفة المقيدى تدخل فى شؤون الحكم في أيام السلطان ملكشاه ، وأن هذا السلطان حين أحسن بيته طلب منه عدم التدخل وأصدر أمراً بتوجيهه إلى البصرة حتى يكون بعيداً عن مركز الحكومة ، ولو لا موت السلطان لأصبح أمر انتقاله إلى البصرة في حيز الوجود . كما ذكر ابن خلkan (٣) أن ملكشاه لما دخل بغداد في آخر مرة « وكان للخليفة ولدان أحدهما المستظاهر بالله والأخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان . . . وكان الخليفة قد بايع لولده المستظاهر بولاية العهد من بعده لأنك كان الأكبر ، ألزم السلطان الخليفة أن يخلعه ويجعل ابن بنته جعفراً على العهد ويسلم بغداد إليه ويخرج الخليفة إلى البصرة . فشق ذلك على الخليفة وبالغ في استنكار السلطان عن هذا الرأي فلم يفعل ؛ وطلب المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله ، فقيل إن الخليفة في تلك الأيام جعل يصوم ويطوى وإذا أفتر جلس على الزمام للافطار وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان ، فمرض السلطان في تلك الأيام ومات وكفى الخليفة أمره » .

وإذا كان المقيدى قد فعل ذلك في أيام ملكشاه العظيم وحين كان نفوذ السلاجقة في العراق لا يزال كبيراً ، فإن

Arnold, the Caliphate, p. 80, Coke, Baghdad, p. 114.

(١)

Cambridge Med. Hist, vol. IV, p. 277.

Muir, the Caliphate, p. 577.

(٢)

(٣) ابن خلkan - وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٦٤

خلفاء ساروا على شاكلته وشجعهم ما أصاب السلاجقة من الضعف في ذلك الوقت . وال الخليفة المسترشد أول من سار بخطى جدية في هذا السبيل ، وأول ما نعلم من خطواته هذه ما ذكره ابن خلكان (١) من أنه عندما ولى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى دبىس على الموصل وكان الخليفة لا يوده عمل ما في وسعه حتى أقنع السلطان بتناولية زنكى واعطل أمر دبىس . وقد خرج الخليفة المسترشد بعد ذلك سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد وهزم قواته وكانت يستقل بالأمر لولا مساعدة زنكى حاكم البصرة في ذلك الوقت للسلطان . كما أنه عند موت هذا السلطان أخذ المسترشد يعرض بعض أفراد البيت السلجوقى على الخروج على السلطان الجديد ، ولما أراد زنكى أن يضع حدا لعمله حاربه وشتت قواته وتبعه حتى الموصل وحاصره بها ثلاثة شهور وكان ذلك سنة ٥٢٧ هـ (٢) . ولم يكتفى بذلك بل سار بجيشه ومعه سلجوقي أحد أمراء البيت السلجوقى وهاجم قوات مسعود قرب همدان ؛ فكان بذلك مثلا أعلى لمن أتى بعده من الخلفاء (٣) .

وإذا كان المسترشد لم ينجح في تنفيذ أغراضه وهزمه جند السلطان مسعود وأسره ووضعه في خيمة حيث قتله نفر من الحشيشية ، فإن ابنه الراشد الذي ارتقى بعده عرش

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٦٤ وابن الأثير ج ١٠ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ و ٢٨٩ و ج ١١ ص ٢ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٢ و Arnold, the Caliphate, pp. 80-81 C. Muir, The Caliphate, p. 580. Account of Ms., p. 57.

الخلافة سار على شاكلته وأدى به حب الشار ل أبيه إلى اهانة رسول السلطان مسعود ودعوة العامة إلى تدمير قصره ، كما أنه أخذ يستعد لامتناع الحسام بعد أن انضم إليه زنكي بسبب قتل السلطان لصديقه دبيس بن صدقة ، متهمًا إياه بقتل الخليفة . وقد كانت خاتمة الراشد كخاتمة أبيه لأن السلطان مسعود لم ينتظر حتى يهاجمه الخليفة ، بل سار حتى وصل إلى بغداد وحاصرها وضيق عليها الخناق واضطرب الخليفة إلى الفرار منها إلى الموصل حيث صديقه زنكي ثم قتله بعض العشيشية بعد ذلك عندما ذهب إلى اصبهان (١) .

ولما صار المقتفي لأمر الله الخليفة بعد موت الراشد ، عمل جهده لتنفيذ رغبة أسلافه واتمام ما بدأوه . ويعتبر الدور الذي قام به في هذا السبيل من أهم هذه الأدوار لأنه توجه مجهودات من سبقه بالنصر المبين . وقد بدأت مجهودات المقتفي في آخر عهد السلطان مسعود ، ولم تكن ضد السلطان مباشرة بل كانت ضد بعض الأمراء السلاجقة . فأن السلطان مسعوداً بعد أن قتل بوزابة استدعى محمد ابن أخيه محمود الذي كان يرافق بوزابة وعطف عليه وزوجه من ابنته ، كما ملكه خوزستان وبذلك أصلح حاله وجمع له بعض أسباب النفوذ ، ولكن بعد ذلك تسلط جماعة من الأمراء على هذا الأمير ورغبوه في الخروج على السلطان وأقنعواه بالسير معهم لصار يغادر فسار معهم هو وأخوه ملکشاه بن محمود وحاصر الجميع بغداد سنة ٥٤٣ هـ وقتلوه من أهلها زهاء خمسين

(١) ابن الأثير ج ١١ ، ص ١١ - ٢٨ .

Muir, The Caliphate, p. 580.

Account of a rare Manuscript History of the Seljuks, p. 58.

نفس ، وأبوا أن يرفعوا الحصار إلا بعد أن يدفع لهم الخليفة ثلاثين ألف دينار . وقد وقف الخليفة المقتفي أمام هذا الخطر موقف البطولة إذ استشار رجاله فوافقوا على دفع المبلغ للأمراء ، ثم أخذ رأى يحيى بن محمد بن هبيرة وكان يومئذ صاحب الديوان فنصحه بأن يستخدم هذا المبلغ في إعداد جيش لدفع خطرهم ، وفضل الخليفة رأى ابن هبيرة ونبيح في دفع هذا الخطر ، وكان في عمله هذا ارضاع السلطان مسعود كما كان فيه فرصة حسنة ساعدت على جمع جيش قوى كان سند الخليفة في مراحل جهاده المقبلة (١) .

وقد حدث بعد ذلك أن مات السلطان مسعود سنة ٦٤٥ هـ وولي السلطنة ملكشاه بن محمود الذي اشتغل باللهو والخمر وترك الأمر لخاصبيك بن بلنكرى ، ثم تبع هذا خلع خاصبيك لملكشاه واستدعاوه لأنبيه محمد بن محمود وجعله سلطانه (٢) ، فبدأت بذلك المرحلة الثانية من مراحل النزاع بين الخليفة المقتفي والسلاجقة ، ولم يكن محمد بن محمود في هذه المرة هو المعتمد ، بل إن الخليفة وزيره ابن هبيرة طرد نائبه من بغداد وأخذها يسطان نفوذ الخليفة في العراق ويقطعن أجزاءه لعمال الخليفة ، كما أنهما بعد ذلك حين لجأ اليهما سليمان بن محمد بن ملكشاه أمناه وأرسلا معه جيشا تقابل مع جيش السلطان محمد بن محمود ولم يعد إلى بغداد إلا بعد أن تقاوع سليمان عن السير . وقد كان ذلك

(١) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٦٠ و ٦٦ .

والبندارى - زينة النصرة وتنمية النصرة ، ص ١٢٢ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

سببا في نجاح الأمراء في اقنان السلطان محمد بن محمود بمحاجمة بغداد ، فسار لهذا الفرض سنة ٥٥١ هـ وحاصرها وانتهت أمره بالفشل والعودة من حيث أتى ، وكان في ذلك نهاية عهد النفوذ السلجوقي في العراق (١) .

(١) ونیات الاعیان ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .  
وابن الاثیر ج ١١ ص ٩٢ - ٩٦ .  
وابی الفداء ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall, p. 580.  
Account of a rare Manuscript History of the Seljuks, p. 67.

## الفصل الثاني

### أيام العباسيين الأخيرة في العراق

#### ١ - الحالة الداخلية

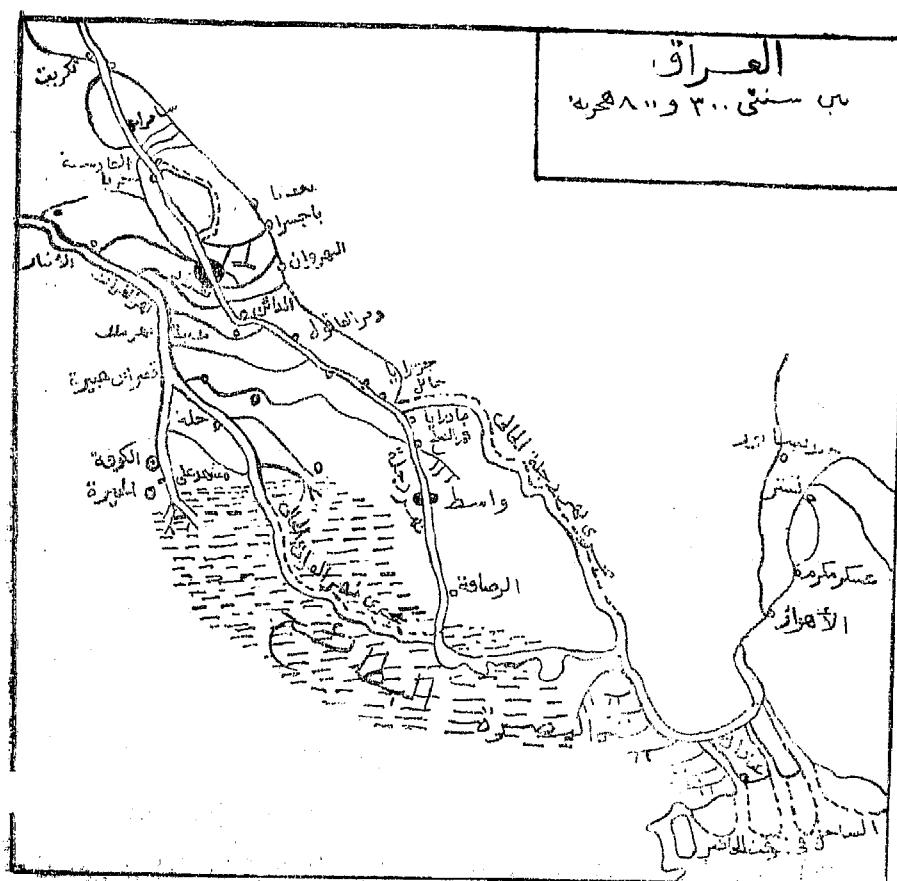
بعد أن تمكن المقتفي لأمر الله من صد السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلاجوقى عن بغداد سنة ٥٥١ هـ، حكم مستقلاً في العراق حتى سنة ٥٥٥ هـ . وبعد موته ارتقى عرش الخلافة المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) ثم المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ثم الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ)، ثم الظاهر (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ) ثم المستنصر (٦٢٣ - ٦٤١ هـ)، وقد تمكنا جميعاً من الاحتفاظ باستقلال العراق أكثر من مائة سنة ، ولكن أيامهم لم تكن أيام يسر وطمأنينة للعراق بل كانت على العكس أيام فقر واضطراب ، كما أن الخلل والضعف لم يكن مقصوراً على ناحية واحدة من نواحي الحياة بل شملها جميعاً (١) .

#### (أ) الناحية السياسية

كان معظم خلفاء هذه الفترة ضعاف الشخصية ليس لديهم دراية بشئون الحكم . وقد مدح مؤرخو العرب أكثر

(١) جاء في مجموعة كمبردج للقرون الوسطى ج ٤ من ٢٧٨ إن أملاك الخليفة العباسية في أيام الخليفة الناصر أعظم خلفاء هذه الفترة كانت تمتد من تكريت حتى رأس الخليج الفارسي . (انظر: الخريطة المقابلة)

من واحد من بينهم ؛ ولكنهم لم يزيدوا عن القول بتقواهم وورعهم ولم يذكروا أعمالا لهم تستحق الذكر . كما أن مسيرة لبرخت في الفصل الذي كتبه تذيلًا للجزء الثاني من ترجمة آشر لرحلة بنiamين التطيلي(١) شبه الخليفة العباسي في الفترة التي أعقبت حكم الراضي وامتدت حتى المستعصم بالمنتخب الأعظم Great Elector في مشروع سبيس الذي وضعه في سنة



(١) Asher (Trans.) Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, (1)  
Vol. II, p. 347.

(١) احدى سنى الثورة الفرنسية ولم ينفك . فقد كان هذا المنتخب طبقاً لهذا المشروع يشتراك مع قنصليين هما المسؤولان عن أعمال الحكومة ، بينما هو يقيم في القصر (الملكي) في فرساي تحت حراسة ثلاثة آلاف من الرجال ويتقاضى ستة ملايين من الفرنكـات كل عام . وقد ذكر مستر لبرخت أيضاً أنَّ كثريـن من هؤلاء الخلفاء لم يزد الواحد منهم عن أن يكون مثل هذا الشبح الأجوف .

أما بنiamin التطيلي ، فقد أمدنا بوصف شامل لحياة الخليفة العباسي وأفراد أسرته وذلك عندما زار بغداد في أيام المستنصر ونقله عنه آسبورن في كتابه «الإسلام في عهد خلفاء بغداد» وهذا نحن نسوقه في هذا المقام (٢) : «يبلغ اتساع قصر الخليفة في بغداد ثلاثة أميال . وتوجد في هذا القصر حديقة راسخة بها كل أنواع النشيج سواء منه النافع أو المستعمل للزينة وكل أنواع الوحوش ، كما توجد به أيضاً بركة يمتد إليها الماء من نهر دجلة . وفي أي وقت يحس الخليفة برغبته في المتعة والتربيض تجهز له الطيور والوحوش والأسماك . وهذا العباسي العظيم يعطـف على اليهود ويتخذ من بينهم كثيراً من عمالـه ، كما يفهم كل اللغـات ويعلم القانون الموسوى علـما تماماً ويقرأ اللغة العـبرية ويكتبـها ، ولا يطيب له إلا ما يحصل عليه بـكـيد يـده ؛ ولـذلك يـصنـع الأـغـطـية ويـسمـها بـخـاتـمه ثم يـبـيعـها عـمالـه في السوق العامة للأـغـنيـاء ويـقتـنـى بـشـمـنـها الأـشـيـاء التـي

A General History of Europe, By Thatcher & Schwill, Vol. II, pp. 470-573.

(١) جاء في كتاب

أن تابليون بعد أن عاد من مصر في أكتوبر سنة ١٧٩٩ قضـى على حـكـومة الـادـارـة . ثم وضع هو وآخـرـائه دـستـورـ القـنـصـلـيـة وكان هذا الدـستـورـ من وضع سـيـسـ (Sieyes) Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, pp. 305-312. (٢)

تلزمه . وال الخليفة رجل فاضل موثوق به طيب القلب لا يضمر شرًا لأحد ، ولكنه يتعجب عادة عن المسلمين ، ويحب الحجاج الذين يفدون من الأقطار البعيدة عند مرورهم ببغداد في طريقهم إلى مكة أن يحظوا برؤيته فينادونه : سيدنا يا نور المسلمين ومجد الدين أربنا نور وجهك ، ولكنه لا يغير كلماتهم اهتماما . وبعد أن يتقدم عماله ويقولون له آيتها السيد أشمل هؤلاء الناس بسلامك لأنهم آتوا من بلاد بعيدة ويحبسون أن يأدوا إلى ظل عظمتك ، يقوم ويضع أطراف ردائه خارج الشباك فيلشمها الحجاج بشغف ثم يقول لهم أحد الكبار انصرفوا سالمين فسيدنا نور المسلمين مغبطة كل الافتياط ويباركم . ولما كانوا يعتبرون هذا الأمير ممثلاً لنبيلهم ، فإنهم يسرون في طريقهم يملؤهم الفرح لتلك الكلمات التي وجهها إليهم هذا الكبير ناقلاً رسالة السلام . ومن عادة كل أخوة الخليفة وأفراد أسرته أن يلتموا ملابسه ، كما أن كل واحد منهم يملك قصراً داخل قصر الخليفة ؛ ولكنهم جميعاً مقيدون بسلسل من حديد ويقوم ضابط على كل مسكن ليحول دون ثورتهم ضد الرئيس الأعظم . وقد اتخذ الخليفة هذه الاحتياطات بعد أن ثار أخوه عليه واختاروا واحداً من بينهم بدلاً منه ، فلكي يمنع حدوث مثل هذا في المستقبل قرر أن يقييد كل أعضاء أسرته بالسلسل حتى يكتب ميلهم الثورية . ومع ذلك ، فإن كل واحد منهم يقيم في قصره معزواً كما أنهم يملكون القرى والمدن ويجمع مدريرو شئونهم ايجارها كما يأكلون ويسربون ويعيشون حياة كلها لها . ويحيى قصر الخليفة مبانى وأعمدة من الذهب والفضة وكنوزاً من الأحجار الكريمة . ويترك الخليفة قصره مرة كل سنة وذلك في وقت العيد المسمى رمضان (كنا) ؛ فيجتمع زوار كثيرون من الجهات البعيدة .

ليحظوا برقية وجهه ، بينما يملو صهوة بغلة من تديا الملابس الرسمية المصنوعة من نسيج الذهب والفضة وواضعا عمامة مزينة بأحجار كريمة لا تقوم بمثال فوقيها قناع اسود كأنه رمز التواضع(كذا) ، فكانه يقول انظروا الى هذه العظمة البدنية وستصير الى الظلام يوم الممات ، وتحف به حاشية كبيرة العدد من الأشراف يلبسون الملابس الفاخرة ويركبون الخيول والأمراء الذين جاءوا من بلاد العرب وميديا وفارس بل ومن بلاد التبت التي تبعد ثلاثة شهور عن بلاد العرب . ويتقدم هذا الموكب من القصر الى المسجد الواقع عند باب البصرة وهو المسجد الجامع وهؤلاء جميعا الذين يسيرون في موكب الخليفة ، سواء أكانوا من الرجال أم النساء يلبسون الحرير .

أما في الطرق والميادين فيكون الغناء والطرب وترقص الجماعات أمام الأمير العظيم الذي يسمى خليفة ، وتحميه يقولها : « باركك الله يا سيدنا وملينكنا » ، بينما هو يرد تحميها بشم ردائه ولمسه بيده . ثم يسير الموكب الى ساحة المسجد ويعتلئ الخليفة منبرا خشبيا ويشرح للناس قوانينهم . وينهض العلماء المسلمين ويصلون من أجله (كذا) ، ويطرون عطفه العظيم ورحمته ويحببهم المجتمعون بقولهم : آمين . وبعد ذلك يياركمهم الخليفة ويدفع جملا معدا لهذا الغرض وهو بمشابهة قربان يوزع على الأشراف الذين يرسلون أجزاء منه الى أصدقائهم الذين يشتهرون أن يذوقوا اللحم الذي ذبحه أميرهم المقدس . ثم يتراكم المسجد ويعود وحده الى قصره على شواطئ دجلة يصفعبه الأشراف في قوارب حتى يدخله . ولا يعود الخليفة من الطريق الذي أتى منه أبدا ، كما أن السبيل الذي سلكه على شاطئ النهر يوضع تحت الحراسة الدقيقة طول العام حتى

لا يسلكه غيره . ولا يتراك الخليفة قصره مرة أخرى طول العام » .

ولا شك أن هذا الوصف على الرغم مما تخلله من الأخطاء بسبب جهل بنiamين التطيلي بتعاليم الدين الاسلامى يريينا كيف كان الخلفاء العباسيون فى ذلك الوقت يقضون حياتهم فى اللهو واللعب ، كما يريينا تمسكهم بأهداب الرفعة وميلهم الى الظهور أمام الناس بمظهر القدسية ، وأنهم كانوا يقضون حياتهم خاتفين على مراكنهم أن ينتزعها منهم أحد أفراد أسرتهم فيصبحون بعيدين عن الناس وعن ادارة شئون الدولة .

والواقع أن هؤلاء الخلفاء جميعا كانوا ضعافا ولم يستفاد العراق من حكمهم كثيرا أو قليلا ، بل ان حكمهم جر عليه الويل . واذا كان الناصر قد شد عنهم بشخصيته القوية ومطامعه الكبيرة ونشاطه الجم وميله الى العمل ، فاته لم يكن لاعماله من الاثر ما يختلف عما كان لأعمال الآخرين من آثار ، بل ان أيامه لتعد من أسوأ الأيام في العراق وذلك لأن قوته كان يشوبها الظلم والتبعير فكان يثقل كاهل الناس بالضرائب والمكوس (١) كما كان يشوبها الغرور وليس أدل على ذلك من العلم بأنه أراد أن يحيط نفسه بهالة من السيمو فابتعد عن الناس كما ادعى العلم بالغيب . وان المؤرخين ليذكرون لنا كثيرا من أخبار ادعاءاته ، فمن ذلك ما ذكره السيوطي (٢) « من أن رسول صاحب مازندران دخل بغداد وكانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل ... فخرج من بغداد وهو لا يشك أن الخليفة يعلم الغيب » ، وكذلك

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء . ص ١٨١

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠

ما ذكره من أن «رسول خوارزمشاه أتى بغداد برسالة مخفية (يقصد سرية) وكتاب مختوم ، فقيل له : ارجع فقد عرفنا ما جئت به» ، وأيضاً من ذكره من ان «رجالاً أتى ببيان تقرأ كلها هو الله أحد تحفة لل الخليفة من الهند فاصبحت ميتة» . واصبح جران (كذا) فجاءه فراش يطلب منه ابباً يفجعه فبكى وقال : الليلة ماتت ، فقال : قد عرفنا هاتها ميتة . • وقال : هم شأن ظنك أن يعطيك الخليفة ؟ قال : خمسمائة دينار . • قال : هذه خمسمائة دينار خذها فقد أرسلها إنيك الخليفة فانه أعلم بحالك منذ خرجت من الهند» .

ونحن لا نجاد لأى واحد من خلفاء هذه الفتنة يدا في ادارة شئون البلاد ؛ لأنهم كانوا يعيشون في قصورهم الواسعة ولا يظهرون للناس الا نادرا . وقد كانت الحكومة في زمنهم في آيدى غلمان القصر وعلى رأسهم استاذ دار الخليفة يحر كها كيف يشاء . وتمتاز هذه الفترة على وجه العموم وبغير استثناء بازدياد سلطة أستاذ الدار . ففي أولها تمكן عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء أستاذ دار المستنجد من تدبير مؤامرة ذهب الخليفة ضحيتها وذلك حين خاف بطيشه ، هذا الى أنه بعد ذلك أحضر ابن الخليفة المقتول ووضعه على عرش الخلافة ولقبه المستضيء وذلك بعد أن اشترط عليه شروطاً قبلها<sup>(١)</sup> ، فكانه تمكן من التخلص من الخليفة ووضع آخر مكانه ثم وضع لمن أجلسه على العرش السياسة التي يسير عليها ، وليس بعد هذه السلطة أمل لمؤمل . وفي أيام الناصر كان نفوذ أستاذ الدار لا يزال كبيراً أيضاً؛ بدليل ما ذكره ابن جبير في كتابه<sup>(٢)</sup> بعد زيارته لبغداد

(١) الأخرى ، ص ٢٢٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٥ .

سنة ٥٨٠ هـ ، حيث قال ان أستاذ الدار قيم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة العرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه العرم الخلاقية ، وكان يدعى له اثر الدعاء للمخليفة . وقد بلغ من ازدياد سلطة أستاذة الدار أن طفوا على الوزراء فلم تعد نسمع عنهم شيئاً . ونعن لا يكاد نرى بعد ابن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد وزيراً واسع السلطان مسموع الكلمة . وقد ذكر ابن جبير في رحلته (١) أنه وجد في بغداد نائب وزارة ولم يقل انه وجد وزيراً ، وفي هذا ما يكفي للدلالة على أن الوزير وإن كان موجوداً إلا أنه كان لا يكاد يحس بوجوده انسان .

وكان من أثر ضعف الخلفاء في هذه الفترة وتقلص سلطة الوزراء أمام تيار غلمان القصر وأستاذة الدار الجارف ، ان اعتلت الادارة في العراق وببدأ العامة يحسون بضعف الحكومة وعجزها عن تسخير دفة البلاد ، ولذلك نجدهم يستهترون بها فتعم الفتنة وتكثر الاضطرابات فيما بينهم . واننا لنعجب حين يذكر لنا ابن الأثير (٢) عند كلامه على سنة ٦٠١ هـ أن ثلاث فتن وقعت في بغداد فيما لا يتجاوز الشهر بين أهالي محلات المختلفة ، ثم لا يلبث عجبنا أن ينقلب إلى دهشة حين يذكر لنا أن السبب في وقوع اثنتين منها هو أن أهل محلة من محلات قتلوا سبعاً وأرادوا أن يمروا في محلة الأخرى فاشتبك بهم أهلها ، وأن الفتنة الثالثة كان السبب فيها أن رجلين من محلتين مختلفتين اختصماً وتوعدا كل منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا . والأدهى من ذلك وأمر هو ما ذكره من أن حكومة الخلفاء كانت تتدخل

(١) المصدر نفسه .

(٢) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٩٤ .

في كل هذه الفتنة ، فأخذانا تطفيها بعد أن يناؤها الأهلون  
وأحياناً تتركها حتى تسكن من تلقاء نفسها .

### (ب) الناحية العربية

لم تكن الناحية العربية خيراً من الناحية السياسية ، فقد أخذ جيش الخلفاء العباسيين يفقد شهرته منذ تسرّب الضعف إلى جسم الدولة العباسية ، وكانت أيام بنى بويه والسلاجقة في بغداد أيام انحطاط أن لم تكن أيام زوال لهذا الجيش ، لأنّه لم يكن من مصلحة هؤلاء الأجانب بقاء جيش يناؤ بهم النفوذ وقد يطردهم في يوم من الأيام حين يجد في نفسه القدرة على التغلب عليهم :

وعلى الرغم من أن هذا الجيش بدأ يزداد عدداً وعدها من أيام الخليفة المقتضى لأمر الله (١) ؛ فإنه لم يبلغ الدرجة التي كان عليها في أيام العباسين الأول، ولم يزد عن أن يكون قوة ثانوية ليس في إمكانها أن تلعب دوراً مهماً في الحوادث الجسام . حقيقة أن خلفاء تلك الفتنة استعملوا هذا الجيش في أمور عده ، فالمقتضى لأمر الله تمكّن بوساطته من صد محمد ابن محمود بن ملكشاه السلجوقى عن بغداد سنة ٥٥١ هـ (٢) . وحقق بذلك استقلال العراق وخُلصَّ الخلافة العباسية من سيطرة الأجانب بعد أن ظلت خاضعة لهم نحو أربعة قرون ، وأن المستجد تمكن بوساطته من القضاء على بنى أسد أصحاب الحلقة المزیدية حين رأهم يعيشون في بلاده . فساداً (٣) . الا أن هذه الأعمال كانت ثانوية أيضاً ، فقد كان

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٢ وما يليها .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٥ - ٩٦ .

(٣) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر . ج ٢ من ٤٣ .

Ritchard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 429.

السلاجقة حين صدتهم المقتفي لأمر الله قد وصلوا إلى أشد درجات الضعف ، هذا ونحن نعلم أن جيوش السلاجقة هزمت جيوش الخليفة بعد ذلك في أيام الخليفة الناصر ، إذ ان هذا الخليفة عندما رأى ازدياد نفوذ طغرل بن أرسلانشاه بن طغرل جهز عسكراً كثيفاً سنة ٤٨٥ هـ وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس ثم سيرهم لمحاربته ولكنه هزمهم قرب همدان (١) ، كما أنبني أسد الدين انتصر عليهم الجيش العباسى في أيام المستنجد لم يزد أمرهم عن أن يكونوا قبائل بدوية لا يربطها نظام ولا يجمعها حكم .

ويثبت لدينا أن هذا الجيش كان قوة تانوية لا أكثر ولا أقل حين نراه في أيام الخليفة الناصر يظهر العجز والصور أمام جيوش محمد خوارزمشاه ، فقد أرسله بقيادة وزيره ابن القصاب إلى خوزستان فاستولى عليها كما اسلوى على بعض مدن في فارس ، ولكنه حين وصلت جيوش محمد خوارزمشاه انسحب منها وولى الأدبار (٢) ؛ ولذلك ثان الناصر يتحاشى ملاقاة جيوش محمد خوارزمشاه بعد ذلك . ويضاف إلى ذلك أن الخليفة المستنصر كان يلتجأ إلى الأمراء المسلمين يطلب معونتهم حين تهاجم حدود بلاده جيوش التتار . وإننا لنعلم أن الأيوبيين كانوا يرسلون إليه فرقاً من جيوشهم ، كما كانوا يستخدمون له جنداً مرتزقة (٣) ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا لأن الخليفة كان يؤمن بضعف جيشه أمام تلك الغارات القوية من تلك الجيوش العظيمة .

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٢ وابو الفدا ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

(٢) ابٰو الفدا ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

(٣) المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

## (ج) الناحية الطائفية

كان خلفاء تلك الفترة كغيرهم من الخلفاء العباسيين يعتنقون المذهب السنى ؛ وبذلك نجدهم يتخدون الوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة من طائفة أهل السنة . هذا إلى أنهم كانوا ينشئون لهم المدارس والربط والمدارستان والمساجد ، وقد ذكروا أن مدارسهم فى بغداد بلغت الثلاثين فى أيام الناصر (١) . ولم يقتصر الأمر على هذا بل أن الخلفاء كانوا يحضرون مجالس الوعظ التى جرى هؤلاء على إقامتها فى ذلك الوقت ، ويدرك ابن جبير (٢) أن الخليفة الناصر جعل الشيخ جمال الدين أبو الفضائل ابن على الجوزى ، أحد علمائهم ، يقيم مجلسه فى ساحة قصر الخليفة ومناظره مشرفة عليه حتى يسمعه ، وكان يفرض هذا المكان بالحصر ليحضره العامة .

أما الشيعة فانهم وان لم يكونوا فى ذلك الوقت موضوع استبداد أو ظلم من الخلفاء ؛ الا أنهم كانوا فى مكانة أدنى من مكانة آهل السنة ، ولم يكن الخلفاء يتخدون منهم وزراء أو أعيوانا ، وقد حدث أن الخليفة الناصر - وكان يتشيع (٣) - اتخذ رجلا من الشيعة هو نصير الدين العلوى سنة ٦٠٤ هـ بعد ابن القصاب وزيرا له ففضب آهل السنة وكثرت أقوالهم فيه حتى اضطر إلى عزله ، ومن أقوالهم هذه الأبيات (٤) :

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠١

(٣) أبو الفدا ، ج ٤ ، ص ١١٩

(٤) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٢٩

ألا مبلغ عنى الخليفة أح마다  
 توق وقيت السوء ما أنت صانع  
 وزيرك هذا بين أمررين فيما  
 فعالك يا خير البرية ضائع  
 فان كان حقا من سلالة أحمد  
 فهذا وزير في الخلافة طامع  
 وان كان فيما يدعى غير صادق  
 فأضيع ما كانت لديه الصنائع

وقد كان لسياسة الخلفاء هذه ازاء الطائفتين اثرها  
 السريع ، لأن الشيعة أصبحوا يكرهون أهل السنة ويحقدون  
 عليهم تمعنهم بالمراكيز العليا دونهم وقربهم من الخلفاء ، ولذلك  
 كانت المعارك كثيرة ما تقوم بين الفريقين في قيوض النظام  
 ويضطرب الأمن .

وكان للمسيحيين في بغداد مرکن ثابت ، كما كان الخلفاء  
 العباسيون يعاملونهم معاملة حسنة . وقد سمحوا للبطريق  
 النسطوريين منهم بالإقامة في بغداد ، كما سمحوا لهم جميعا  
 باقامة الكنائس والأديرة ومزاولة طقوسهم الدينية . وكان  
 للمسيحيين في بغداد الغربيّة أديرة كثيرة ، منها دير العذارى  
 في حي الكرخ ودير درتا وهو يحاذى بباب الشّماسية راكبا  
 على دجلة ودير القباب شمال حي الزبيدية ودير أشمونى  
 وهو بقطربيل شمال المدينة المستديرة ودير مديان أو دير  
 سرجيوس على قناة الكرخ ودير الشعالب بقرب قبر معروف  
 الكرخي ودير الجاثليق بقرب دير الشعالب . وكانت توجد

في بغداد الشرقية كنيستان احدهما للنسطوريين والآخر لليعقوبيين . وكان للنسطوريين أيضا دير الروم ويحيط به حي النصارى الذي كان يقع إلى الشمال من قنة المهدى عندما تسير غربا لتلتقي بقناة السور في حي الشهانسية ، كما أن لهم ديرين خارج باب الشهانسية ، هما دير درمالس ودير سمالو وشمالها دير سابر ودير مارجرجس . أما في بغداد الجديدة ، فكان لهم دير الزندورد بقرب باب الازج . وعندما كتب ياقوت كتابه البلدان ، كان كثير من هذه الأديرة قد تهدم وأصبح أماكن نزهة يذهب إليها أهل بغداد لقضاء أعيادهم . على أن المسيحيين مع ذلك كانوا لا يزالون يحتفظون بمركزهم القديم في بغداد ، وإذا كانت بعض مبانيهم قد تهدمت في أثناء المنازعات التي كانت تقوم بين أهل السنة والشيعة فقد تهدم أيضا من جراء هذه المنازعات كثير من مساجد المسلمين . ولا شك أن المسيحيين لم يلاقوا من الخلفاء العباسيين إلا كل غطف (١) .

ولم تكن حالة اليهود في تلك الفترة من حياة الخلافة العباسية تختلف عن حالة المسيحيين من حيث الحرية والطمأنينة ، فقد كان عددهم في بغداد يبلغ الألف نفس عندما زارها بنiamin التطيلي في أيام المستجد ، كما كانوا يتمتعون بسلام وراحة وجاه عظيم ، وكانت لهم مدارس لدراسة القانون الموسوى بلغت العشرة ، وكان لهم رئيس يسمونه أمير الأسر ويسميه المسلمون حفييد داود التبليل تحت سلطته كل الجمعيات اليهودية ويتمتع بدخل واسع ، وكان الخلفاء العباسيون يقررون اليهود ويأمرون الناس ، سواء منهم

(١) ياقوت - معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١٩ - ١٨٥ .  
Le Strange Baghdad During the Abbasid Caliphate , pp. 208-212.

ال المسلمين أو المسيحيون باحترام رئيسهم والقيام في حضرته . وكان لليهود ثمانية وعشرون معبدًا بعضها في بغداد الشرقية والبعض الآخر في الكرخ . وكانت هذه المعابد فخمة بها أعمدة الرخام ونقوش الذهب ؛ وذلك لأن اليهود في بغداد كانوا أغنىاء يملكون البساتين والعقارات ويشغلون بالتجارة .<sup>(١)</sup>

#### (د) الناحية العمرانية

العراق قطر زراعي والعمل الأساسي الذي يقوم به أهله هو الزراعة وأهم ما تحتاج إليه الزراعة هو الاهتمام بمشروعات الرى اهتماما يكفل للزراعة الحصول على الماء حين يحتاجون إليه . ولما كان الخلفاء العباسيون بعد أن استقلوا بشئون العراق ساروا على شاكلة اسلامقة وأهملوا مشروعات الرى اهتملا جعل الحصول على الماء اللازم للزراعة في حينه متعدرا ، كما جعل المزروعات عرضة لفيضانات الانهيار في كثير من الأحيان — فقد صار أهل العراق ذى هذه الفترة في أسوأ حال .<sup>(٢)</sup>

وزاد من سوء حال أهل العراق في ذلك الوقت ما اشتهر به الخلفاء من حب للممال وعملهم على جمعه . فانهم لم يتذروا أن يشقوا كاهل الناس بالمكوس والضرائب ، وقد ذكروا أن المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج<sup>(٣)</sup> ، كما ذكروا أن الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) كان سيء السيرة خربت في أيامه العراق مما أحدثه من الرسوم

Asher (trans.) Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, pp. 100-104. (١)

Coke, Baghdad the City of Peace, p. 125. (٢)

(٣) الفخرى ، ص ٢٣٢ .

وما اغتصبه من الأموال والأملاك (١) ، وأن الخراج في أيامه أصبح كبيرا جداً للدرجة أن يعقوبا (٢) التي كان يحصل منها قبل زمنه عشرة آلاف دينار ، أصبح يؤخذ منها في أيامه ثمانين ألفاً (٣) .

وكما أن الخلفاء أهملوا الزراعة والرى فقد أهملوا التجارة وكان جشعهم سبباً في كسادها ، وليس أدل على ذلك مما ذكره السيوطي حين قال إن فقيها خرج من سمرقند في أيام الخليفة الناصر يقصد الحج على فرس جميلة فقال له أهله لو تركتها عندنا لئلا تؤخذ منك في بغداد (٤) ، فان جشع الخليفة الذي صار مضرب الأمثال وأصبح الناس يتقوونه لدرجة أنهم يخافون على فرس يركبها رجل يقصد الحج ، لابد أخاف التجار وأزعجهم وجعلهم لا يقدمون إلى العراق .

ولم يعن الخلفاء باقامة المباني وتشييد القصور كما كان من سبقهم في أيام السلاجقة ؛ وذلك لأن ظهور الدولة الخوارزمية أولاً ثم ظهور الخطر المغولي بعد ذلك استغرق معظم جهودهم ، ولذلك فاننا لا نكاد نعثر في هذه الفترة على مبان تستحق الذكر اللهم الا المدرسة المستنصرية التي أسسها الخليفة المستنصر (٦٤٢ - ٦٢٣ هـ = ١٢٤٢ - ١٢٢٦ م) وعلى العموم ، فقد كانت هذه الفترة فترة تأخر للزراعة وكсад للتجارة وتأخير لفن العمارة .

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، من ١٨١ .

(٢) يعقوبا بالفتح ثم السكون وضم القاف وسكون الواو والباء موحدة ويقال لها يعقوبا أيضاً قبة كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان ، راجع اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ خ من ٣١١ .

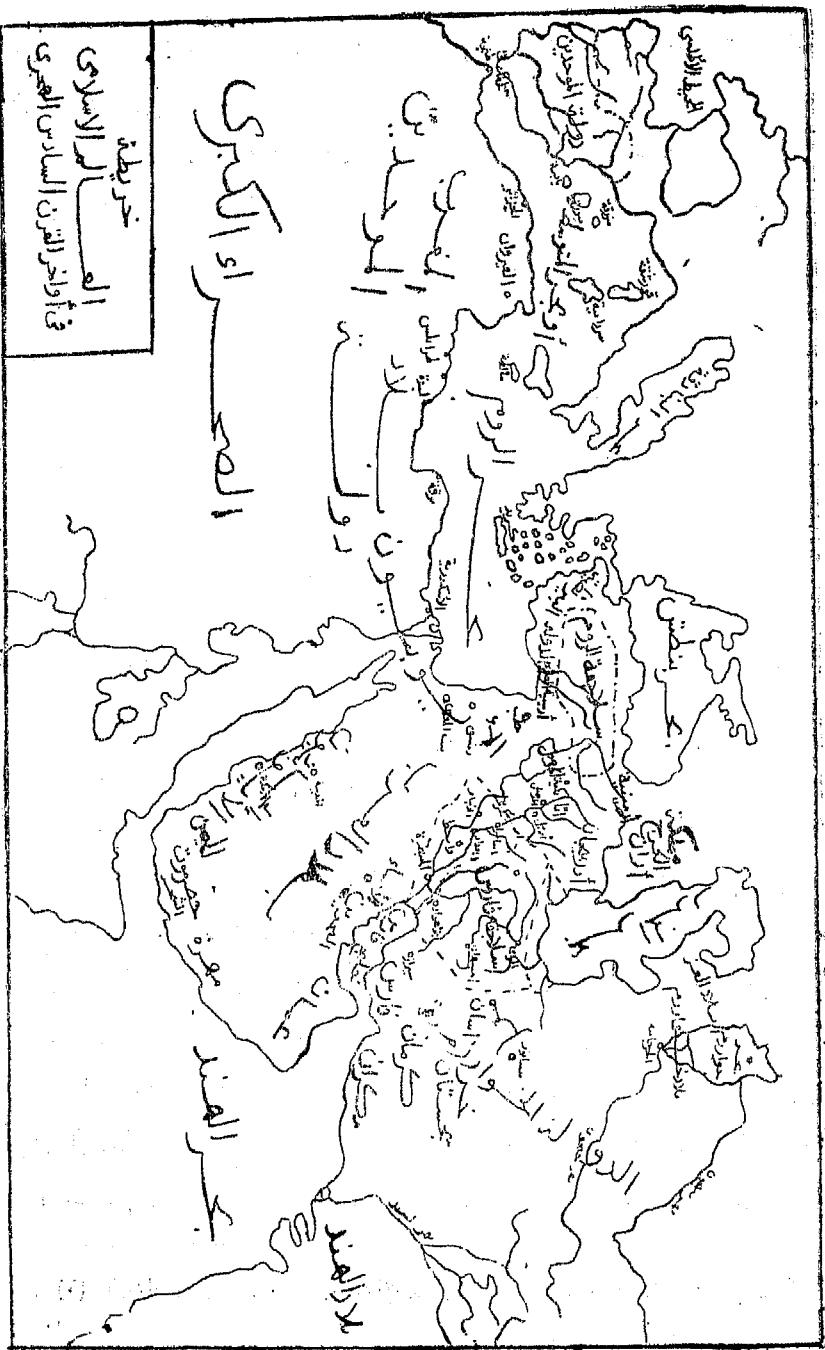
(٤) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، من ١٨٠ .

## ٢ - الحالة الخارجية

كانت حالة الخلافة العباسية الخارجية في هذه الفترة على العكس مما قد يتوقعه البعض - أحسن من حالتها الداخلية . فقد كانت الخلافة لا يزال لها في العالم الإسلامي مركزاً ممتازاً وكان الخلفاء لا يزالون يتمتعون باحترام عظيم من المسلمين ، وليس أدل على ذلك مما ذكره الذهبي في مخطوطه عند كلامه على سنة ٦٢٢ هـ فقد قال إن الملك العظيم (يقصد الملك العظيم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل الذي حكم في دمشق من سنة ٦١٥ إلى سنة ٦٢٤ هـ) حين دعاه جلال الدين خوارزمشاه لمحاربة الخليفة الناصر كتب إليه يقول : « أنا معك على كل حال إلا على الخليفة فإنه أمير المسلمين » . هذا إلى أن معظم خلفاء هذه الفترة كانوا يسيرون الخلع والتقاليد إلى الأيوبيين في مصر والشام ومكة وأحياناً إلى فارس وخراسان وخوارزم وما وراء النهر . على أنه يجب علينا إذا أردنا أن نستوفى الكلام على الحالة الخارجية أن نتكلّم على الدول الإسلامية في ذلك الوقت ثم على علاقة هذه الدول بالخلافة العباسية .

### (أ) العالم الإسلامي في عهد استقلال الخلفاء (٥٥١ - ٥٦٤ هـ)

١ - **الدولة السلجوقية في فارس :** بعد أن تضعضعت الأسرة السلجوقية وفقدت نفوذها في العراق سنة ٥٥١ هـ على أثر فشل السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه في التغلب على جيوش الخليفة العباسى المقتفي لأمر الله التي قاتلت بالدفاع عن بغداد ، لم يبق لها إلا فارس . وقد تمكّن



خريطة  
الإسلامي  
في القرن العاشر  
الميلادي

الإمبراطوري

سلیمان شاه بن محمد بن ملکشاه عم محمد بن محمود المذکور من أن يصبح سنة ٥٥٤ هـ صاحب الأمر فيها واستقر في همدان وذلك بعد أن تغلب على ملکشاه ابن أخيه محمود وعلى أرسلان شاه بن أخيه طغرل الأول وحكمها سنتين؛ وخلفه على العرش أرسلان شاه ابن أخيه طغرل وظل في الحكم إلى أن مات سنة ٥٧٣ هـ ، فخلفه ابنه طغرل الثاني الذي حكم سبع عشرة سنة فقد بعدها حياته وملكته ، حين هزمه تکش خوارزمشاه وقتله وضم أملاكه إلى أملاك الدولة الخوارزمية سنة ٥٩٠ هـ (١) .

**٢ - الدولة الخوارزمية :** أما الدولة الخوارزمية ، فقد أسسها أحد مماليك السلطان ملکشاه السلاجوقى وأسمه أنشتچين Anushtigin حين جعله هذا السلطان العظيم حاكماً على ولاية خوارزم سنة ٤٧٠ هـ . فقد خلفه ابنه قطب الدين محمد سنة ٤٩٠ هـ ثم حفيده أطسز Atsiz سنة ٥٢١ هـ الذي كان أول من أظهر استقلاله عن الدولة السلاجوقية العظمى سنة ٥٣٣ هـ في أيام السلطان سنجر الذي مد نفوذه حتى مدينة جند الواقعة على نهر سيحون – وكان من المصادفات أن مات أطسز في سنة ٥٥١ هـ – ١١٥٦ م التي بدأ فيها عهد استقلال الخلفاء العباسيين وتخلصهم من نير السلاجقة – ثم تولى بعده أبناؤه وأحفاده حتى وصل الأمر إلى تکش بن ایل أرسلان فضم إلى أملاكه خراسان والری وأصبهان فيما بين سنتي ٥٨٩ و ٥٩٠ هـ (١١٩٣ و ١١٩٤ م) . وبعد

(١) البندارى ، ص ٢٩٤ وابن الأثير ج ١٢ ، ص ٥٠١ وأبو الفدا ج ٣ ، ص ٩٤ .

Muir, The Caliphate, p. 583.

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 154.

موته سنة ٥٩٦ - ١١٩٩ م تولى ابنه علاء الدين محمد فسار في الطريق الذي سلكه أبوه واستولى على كرمان ومكران وببلاد الجبل وفارس (١) . كما أخضع لنفوذه بخارى وسمرقند وغزا أملاك الخطا واستولى على عاصمتهم اترار . وفي سنة ٦١١ هـ - ١٢١٤ م قضى على الدولة الغورية واستولى على غزنة . ولم يكن هذا هو كل ما فعله محمد خوارزمشاه ، بل انه في سنة ٦٢٤ هـ - ١٢١٧ م اعتنق المبادئ الشيعية وعول على السير إلى بغداد ولم ينقدرها منه الا غضب الطبيعة على جيشه ونزول الثلوج على جنوده . وقد تبع ذلك ظهور المغول في شرق أملاك الدولة الخوارزمية ثم هاجمتهم لها وفرار محمد خوارزمشاه أمامهم وموته حذنا على ضياع ممتلكاته سنة ٦١٧ هـ ثم قيام ابنه جلال الدين منكيرتى بعده بمحاربة المغول وانتهاء أمره بالهزيمة ثم الفرار والموت سنة ٦٢٨ هـ وزوال الدولة الخوارزمية من الوجود (٢) .

### ٣ - الاسماعيلية (الحسينية) : أما الاسماعيلية

فانهم كانوا من قوى العالم الإسلامي التي لا يستهان بها في ذلك الوقت . وأول ظهورهم كان في اصبهان على يد أحمد ابن عبد الملك بن عطاش ، وفي أيام تلميذه الحسن بن الصباح اتسع نفوذهم فاستولوا على المرت سنة ٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م ثم نشروا نفوذهم على قلاع أخرى كثيرة في بلاد

(١) مكران بالضم ثم السكون وراء وآخره نون أعمجية ، وهى ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى بين كرمان من غربها وسجستان شمالها والبحر جنوبها والمهد فى شرقها . راجع لنظر مكران فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) أبو الفدا - ج ٢ ، ص ١٤٤ والكامل لابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٧٠ و ٢٢١ .  
Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties , pp. 176-177.

فارس من بينها زوزن وكردكوه . وظهر لهم بعد ذلك أتباع في الشام في عدة مراكز من بينها حلب في أيام أميرها رضوان ابن تتش ودمشق في أيام تاجي الملوك بوري . وقد ظهر رجل منهم يسمى بهرام قوى نفوذه وتمكن من الاستيلاء على بانياس وعلى سبع قلاع أخرى بين حماه وحمص وكاد يستولي على دمشق نفسها لولا أن أحس بوري بخطره . ثم تنقلت رئاسة الاسماعيلية بعد ذلك من واحد لآخر ؛ حتى صارت في أيام صلاح الدين الأيوبي إلى أبي الحسن راشد الدين سنان المצרי . واشتركت الاسماعيلية في الشام في كثير من الغزوات الصليبية ، كما أنهم حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبي فحاصر قلاعهم سنة ٥٧٢ هـ ثم عفا عنهم . وقد مات رئيسهم سنان سنة ٥٨٨ هـ ولم يأتوا بعد ذلك بأمر ذي بال .

وأقامت حكومة الاسماعيلية في الموت بزعامة الحسن بن الصباح ، فلما مات سنة ٥١٨ هـ تناوب الزعامة سبعة سمو مشايخ الجبل في مدى قرنين من الزمان بسطت فيهما نفوذها على كثير من بلاد قوهستان وتمكن من مقاومة السلجقة ثم الخوارزميين . وقد كان هؤلاء الرؤساء جميعا بعيدين عن العمل بالشريعة الاسلامية ، فلما تولى الرئاسة جلال الدين بن حسن الكيا الصباحي أظهر التوبة في سنة ٥٥٧ هـ وبقى على ذلك إلى سنة ٦٠٨ هـ فأظهر شعائر الاسلام وكتب إلى جميع قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم والشام فأقيمت فيها ، وبقى على ذلك حتى توفي سنة ٦١٨ هـ فقام من بعده ابنه علاء الدين محمد الذي عاد إلى ما كان عليه أسلافه من

الالحاد ، ثم ولی بعده ابنته رکن الدين خورشاه بعد أن حرض  
حسن المازندرانی على قتل أبيه سنة ٥٦٣ هـ (١) .

**ع - الدول الأيوبيّة :** ومن أهم الدول الإسلامية في تلك الفترة الدول الأيوبيّة في مصر والشام والجزيره وبلاد العرب . فقد ذهب صلاح الدين إلى مصر موافداً مع عمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين ، ثم ما لبث بعد موت عمه أن صار حاكم مصر الحقيقي وذلك سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩) على الرغم من أن الخليفة الفاطمي العاضد لم يمت إلا بعد ذلك بثلاث سنين . وقد عمل بعد ذلك على نشر نفوذه فصار صاحب السلطان في مكة والمدينة بل وفي اليمن حين أرسل آخاه توران شاه اليها سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣) فأسس بها حكومة أيوبية ظللت يتولاها أفراد من بنى أيوب حتى سنة ٦٢٥ - ٦٢٦ هـ (١٢٢٨) ، حين حللت محلهم أسرة بنى رسول . هذا إلى أن صلاح الدين نشر نفوذه في سوريا على أثر موت نور الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٢) ، وأخضع الموصل وجعل أمراء بلاد الجزيره أقباليه (٥٨١ هـ = ١١٨٥ - ١١٨٦ م) وبذلك أصبح السيد المطلق في الأراضي الممتدة بين الفرات والنيل اللهم إلا معاقل الصليبيّين ، ومع ذلك فقد قوضت موقعة حطين (يوليه سنة ١١٨٧ - ٥٨٣ هـ) أركان مملكة بيت المقدس الصليبيّة (٢) .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١١٦ و ١٢٠ - ١٣٢ والقلشندي - صبح الأعشى ج ١ ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .

Browne, Account M. H., pp. 40-42.

Browne, Lit. Hist. of persia, II, p. 453.

Osborn, Islam under the caliphs, pp. 336-366.

D'Ohsson, Hist. des Mongoles, III, pp. 164-187.

(٢) المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٤٢ - ٧٧ و ٥٥ - ١١٠

Lane-poole, The Muham. Dyn, pp. 74-75.

وبعد موت صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ انقسمت أملاكه بين أخوه وأولاده ، فكانت اليمن في يد أخيه طغطكين سيف الاسلام (٥٧٧ - ٥٩٣ هـ) ، وألت البلاد الجزيرية إلى أخيه العادل سيف الدين أبي بكر الصندي ، وكانت حلب في يد الظاهر غازى بن صلاح الدين ، ودمشق في يد صلاح الدين ، ابن صلاح الدين ، ومصر في يد العزيز عثمان بن صلاح الدين ، بينما كانت حمص في يد مجاهد شيركوه الثاني ، حفيد أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، وكانت حماه في يد منصور الأول محمد بن مظفر الأول تقى الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه أخي صلاح الدين ، وكانت بعلبك في يد بهرام شاه بن فروخ شاه داود بن نور الدين شاهنشاه المذكور (١) .

غير أن الأمور ما لبست أن تغيرت ولم تجر في طريقها العادى ، فاستولى العادل على دمشق من الأفضل سنة ٥٩٢ هـ ثم على مصر من منصور محمد بن العزيز سنة ٥٩٦ هـ وظل يحكم تلك الجهات حتى مات سنة ٥٦١ هـ ، وبعد موته ترك أولاده فحكموا في مصر ودمشق وببلاد الجزيرة وأسسوا لهم بيوتا حاكمة فيها (٢) ، بينما لم ينجع من أبناء صلاح الدين سوى واحد فقط هو الظاهر غياث الدين غازى (٥٨٢ -

(١) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٤٣ - ٥٥ و ٧٧ - ١١٠ و Lane-pool, The Muh. Dyn, p. 76.

(٢) حكم في مصر الكامل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ) ثم ابنه العادل الثاني سيف الدين أبو بكر (٦٢٥ - ٦٣٧ هـ) ثم ابنه الثاني نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) وحكم في دمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) ثم ابنه الناصر صلاح الدين داود (٦٢٤ - ٦٢٦ هـ) ثم الصالح اسماعيل آخر الملك المعظم شرف الدين عيسى مرتبة (٦٣٥ و ٦٣٧ - ٦٤٣ هـ) وحكم في البلاد الجزيرية عوض نجم الدين أيوب (٥٩٧ - ٦٠٧ هـ) ثم أخوه الأشرف مظفر الدين عومى (٦٠٧ - ٦٢٨ هـ) ثم أخوه الثاني المظفر غازى (٦٢٨ - ٦٤٣ هـ) .

٦١٣ هـ) الذي أسس دولة له في حلب (١) . أما بيت طفطكين سيف الإسلام في اليمن فقد ظل الأمر فيه يسير في مجرى الطبيعي ، وكذلك كان الحال فيما يختص بالبيت الشيركوفي في حمص والبيت الشاهنشاهي في حماه ، الذي من نسله أبو الفدا مؤلف كتاب المختصر في أخبار البشر . ويجب ألا ننسى أن الفرع الثاني من البيت الشاهنشاهي كان يحكم في بعلبك منذ موت صلاح الدين وزال سنة ٦٢٧ هـ بمорт بهرام شاه (٢) .

ولو أنعمنا النظر في تاريخ الدول الأيوبية لوجدنا أن حروبها كثيرة كانت تقوم بين أفراد البيت الأيوبي ، وكان من نتائج هذه الحروب أن بعض أفراد هذه البيوت الحاكمة كان يمد نفوذه أحياناً على أملاك البعض الآخر ، ومثل ذلك ما حدث حين استولى الأشرف مظفر الدين موسى صاحب البلاد الجزرية على دمشق سنة ٦٢٦ هـ ، ومثل ما حدث بعد ذلك حين مدد الكامل صاحب مصر سلطانه على دمشق سنة ٦٣٥ هـ وتبعه في ذلك العادل الثاني في نفس السنة ثم الصالح أيوب سنة ٦٣٧ هـ وسنة ٦٤٣ هـ بعد أن كان الصالح اسماعيل صاحبها قد استرد نفوذه فيها (٦٣٧ - ٦٤٣ هـ) . أضف إلى ذلك ما كان يتعرض له الأيوبيون من هجمات الصليبيين التي يمكن أن نذكر من أهمها غزوهم دمياط في أيام الكامل سنة

(١) بعد موت الظاهر حكم في حلب ابنه العزيز غياث الدين محمد (٦١٣ - ٦٣٤ هـ) ثم حفيده الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد (٦٣٤ - ٦٥٨ هـ) .

(٢) ابن العبرى ، ص ٣٩١ - ٤٥٤ .

١١٦ هـ وغزوهم دمياط والمنصورة سنة ٦٤٧ هـ في أيام الصالح نجم الدين أيوب (١) .

**٥ - الروم السلاجقة :** كانت دولة الروم السلاجقة من ضمن الدول الإسلامية المعاصرة لفترة استقلال الخلفاء العباسيين الأخيرة (٥٥١ - ٦٤٠ هـ) أسسها سليمان بن قطلمش Kutlumish ابن أرسلان بيغو بن سلجوقي سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) وتولى على عرشها من بعده أولاده وأحفاده (٢) حتى وصل الأمر إلى غياث الدين كيخسرو الثاني ابن علاء الدين كيقباد الأول (٦٣٤ - ٦٤٣ هـ) (١٢٣٦ - ١١٤٥ م) . وأهم ما يمكننا ملاحظته أن هذه الدولة وقعت منذ سنة ٦٤٠ هـ تحت نفوذ المغول ، على أثر ما كان من انهزام غياث الدين كيخسرو أمام جيوشهم عند أرزنجان - أحدى بلاد أرمينية - ودخول هذه الجيوش وتغلغلها في بلاده ، وفتحها سيواس وقيصريّة عنوة ثم طلب غياث الدين الصلح واجابت به إليه على أن يدفع جزية سنوية قدرها أربعين ألف دينار ويقدم عدداً من العبيد والخيول والأشياء الشميّة (٣) .

(١) ابن العبرى ، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ .

والمربي - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ١٩٤ - ٢٠٩ و ٢٢٣ - ٣٦٣ .

(٢) حكم في فترة استقلال الخلفاء سبعة من السلاطين هم - عز الدين قلبي أرسلان الثاني (٥٥١ - ٥٨٤ هـ = ١١٥٦ - ١١٨٨ م) وابنه قطب الدين ملكشاه الثاني (٥٨٤ - ٥٨٨ هـ = ١١٨٨ - ١١٩٢ م) وابنه الثاني غياث الدين كيخسرو الأول (٥٨٨ - ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ - ١٢٠٣ م) وابنه الثالث ركن الدين سليمان الثاني (٥٩٧ - ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ - ١٢٠٤ م) وقلبي أرسلان الثالث بن سليمان الثاني (٦٠٠ - ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ - ١٢٠٥ م) وكيخسرو الأول مرة ثانية (٦٠١ - ٦٠٧ هـ = ١٢٠٤ - ١٢١٠ م) وعز الدين كيكاؤس الأول (٦٠٧ - ٦١٦ هـ = ١٢١٠ - ١٢١٩ م) وأخيراً علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ - ٦٣٤ هـ = ١٢١٩ - ١٢٣٦ م) .

(٣) ابن العبرى ، ص ٤٤٠ - ٤٤٢ .

٦ - أتابكية الموصل : هذا ويجب ألا ننسى أن الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ظلت قائمة في هذه الفترة وإن كانت قد ضعفت وضاقت رقعتها ، وبعد أن كانت تشمل في أيام نور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازى الشام وبلاد الجزيرة ، أصبحت لا تتعدى الموصل ، وانتهى بها الأمر بعد وفاة ملكها القاھر عن الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنکي سنة ٦١٥ هـ أن صارت تحت وصاية بدر الدين لؤلؤ الذى عينه الملك القاھر قبل وفاته وصيا على ولده نور الدين أرسلان شاه لصغر سنّه ، وصار بعد وفاة نور الدين هذا سنة ٦١٦ هـ وصيا على أخيه ناصر الدين محمود الذى كان له من العمر ثلاث سنوات . وبعد وفاة هذا الأخير سنة ٦٣١ هـ أصبح بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر في الموصل واستتب له الأمر فيها بل انه أخذ يضيف إليها فملك جزيرة ابن عمر (١) في سنة ٦٤٨ هـ وأسر صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من بيت أتابك زنکي ، ثم قتله وظل يحكم حتى سنة ٦٦٠ هـ (٢) .

### (ب) علاقة الخليفة العباسية بالدول الإسلامية

إذا استعرضنا العلاقات الخارجية بين الخلفاء العباسيين والدول الإسلامية في ذلك الوقت ، وجدناها تسير طبقاً لسياسة مرسومة ترمي إلى غرضين اثنين : أحدهما تأمين العراق من الأخطار الخارجية ، وثانيهما نشر نفوذ الخليفة العباسية في العالم الإسلامي .

(١) وهي بلدة كانت تقع على دجلة شمال الموصل .

(٢) ابن العبرى ، ص ٣٩١ بـ ٤٥٦ .

**١ - تأمين العراق من الأخطار الخارجية :** تمكّن الخليفة العباسى المقتفي لأمر الله من صد غارة السلطان محمد بن محمود السلاجقى عن بغداد سنة ٥٥١ هـ وأعاد بذلك إلى الخليفة العباسية نفوذه بعد أن كانت ألعوبة فى أيدي الأجانب أكثر من قرنين (٣٣٤ - ٥٥١ هـ) كما أعاد إلى العراق استقلاله . وبعد موته سنة ٥٥٥ هـ اعتلى عرش الخليفة المستنجد فعمل هو وزيره ابن هبيرة على تأمين العراق من الأخطار . وحدث فى ذلك الوقت أن أصبح الأمن فى فارس للسلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بعد تغلبه على ملكشاه ابن أخيه محمود وعلى أرسلان شاه ابن أخيه طغرل، وأرسل الأمير عبد الرحمن بن طغاييرك لينتوب عنه فى بغداد كما أرسل رسولاً ليخطب له فى العراق ، فلم يرض المستنجد وزيره بشئ من ذلك ولم يتحقق أمله ومات الرسول وانتشرت الأراجيف بعد موته كما عاد ابن طغاييرك أدراجه (١) .

أما الخليفة الناصر فانه حين رأى طغرل بن أرسلان شاه قد قوى نفوذه بعد موت أبيه وامتلك كثيراً من البلاد وأصبح يهدى العراق، أرسل قوة على رأسها وزيره جلال الدين عبييد الله ابن يونس لمحاربته (٢) والقضاء عليه ، فلما انتهى أمرها بالهزيمة ورأى أن قوته لن تنفع فى صد تيار طغرل اتجه إلى الدولة الخوارزمية الناشئة واستعن بها عليه فوصل إلى غرضه ، اذ حاربه تکش خوارزمشاه وهزمه وقتله وأرسل رأسه إلى الخليفة ليعرضها أمام قصره فى بغداد (٣) .

(١) البندارى - زيدة النصرة . ونخبة العصرة ، ص ٢٩٤ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٢ وابو الفداء ج ٣ ، ص ٨٠ .

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٥٠ و Muir, The Caliphate , p. 583.

وكما أن تأمين العنقاق كان سبباً في بدء العلاقات الودية بين الخليفة الناصر والدولة الخوارزمية ، فقد كان أيضاً السبب في سوء هذه العلاقات وما أتت به من نتائج سيئة ، وذلك أن الناصر حين استعان بتكتش كان يأمل من وراء القضاء على السلاغقة تأمين العراق بالحصول على جزء كبير من أملاكهم في فارس ، ولهذا السبب نجده بعد أن يقضي تكتش على طغرل يبادر إلى الاعتراف بسلطته في خوارزم وخراسان وفارس (١) ثم يرسل إليه سنة ٥٩٠ هـ وزيره مؤيد الدين ابن القصاب ومعه خلع ثمينة وهدايا فاخرة . ولكنّه حين يجد أن تكتش لم يقابل رسوله بالترحاب بل وأرسل قوة لرده قبل وصوله إلى همدان (٢) ، يعلم أنه يريد ابقاء ممتلكات السلاغقة لنفسه ويرى أن في هذا أكبر الخطط على العراق لأن الدولة الخوارزمية أقوى من السلاغقة في فارس ومطامعها أوسع ، ولذلك عزم على مناورة تكتش وقد أرسل لها هذا الغرض وزيره ابن القصاب على رأس قوة إلى خوزستان في السنة نفسها ، كما أرسل في السنة التي تليها قوة على رأسها مملوك اسمه سيف الدين طغرييل ، نجحت كل منها واستولت على عدة بلاد بسبب غياب تكتش في الجهات الشرقية من ممتلكاته ، ولكن نجاحها كان مؤقتاً ولم يلبث تكتش عند عودته أن طرد كلّاً منها وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه . ولم ينته الأمور عند هذا الحد بل ان تكتش في سنة ٥٩٢ هـ أرسل إلى الخليفة يطلب السلطنة واعادة دار السلطنة إلى ما كانت عليه وأن يجيء إلى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده كما كانت الملوء

(١) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ٥٠ .

Muir, The Caliphate, p: 583.

(٢) Sayed Ameer Ali, A short Hist of the Saracens, p. 386.

Ravestey (trans.), Tabakat-i-Nasiri, note, 6, p. 242.

السلجوقية (١) ، كما أنه عند موته واعتلاء ابنه محمد خوارزمشاه على عرش السلطة تبودلت الرسائل بينه وبين الخليفة الناصر في هذا الموضوع ولكنه لم يفز بطالع وكان ذلك سبباً في غضبه على الخليفة وعزمه على اذلاله ، وبخاصة بعد أن وقعت في يده مراحلات عندما فتح غزنة كان الناصر قد أرسلها إلى شهاب الدين الغوري وأخيه يدعوهما فيها إلى محاربة تكش (٢) وبعد أن ثبت لديه أنه يعرض الشائرين عليه في فارس (٣) . وقد سمعت له الفرصة عندما حرض الناصر نفراً من الحشيشية فقتلوا أغلامش الأتابكي الذي كان ينوب عنه في العراق وذلك عندما ركب يلتقي العجاج عند انصرافهم من حجج بيت الله الحرام . وقد سار محمد خوارزمشاه إلى العراق العجمي وجمع مجلساً من العلماء أفتى بأن الناصر لا يستحق الخلافة ، وعين علوياً من ترمذ اسمه علاء الملك اماماً بدلاً منه (٤) ، ولم يكتف بذلك بل سار يقصد بغداد ولم يدخل دون ذهابه إليها إلا نزول الشلخ على جيشه بعد أن بعد عن همدان بيومين أو ثلاثة وعلا عقبة سعداباد ، ومهاجمة بنى ترجمان الترك وبني هكار الأكراد الذين بقى من الجندي ثم تهديد المغول لبلاده . ومع ذلك ، فإنه أخذ يقطع الخطبة للناصر في البلاد التي يمر بها في عودته (٥) . وبعد موته محمد خوارزمشاه واستيلاء ابنه جلال الدين على عرش الدولة الخوارزمية ظلت العلاقات مع الناصر سليمة ، على

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٢

Howrth, History of the Mongols, p. 74.

(٢)

Encyc. of Islam, art. Nasir.

(٣)

Ibid.

(٤)

Ravestey (trans.), Tabakat-i-Nasiri, p. 265, nota 4.

و

(٥) ابن الأثير ج ١٢ ، من ١٤٦ ، وأبو المدا ج ٣ ، من ١٢٤ ، ومحمد النسوي ،

سيرة جلال الدين ، من ٢٠

الرغم من محاولة جلال الدين تحسينها (١)، فلما مات الناصر وحلت أيام المستنصر تحسنت العلاقات ولكن لم يكن لذلك فائدة تذكر؛ لأن الدولة الخوارزمية سرعان ما زالت أمام ضربات المغول.

ومما تجدر ملاحظته في هذا المقام أن سياسة تأمين العراق من الأخطار الخارجية كانت سبباً في نشوء العلاقات بين الخليفة العباسية والمغول، أو بمعنى آخر كانت سبباً في مجع المغول إلى الغرب وقضاءهم على الخوارزمية كما كانت من قبل سبباً في قضاء الخوارزمية على دولة السلاجقة في فارس، فقد ذكروا أن الخليفة الياصر حين اشتد النزاع بينه وبين محمد خوارزمشاه وخاف يخطره استدعا المغول (٢)، الذين كانوا قد نشروا نفوذهم في الصين واتجهوا غرباً فلبيوا دعوته وتذفقوا إلى ما وراء النهر بقيادة جنكيز خان وتمكنوا بعد حروب طويلة من القضاء على الدولة الخوارزمية التي كانت تضايق الخليفة العباسية وتهددها وذلك في عهد اجطاي بن جنكيز خان، على أن الناصر وقد أدى به رغبته في تأمين العراق إلى استدعاء المغول ما لبث أن رأى أكبر الخطر مجسماً فيهم ولذلك أخذ يقاومهم في آخر أيامه، وكذلك حار بهم خلفه المستنصر وصدهم عدة مرات عن العراق ولكن الخطر المغولي كان عظيماً جارفاً ولذلك كان سبباً في فشل سياسة تأمين الفراق، بل أنه اكتسح العراق نفسه وقضى على الخليفة العباسية. ومن ذلك ثرى أن سياسة تأمين العراق كانت السبب في نشوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاجقة فارس ثم بينهم وبين الدولة الخوارزمية ثم آخيراً بينهم وبين المغول.

(١) محمد النسوى - سيرة جلال الدين، من ٩٠٩ إلى ٩٣٨ هـ، ص ٣٥٣.

(٢) ابن الأثير ج ١٢، من ٢٠٢ وأبو الفداء ج ٣، من ١٤٢.

## ٢ - نشر نفوذ الخليفة العباسية في العالم الإسلامي :

كانت أول محاولة لنشر نفوذ الخليفة العباسية في العالم الإسلامي للخليفة المقتفي لأمن الله حين أراد أن يستفيد من حسن علاقاته مع نور الدين محمود بن زنكى لنشر نفوذه في مصر . فقد ذكروا (١) أنه عندما علم بمقتل الظافر بالله الفاطمى واقامة ابنه الفائز عيسى مكانه وكان صبياً صغيراً كتب عهداً إلى نور الدين وولاه مصر وأمره بالمسير اليها . هذا وأذا لم تكن رغبته قد نفذت في حياته فان نور الدين في السنة التي أعقبت موت المقتفي وفي عهد المستضيء عندما بلغه أن صلاح الدين تمكّن من مصر سنة ٥٦٧ هـ وحكم على القصر ، أرسل إليه يأمره بقطع الخطبة العلوية واقامة الخطبة العباسية مكانها (٢) ، وكان له ما أراد وتمت أول خطوة لنشر نفوذ الخليفة العباسية في أيام الخليفة المستضيء (٣) .

أما الناصر فسار شوطاً بعيداً في سبيل نشر نفوذ الخليفة في العالم الإسلامي ، وكذلك فعل من جاء بعده من الخلفاء مثل الظاهر والمستنصر . ودليل ذلك أنهم جميعاً اتبعوا سياسة مصادقة الأيوبيين ، فكانوا يرسلون إليهم الخلع والتقاليد كما كان هؤلاء يحترونهم فيرجعون إليهم لفض مشاكلهم ولا يتأخرون عن تقديم المساعدة التي في مقدورهم تقديمها ، وبهذه الطريقة ظل نفوذ الخليفة العباسية قوياً في بلاد الأيوبيين . وإن التاريخ ليقدم لنا كثيراً من الأمثلة التي توضح صدق ما قلنا ، فالسيوطى (٤)

(١) السيوطى - تاريخ الخلفاء ، ١٧٦ .

Sayed Ameer Ali, A short Hist of the saracens p. 345.

(٢) أبو الفداج ٣ ، ص ٥٣ .

(٣) ابن شاكر - فوات الوفيات ج ١ ، ص ١٣٨ .

(٤) السيوطى - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨١ .

يذكر أن الناصر عندما تولى الخلافة بعث إلى السلطان صلاح الدين بالغلم والتقليد كما كتب إليه السلطان كتابا يقول فيه : « والخادم والله الحمد يعدد سوابق في الإسلام والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والي ثم وارى ، ولا أخرية طغرتلك لأنه نصر ثم حجر ، والخادم خلع من كان ينماز الخلافة رداءها وأساغ الفضة التي أذخر الله لласاغة في سيفه ماءها فرجل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر وأعز بتائيده إبراهيم فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر » . كما يذكر أبو الفدا ما يوضح أن الناصر بعد موت صلاح الدين ظل يسير على سياساته الأولى حيال الأيوبيين فأرسل سنة ٦٠٤ هـ إلى الملك العادل وابنه : الملك الأشرف والملك معظم خلما صحبة الشیخ شهاب الدين السهروردي وكذلك أرسل إلى الملك الكامل (١) ، وأن الملك الأفضل بن صلاح الدين كتب إليه من صرخد يشكو عممه الملك العادل أبا بكر وأخاه الملك العزيز عثمان لاغتصابهما دمشق منه ويقول (٢) :

مولاي ان أبا بكر وصاحبه  
عثمان قد غصبا بالسيف حق على  
فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقى  
من الاواخر ما لاقى من الأول  
فككتب اليه الخليفة الناصر جوابه يقول :  
وافي كتابك يا ابن يوسف معلنا  
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

(١) أبو الفدا ج ٣ ، ص ١١٤ .

(٢) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشير ج ٣ ، ص ٩٧ ، وابن العبرى ، ص ٢٨٩  
و ٣٩١ و ٤١٤ .

غصبوا علياً حقه اذا لم يكن

بعد النبي له بشرب ناصر

فاصبر فان غدا عليه حسنا بهم

وأبشر فناصرك الامام الناصر

ويذكر المقريزى ما يبين أن الخليفة المستنصر سار على طريقة الناصر وكانت العلاقات بينه وبين الأيوبيين على ما يرام ، ويقول انه أرسل فى سنة ٦٢٨ هـ للملك الكامل الخلع والتقليل وميزة بزيادات كثيرة لم تفعل فى حق غيره من السلجوقية وغيرهم كما أرسل خلعا للملك الأشرف أيضا (١) . ومما ذكره المقريزى أن الملك الكامل عندما أرسل اليه الخليفة المستنصر سنة ٦٢٥ هـ مائة ألف دينار ليستخدم له بها عساكر لصد المغول ، أعاد تلك الأموال دون أن يمسها وأخرج من بيت ماله الخاص مائتى ألف دينار استخدم له بها عساكر ثم جرد من عساكر مصر والشام عشرة آلاف زجدة للخليفة (٢) ، هذا الى أنه وقد كان حاقدا على الناصر داود صاحب الكرك لطلاقه ابنته لم يسعه حين شفع لديه فيه الخليفة المستنصر وأرسله اليه الا أن يقبل الشفاعة بل ويضعه على رأس العساكر التى جمعها للمستنصر (٣) .

ويجب أن نلاحظ أن الخليفة الناصر حسن علاقاته مع الاسماعيلية وأنه كان يرمى من وراء ذلك الى ضمهم تحت لواء الخلافة العباسية تمثيا مع مبدأ ضم المسلمين جميعا

(١) المقريزى - السلوك لعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٢٤٢

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥١

تحت راية الخلافة العباسية (١) ، وان مما سهل عليه العمل بهذه الغاية ما كان جاريا عند الاسماعيلية أنفسهم في ذلك الوقت . فان جلال الدين حفيid حسن الصباح ورئيسهم في ذلك الوقت أمر في سنة ٦٠٨ هـ باقامة الصلوات وشرايع الاسلام ببلاد الاسماعيلية في خراسان والشام ، وأرسل رسلا الى الناصر وغيره من أمراء الاسلام يخبرهم بما فعله (٢) بل انه ترك مطالبه في الامامة واعتبر بالخلفية العباسى (٣) .

يتضح من كل ما تقدم ان الخلفاء العباسيين في هذه الفترة الأخيرة من حكمهم في العراق نجحوا في تنفيذ سياستهم الخارجية ، فقد أمنوا العراق من الأخطار التي تعرض لها سواء من سلاجقة فارس او من سلاطين الدولة الخوارزمية بالقضاء عليهم جميعا ، كما تمكنا من ضم مصر والشام وكل بلاد الأيوبيين وكذلك بلاد الاسماعيلية وقتا ما الى دائرة نفوذهم الديني ، الا أنه برغم ذلك فان نجاحهم كان ينطوى على آسباب فشلهم ، فقد كلفتهم سياسة تأمين العراق كثيرا من المجهودات كما أنهم حين أزالوا الدولة الخوارزمية كان ذلك بفضل المغول ، ولا يخفى أن المغول وقد تغلبوا على الدولة الخوارزمية تطلعوا الى أبعد من ذلك وكان لابد لهم أن يتبعوا السير وسيرهم الى الغرب لابد أن يقضى على الخلافة العباسية التي استطلت بهم زمنا . ومع ذلك ، فان خطرهم وضح في آخر أيام الناصر نفسه كما أن المستنصر من بعده بذل مجهودا لا يأس به للوقوف أمامهم . أما نشر نفوذ هؤلاء الخلفاء على الأيوبيين وعلى الاسماعيلية وقتا ما ، فإنه وان

Encyclopedia of Islam, Art. Nasir.

(١)

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ، من ١٢٨ .

Encyc. of Islam, Art. Nasir.

(٣)

أكسبهم احتراماً لدى هؤلاء الأمساء وزاد من نفوذهم المعنوي بينهم بل وان عاد عليهم ببعض الفوائد المادية كما حدث حين أرسل الكامل للخليفة المستنصر سنة ٦٣٥ هـ عشرة آلاف رجل بجانب ما جمعه له من المساكن بما تبقى ألف دينار؛ فانه بعد كل ذلك لم ينفعهم حين اشتد خطر المغول ومن هنا كان ضئيل الأثر . وسترى أن المستعصم على الرفرم من احتفاظه باحترام العالم الإسلامي ، سيتلقى الضربة القاضية وحده دون أن يأخذ بيده انسان ممن يخطبون له على منابرهم

## الباب الثاني

### انتشار نفوذ المغول

#### الفصل الأول

#### البيئة المغولية وأثرها في تكوين المغول

##### ١ - بيئه المغول الأصلية

قبل ميلاد المسيح بعده قرون كانت تقيم في وسط آسيا جماعات من البدو تنتشر من غربها إلى شرقها . أما في الغرب فكانت تقيم القبائل التركية وفي الوسط القبائل المغولية وفي الشرق قبائل التنجو Tongus (١) . ولو أردنا أن نحدد إقليماً جغرافياً كموطن أصلي للمغول ، لاستقر رأينا على منغوليا التي تمتد في أواسط آسيا جنوب سيبيريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال التاي غرباً وجبال خنجان شرقاً .

وييمكن تقسيم منغوليا إلى قسمين : قسم شمالي غربي مرتفع به جبال سيان Sayans وتندولا Tennuola وخنجائى واكتاج Ektag ، وبين هذه الجبال هضاب

Howort, Hist. of the Mongols, IV, pp. 4, 6.  
D'Ohsson, Hist. des Mongoles, Tome I, p. 1.

(١)

و

ووديان تغطيها الحصباء ، وقسم جنوبى شرقى منخفض يشمل صحراء جوبى أو شامو التى ليست الا سهلاً متسعاً مسطحاً أو متتموجاً تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة التى جردها الرياح من المواد الدقيقة من الطين والرمل ، ومن تحتها تظهر فى بعض الجهات مساحات من الصخور كالجزائر فى البحار<sup>(١)</sup> . وتنساب من بين جبال المنطقة الشمالية الغربية الفروع العليا لأنهار أوبى وينسى ولينا بينما المنطقة الجنوبية لا توجد بها أنهار ، فان وجدت كان ذلك على المغافات مثل أنهار أنون<sup>Onon</sup> وكرون<sup>Kerulon</sup> وخالاجل<sup>Khalagol</sup> وتسير من جنجان<sup>Khingan</sup> بعض نهيرات لا تثبت أن تجف حين تصل إلى جوبى . وفوق ذلك يوجد بمنغوليا قليل من البحيرات الملحمة والقذبة كما تتقدح بعض الينابيع ، ولكن المسافر رغم ذلك لا يعدم الماء لأنه اذا حفر وجده قريباً من سطح الأرض<sup>(٢)</sup> .

أما مناخ منغوليا ففاس وقوته في سرعة تغيره وفي بلوغه النهايات القصوى في الحرارة والبرودة وفي جفافه الشديد وفي قوة الرياح التي لا حد لها . أما البرودة فهي الغالبة في معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء إذ يتجمد الماء في المنخفضات حتى شهر مايو ، والجليد يمكن أن يرى على أواني الشرب في شهر أغسطس ، كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهي ، وتبليغ درجة الحرارة في الشتاء في بعض الجهات ٥٨ تحت الصفر . لكننا مع هذا يجب أن نلاحظ أن

Howorth, Vol. IV, p. 10.

(١)

Encyc. Britannica, Art. Mongolia.

و

Howorth, Vol. IV, pp. 11, 13.

(٢)

Encyc. Brit. Art, Mongolia

و

درجة الحرارة في فصل الصيف القصير المدى تبلغ أحياناً ٦٠ درجة . ومما يزيد من قسوة المناخ منغوليا أن الرياح التي تهب في معظم أيام السنة شديدة ؛ حتى أنها تحمل العصى وترسله إلى مسافات بعيدة وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة (١) . ويشهد بقسوة المناخ في منغوليا من زاروها منذ أقدم العصور ، فهذا القس ولد William Friar يقول إن البرد قتل عدداً كبيراً من الحيوانات ، وذاك ولد William Carpinii يذكر عند زيارته لمنغوليا الشمالية ، أن المناخ بها ليس كثير الثبات على حالة واحدة في أواسط الصيف وأن الرعد والبرق الذي يودي بحياة كثير من الناس لا يكاد ينقطع وأن الثلج يسقط بكميات كبيرة وأن أعراض باردة الريح لدرجة يصعب معهابقاء الرجل في سرجه تهب هبواً شديداً (٢) .

وقسوة مناخ منغوليا هي السبب في فقر الحياة النباتية بها ، أما في المنطقة الشمالية الغربية المرتفعة فتنمو الغابات السiberian على سفوح الجبال وتقل كلما سرتنا من الشمال إلى الجنوب ، وحيث لا تنمو الغابات ينمو العشب وتصبح المنطقة لها صفات المراعي الألبية . وفي أواسط جوبي لا تنمو إلا حشائش جافة قليلة وبعض النباتات الملحية . وأكثر هذه النباتات ذيوعا السكسنول Derisun saxaul والدريسن وال الأول عبارة عن أشجار صغيرة لا ورق لها تستعمل لاعطاء قليل من الظل والوقود وكفداء للجمال ، والثانى يقدم للماشية أو يتخذ الفقراء من حبوبه غذاء (٣) .

Howorth, Vol. IV, pp. 14, 15.

(١)

D'Ohssseon, Tome I, p. 10.

و

Howorth, vol. IV, p. 16.

(٢)

Ibid., pp. 10, 16-17.

(٣)

Encyc. Brit., art. Mongolia.

و

و لا توجد في بلاد المغول الا الحيوانات التي تسكن الصحاري عادة ، مثل الجمل المتتوحش ذي السنامين واللحسان المتتوحش والحمار الوحشى والغزال وأنواع من الفيران ذات الفراء الشمين والذئاب والنمور (١) .

## ٢ - معيشة المغول

كان المغول القدماء كغيرهم من البدو رعاة ، لكل قبيلة من قبائلهم العديدة منطقة معينة يتنقل أفرادها بين ربوعها بحيواناتهم باحثين عن منابت العشب تبعا لفصول السنة المختلفة ، فيذهبون في الربيع نحو الجبال ويرجعون قرب الشتاء إلى السهول . كانت كل قبيلة من قبائلهم لها رئيس يحمل لقب نويين Noyan أو تيشى Taischi تطليعه وتاتمر بأمره ، بل ان كل قبيلة من قبائلهم كانت تنقسم إلى جماعات لكل جماعة رئيسها وكل جماعة يحتويها مكان واحد . وكان أفراد القبيلة يدفعون إلى النوىين عددا معينا من الحيوانات كل عام جزاء محافظته على أرواحهم وأملاكهم (٢) . وفضلا عن ذلك فقد كان المغول القدماء كالعرب في الجاهلية والهنود الحمر الآن يقضون معظم أوقاتهم في المنازعات القبلية (٣) . ولذلك فقد كانت حياتهم بسيطة فطرية لا يتسرّب إليها التعقيد ، ولو أننا حاولنا أن نلم بها لما كلفنا ذلك أكثر من البحث عن ماكل المغول وملبسه ومسكنه وقوائين مجتمعه البسيطة ودينه البدائى ، وكلها مسائل تدور حول تكوين أسرته وتنظيم جماعته وحمايتها من غضب الطبيعة التي يرهبها ويخشىها .

D'Ohsson, Hist. des Mongols, Tome I, pp. 13-14, 19.

(١)

Howorth, vol. IV, pp. 20-27.

(٢)

Howorth, Vol. IV, p. 30.

(٣)

## (أ) المأكل

كان مأكل المغول بسيطاً مع بدواوتهم وفقر بلادهم ، فهم في الشتاء يأكلون اللحوم . ويجب ألا يتسرب إلى الذهن أنهم كانوا يكتفون بأنواع خاصة منها ، إذ الحقيقة أنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات على اختلافها ، ويدخل في ذلك الكلاب والذئاب والشغال والفيران والخيول ، كما قال كرييني ، وأنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة كما قال القس ولIAM (١) والأنكى من ذلك أنهم كانوا يأكلون اللحوم البشرية ، وقد ذكر هيتون Haithon في هذا الصدد أن مسلماً اتهم بالخيانة ضد ابا قاخان Abakakhan أخذ وقطع نصفين وصدرت الأواامر بأن يوضع جزء من لحمه ضمن كل وجبة من وجبات الخاقان ، كما ذكر أن ابا قاخان أكل من لحمه وجعل جميع أمرائه يأكلون ، وأضاف إلى ذلك أن هذا العمل يتافق مع عادة المغول . وعندما ذكر القس ريكولد RICOLD هذه القصة قال إن السيدات المغولييات طلبين أن يسلم لهن الخائن ولما سلم اليهن غلينه حيا وقطعن جسمه وقدمنه إلى جميع أفراد الجيش ليأكلوه . أما فنسنت أف بو فيه Vincent of Beauvais ، فقد ذكر أن المغول كان من عادتهم أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم . ويقول كرييني ، إن المغول في أحدى غزواتهم في الصين عندما نفد طعامهم ضربوا بوحد من كل عشرة رجال في الجيش ليكون طعاماً للباقيين منهم (٢) . وفي الصيف لا يأكل المغول اللحوم إلا قليلاً ، فإذا هم أكلوها ، كان ذلك بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة ، فكانوا إذا مات عندهم ثور أو حصان قطعوا اللحم إلى شرائح رقيقة

(١) Ibid., p. 55.

D'OHSSON, Tome I, p. 13.

HOWORTH, Vol. IV, p. 53.

(٢)

و

(٣)

وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعترضها عفونة (١) . هذا بينما كان جل اعتمادهم في هذا الفصل على الألبان وما يستخرج منها . والألبان التي كانت تتواافر عندهم هي ألبان البقس والفنم وكانتوا يستخرجون منها الزبد والجبن وألبان الأفراس ويستخرجون منها ما يعرف باسم كومس Kumis أو خمير اللبن ، ويدرك القس ولIAM طريقة صنعه فيقول إن المغول كانوا يضعون لبن الفرس في قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب ، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة يتذكرون حتى يصبح حامضا ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به (٢) .

### (ب) الملبس

كان المغول يتخذون ملابسهم الحقيرة من أصوات الفنم ووبر الجمال ، كما كانت ملابس الرجال تقاد تشابه ملابس النساء كما كانوا يصنعونها من جلود الحيوانات أحيانا . وإذا كان القس ولIAM وكربييني قد ذكرنا أنهما رأيا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمين فقد كان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي بعد أن صارت لهم امبراطورية واسعة الأرجاء وبعد أن صاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من جهات أوروپا التي كانت تدين لهم بالطاعة (٣) . ويجب ألا يضرفنا ذلك عن الحقيقة الواقعية التي هي بساطة ملابس المغول وحقارتها صنفها وقدرتها ، ويرجع ذلك إلى أن المغول كانوا يغيرون

Howorth, Vol. IV, p. 55.

(١)

D'Ohsson, Tome I, p. 13.

و

Howorth, Vol. IV, p. 59.

(٢)

Howorth, Vol. IV, p. 37.

(٣)

ملابسهم في الصيف مرة كل شهر وفي الشتاء لا يغيرونها أبداً (١) . وقد ذكر القلقشندي (٢) هذا الأمر ، فقال : « ويقال انهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم ولا يمیزون بين طاهر ونجس » .

### (ج) المسكن

لم تكن بيوت المغول أحسن حالاً من بيوت غيرهم من البدو ؛ اذ كانت تقام من الصوف وكانت طريقة انشائها مختلفة كل الاختلاف ، وبينما كانت بيوت غيرهم من البدو مدببة من أعلىها كانت أعلى بيوت المغول على شكل نصف كرة لا تجرها السريح ولا تنقلب بسهولة ولو كانت العواصف شديدة ، وكانت بسبب ذلك دائفة شتاءً معتدلة صيفاً ، كما كانت تشبه أناء منقلبها قائماً على حوائط دائرية من الصوف المثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة بعضها ببعض بقطع من جلود الحيوانات (٣) . وقد ذكر ولIAM الروبريكى أن المغول كانوا يعملون ما يشبه الصناديق من النسيج المتن المغطى بالصوف ليضعوا فيها ما يخافون عليه العطب وأنهم كانوا يذهبونها بشحم الحيوانات أو بلبن البقر ؟ حتى لا تتأثر بالماء اذا عبروا بها الانهار أو نزل عليها المطر ، وأضاف الى ذلك أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عند نقلها عربات يعلق في الواحدة اثنان وعشرون ثوراً وبعضها الآخر صغير يكفى لنقلها ثور واحد او على قول كربيني تنقل على ظهور الجمال . وكانت أبواب بيوت المغول تتوجه عادة الى الجنوب تجنباً لرياح الشمال والغرب القاسية ، كما كانت النار تظل على الدوام مشتعلة في وسط البيت المغولي . أما

Ibid., p. 45.

(١)

(٢) نسيج الأغشى في ٤، من ٣١٢ .

Howorth, Vol. IV, p. 55.

(٣)

ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطاً ، فالحوائط تستعمل لتعليق الأسلحة والأوانى الجلدية التى كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها ، وكانوا يضعون فى الجزء الداخلى المواجه للباب فراش رب البيت ويخصصون الجانب الغربى من البيت للرجال والجانب الشرقي للنساء (١) .

#### ( د ) القوانين

كانت حياة المغول بسيطة فطرية وكان لها من القوانين ما يناسبها فى البساطة . ولو أتنا تناولنا القوانين التى كانت تنظم حياتهم الزوجية بالبحث ، لظهر لنا بكل وضوح أنها كانت بدائية ، لا أثر فيها لاعمال الفكر الناضج ، فلا هى بالتي كانت تقدر الزواج حق قدره ولا هى بالتي كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة ، اذ كانت تعتبر الزواج عملية تجارية . وقد قال فى ذلك ولIAM الروبريكى : « يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بينهم (أى المغول) له امرأة الا اذا كان قد اشتراها ، ويحدث دائمًا أن تجتاز بناته سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آباءهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن » . كما كانت تسلب الزوجة حقوقها التى تقررها لها الشريائع الأخرى والا فما معنى ما يقوله فنسنست أوف بوفيه « لا يعتبر المغول المرأة زوجته الحقيقية حتى يصبح لها طفل أو حتى تصبح فى حكم من لها طفل ، واذا كانت عاقراً أو مكتنة طردها ، ولا يقدم الزوج مهر الزوجة حتى يصبح لها طفل ». الحق أن فيما ذكره كريبينى حيث قال : « ان الرجل المغول يمكنه أن يعوز زوجات على قدر ما يستطيع وللبعض منهم ما يبلغ المائة ، ويسمى لهم

(١)

بالزواج من أية امرأة من الأقارب اللهم إلا أمهاتهم أو بناتهم أو أخواتهم من نفس الام . أما زواجهم من أخواتهم اللاتى لسن من آمهاتهم فقانونى » ، وفيما ذكره ولليام الروبريكى حيث قال : « ان الابن فى بعض الأحيان يأخذ زوجات أبيه ما عدا أمه ؛ وذلك لأن منزل الأب والأم يؤول إلى أصغر الأبناء ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه وإذا أراد أن يعاملهن معاملة زوجاته . وسما يجر عليه اللوم أن يدعهن يذهبن إلى منازل آبائهن بعد موت زوجهن . ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يستولدون من السرارى فى الميراث والحقوق الأخرى » (١) - فى ذلك كله ما يظهر أن قوانين المغول لم تحترم شرعية الزواج ولم تنظم أحکامه تنظيمًا صحيحًا ، بل على العكس كانت تعتبر الزوجة من سقط المتعاج تورث كما يورث وتشجع على العشق والزنا باعترافها بحقوق الأبناء من السرارى . على أنه يجب أن نلاحظ أن المغول كانوا في ذلك كغيرهم من البدو وقد ذكر القلقشندي (٢) أن العربي في الجاهلية كان يتزوج امرأة أبيه . وفي هذا ما يثبت وجود تشابه بين المغولي القديم والعربي في الجاهلية في هذه الناحية الاجتماعية ، ويسمى القلقشندي هذا الزواج نكاح المقت .

ولم تكن القوانين التي وضعها المغول لردع المعتدين وحفظ الأمن في مجتمعهم بأعلى درجة أو أكثر قبولاً من تلك التي كانت تنظم حياتهم الزوجية ، بل أنها كانت أشد اظهاراً لقيوتها وأقوى تجسيماً لحياتهم الفطرية . فقد كانت تقضي بالاعدام على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة أو

Howorth, Vol. IV, pp. 194-195.

D'Ohson, Tome I, p. 14.

(١)

(٢) صبح الاعشى ج ١ ، ص ٤٠٣ .

الت Burgess أو السحر، كما كانت تقضى بضرب من يرتكب سرقة صفيرة ضربا مبرحا وذلك طبقا لما ذكره كرييني وليام الروبريكى . أما ماركوبولو فقد زاد الأمر وضوحا فيما يختص بمسألة السرقة وقال ان المغول من أجل السرقة الصفيرة كانوا يضربون ضربة واحدة أو سبع ضربات أو ١٧ أو ٢٧ أو ٣٧ أو ٤٧ ضربة من ضربات العصا وقد تصل الضربات أحيانا الى ١٠٧ تبعا لنوع الجريمة بشرط أن يكون العدد فرديا ، وأن هذا الضرب كان يودي بحياة المضروب فى بعض الأحيان ، أما اذا كانت الجريمة سرقة حسان أو شيء كبير فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف اللهم الا اذا كان قادرا على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال قيمة الشيء المسروق (١) .

### ( ه ) الدين

كان المغول كغيرهم من الأقوام الأقدمين وثنين وكانت ديانتهم الوثنية تعرف بالشamanية Shamanism وقد ظلت فيهم حتى حلت محلها الديانة اللامية أو البوذية بشكلها الذي اكتسبته من التبت وذلك في القرن السادس عشر الميلادي . وقد كان المغول - طبقا لعقائد الشamanية - يعبدون كل شيء يسمى على مدار ك THEM ويدق على أفهامهم وكل ما ينهم ويدخل الخوف إلى أفئدتهم . لهم آلهة في النهر والجبل والشجرة الكبيرة ، ولهم آلهة في الشمس والقمر ، ولهم آلهة في البرق المخاطف والرعد القاصف ، بل ولهم آلهة إلى أيامهم وشمائهم وأمامهم وخلفهم وفوقهم وتحت أرجلهم ، اذا تقربوا إلى الجهة الجنوبيّة دل ذلك على احترامهم للنار ، و اذا تقربوا إلى الشرق كان في ذلك احترامهم للهواء ،

أما تقر بهم إلى الغرب فكان فيه احترامهم للسماء ، وفي تقر بهم إلى الشمال كان احترامهم للأموات . وما يجب ملاحظته هنا أن المغول كانوا لا يتقدرون على هذه الآلهة إلا لخوفهم منها ولرغبتهم في ابعاد غضبها وجلب رضاها يرجون منها الصحة في أجسامهم وعقولهم ، كما يرجون منها حماية أبنائهم وحيواناتهم .

وبينما نجد العرب في الجاهلية يتخدون معابد لهم يتقدرون فيها على آلهتهم ويجمعون فيها تماثيل لهذه الآلهة وبينما نجد قدماء المصريين يعملون مثل ذلك فينشئون المعابد الفخمة والهياكل العمظيمة ، لا نجد المغول يفعلون ذلك أو شبهه فلم تكن عندهم معابد ولم تكن عندهم أديرة . وكل ما كان يعيش عليه عندهم ما كانوا يسمونه أبو بوا ٠bo وهي أكواخ من الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها تقام بجوار الأنهر أو على التلال أو تحت الأشجار الكبيرة وتقدم عليها القرابين المختلفة للاله المفروض أنه يسكن في الجبل أو النهر أو الشجرة الكبيرة أو المفروض أنه القسم الحى المقابل لها أو أنه روحها . كما أن المغول كانوا يصنعون من الصوف أشكالاً آدمية يضعونها في بيوتهم أو أمامها ويعتقدون أنهم بذلك يبعدون الشر عنها ويزيدون الحيوانات فيها ويدررون أبنائها ، وما يذكره في هذا السبيل أن كل مغولي كانت عنده في بيته دمىات من القماش تمثله وزوجته وأولاده فإذا أكل هو وأهل بيته أتى بتلك الدمىات ولوث فمهما بالدهن الذي يستخرجها من اللحم ، ثم أخذ شيئاً من الحساء ورشه أمام البيت وبذلك يعتقد أن الله وزوجته وأولاده شاركوه في غدائهم .

أما رجال الدين عند المغول فكانوا كالكهنة عند المصريين القدماء من طبقة متنورة تعلم الفلك وتحدد وقوع الكسوف والخسوف في أوقاتها وتعين الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له ، وإن كان نفوذ أشرادها لا يصل إلى نفوذ الكهنة عند قدماء المصريين . وكان المغول ينظرون إليهم كما كان الأغريق ينظرون إلى عرافة معبد دلفي وكما كان العرب ينظرون إلى كهانهم الذين كان أشهرهم في اليمن (١) ، فكانوا يأخذون رأيهم قبل أن يقدموا على الأعمال المهمة وكانتوا لا يجمعون جيشا ولا يدخلون حربا إلا بعد موافقتهم . وقد كان هؤلاء يعتمدون فيما يدللون به من آراء على شكل الخطوط والشقوق التي تظهر على عظام آكتاف الحيوانات المعروفة ويعتبرون أصلح الحيوانات لهذا الفرض الفنم والأرام والوعول وبخاصة إذا كانت قرابين (٢) .

### ٣ - صفات المغول

نشأ المغول في بلاد فقيرة قاسية المناخ فأمدهم الله بصفات بدنية تناسب البيئة التي نشأوا فيها كل المناسبة . وإننا حين نقرأ ما ذكره الرحالة عن مميزات المغول البدنية من الرأس الكبير والوجه العريض التحيل وعظام الخد البارزة والعيون الصغيرة ذات الجفون المسترخيه والأنف المسطح والشفاه العريضة والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الكبير والساقين القصيرتين الموجتين والقامة القصيرة والبشرة الصفراء السميكة (٣) - لا نعجب أقل العجب ، إذ لا بد أن

(١) صبح الأعشى ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢)

Howorth, vol. IV, pp. 90-104.

و

D'Ohsson, Tome 1, p. 16.

(٣)

Howorth, vol. IV, pp. 31-32.

و

D'Ohsson, Tome, I, p. 11.

فقر البلاد وقلة الغذاء فيها كان سبباً في قصر القامة وتحالفة الوجه وبروز عظم الخد من زمن بعيد ، كما أن الجفون المت Dellية لابد أنها من نعم الله على المغول لوقايتهم من الرياح الشديدة التي يتعرضون لها في بلادهم في معظم أيام السنة ، وكذلك الحال في البشرة السميكة . أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول معظم الوقت على صهوة الخيول.

#### بر Kapoor قصير الحوامل .

ولم تكن صفات المغول البدنية هي وحدها التي تناسب بيئتهم التي درجوا عليها ، بل ان صفاتهم الأخلاقية من مستلزمات هذه البيئة ، فانهم وقد كانوا رعاة كان لابد لهم أن يصطدموا بغيرهم حين يعملون على توفير المراعي لحيواناتهم في فصول السنة المختلفة ، ولذلك كانت تقوم بينهم المعارك وتشتد الأحوال وكانت حياتهم حياة حربية قوية وكانت أخلاقهم مزيجاً من صفات المحاربين . أضف الى ذلك أن الطبيعة كانت في بلادهم قاسية شديدة الوطأة ولذلك كانت حياتهم حرباً مستمرة مع الطبيعة ، وقد أبدواهم بيئتهم بما عودتهم من الصبر والجلد بأعظم سلاح يشهرون في وجهها وبذلك قوت فيهم صفات المحاربين .

من الصفات التي تلازم المحاربين دائمًا الجرأة في الحق وابداء الرأى دون مواربة ولا مداراة ، وقد كان المغولي كفيفه من أهل البادية صريحاً لا يهاب جريئاً لا يخشى حراً في ابداع آرائه لا يتزدد ولا يلين ، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة فيه بما فرضه من العادات ، فقد ذكروا أن المغول

القدماء كانوا طبقاً للسياسة الكبرى (١) أو الشريعة التي سنها لهم جنكينز خان يجتمعون كل سنة في العيد الكبير The Hai أما ملهم أمراؤهم ليسألوهم عما فعلوا، وقد رأي ظهر كانوا يوبخونهم بل ويعزلونهم اذا اقتضى الحال . ويظهر أن نزعة الصراحة هذه ظلت ملازمة للمغول وقتاً ما بعد أن كانوا امبراطوريتهم الواسعة فقد ذكروا أن وزيرًا من وزراء جنكينز خان تجاسر على أن يقول لسيده ان المملكة يمكن فتحها على ظهر الحصان ولكن لا يمكن حكمها على ظهر الحصان ، مشيرًا بذلك الى أن المالك تحتاج لاستقرار الأمر فيها الى اداريين بعد أن يكون الحربيون قد وسّعوا أركانها (٢) \*

وعلى الرغم من هذه الصراحة وهاتيك الحرية ، فقد كان المغول القدماء متعاونين وكان للطاعة التي تعتبر من أهم صفات المحاربين أكبر نصيب بينهم وكانت مطيعين لرؤسائهم لا يعصون لهم أمراً ، حتى ان أكبر القواد كان اذا غضب عليه الامبراطور يقبل التقرير من أصغر رسول يرسله أمام

(١) ذكرها التقشندى فى كتابه صبح الاعشى ج ٤ ، ص ٣١٠ - ٣١١ فقال « ثم الذى كان عليه جنكينز خان فى التدين وجرى عليه اعقابه بعده الجرى على منهاج ياسه التى قررها وهى قوانين خدمتها من عقله وقررها من ذهنه رتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً ربما وافق القليل منها الشريعة الحمدية واكتفى مخالف ذلك سماها الياسة الكبرى وقد اكتنفها وأمر أن تجعل فى خزانته تتوارث عنه فى أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته منها أن من زنى قتل ومن أعاد أحد خصمين على الآخر قتل ومن باى فى الماء قتل ومن أغلى بخاغة فكسر ثم أعطى ثانية فكسر ثم أعطى ثالثاً فكسر قتل ومن وقع حمله أو قوسه فمر عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل ومن وجد أسيراً أو هارباً أو عبداً ولم يرده قتل ومن أطعم أسيراً قوماً أو سقاها أو كسرأه بغير أنهم قتل الى غير ذلك من الأمور التي دربها معها هم دائمون به الى الان وذبها دان به من تحلى بخلية الاسلام من ملوكهم » . وقد ذكرها ابن العبرى أيضاً فى كتابه ص ٣٩٥ فقال الياسة اي الناموس والقضاء .

جنوده ، وقد ذكر القلقشندي (١) هذا الأمر فقال : « وأما حاليهم في طاعة ملوكهم ، فانهم من أعظم الأمم طاعة لسلطانهم لا مال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم حتى انه اذا كان أمير في غاية من القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنبا يوجب عقوبته وبعث السلطان اليه من أخس أصحابه من يأخذنه بما يجب عليه ، ألقي نفسه بين يدي الرسول ذليلا ليأخذنه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل » . كما ان الجندي اذا عصى كان لا يقتل وحده بل ومعه افراد أسرته ، أضف الى ذلك ان الامراء والقواعد كانوا يضربون بالهراوة عندما يقعون في الخطأ ولا يعتبرون في ذلك اهانة لهم ولا يظهرون اشمئزازا (٢) .

وللفروسية عند المغول مركز ممتاز . وقد كانوا على اختلاف اعمارهم يقضون حياتهم على ظهر الحصان ولا يكادون يتقللون قدمًا على الأرض ، ولذلك كان من لا يرافقه الحصان اما فقيرا أو عديم الأصدقاء ، ذلك لأن المغولي لا يتأنى عن تقديم حصان لآخر يطلب ، كما نقدم عود ثقاب لمن يطلبه لأشعال سيجارة (٣) . ولم يكن الرجال هم الذين يختصون بهذا الأمر من دون النساء بل ان النساء كن يركبن الخيل كالرجال وكن يستعملن الأقواس والسيهام ويقدرن على البقاء على ظهر الحصان زمانا طويلا ويدهبن مع الرجال الى القتال (٤) .

(١) صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٢١١ .

(٢)

Howorth, Vol. IV, p. 80

Browne, Literary History of Persia, vol. II, p. 433.

Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 376.

Howorth, vol. IV, p. 62.

Howorth, vol. IV, p. 44.

D'Ohsson, Tome I, p. 15.

(٣)

(٤)

وحدث ولا حرج عن صبر المغول فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفاً بل يحاول ما يمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعاني شيئاً . والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته إلى حد يجعله يأكل خمسة كيلوجرامات من اللحم في الوليمة وربع شاه في اليوم، نجده في الحرب يصبر على الجوع عشرة أيام مكتفياً بما يمتلكه من دماء الحيوان - وكان يفتح شرياناً من شرايينها ثم يشرب دمها المتذلف - كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من الكومس أو اللبن الخامض الذي يحمله في قربته ، وكان نصف رطل من اللبن المجفف المزروج بقليل من الماء يكفيه اليوم كله . وقد كانت خيول المغول تشاركون في صبرهم وكانت لا تحتاج إلى شعير أو فول بل تتعسر في الأرض بأرجلها وتأكل ما يظهر لها من جذور النباتات - ولم يقتصر صبر المغول على تحملهم ألم الجوع ، بل إنهم كانوا يتتحملون البرد الشديد والحر المل唆  
بعزم قوية (١) .

وشجاعة المغولى مضرب الأمثال وقد شهد بشجاعتهم أغداوهم أنفسهم ، فقد ذكروا أن جواسيس محمد خوارزمي عند عودتهم من زيارة المغول قالوا عنهم : « إنهم لا يعطون أنفسهم راحة وإن الفرار أو التهرب ليس معروفاً لهم وإنهم لا يبارون في الشجاعة والطاعة والصبر » (٢) وقد ذكر ابن الأثير عنهم مثل ذلك فقال (٣) : « سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد رأوا أن رسول الله قال : من حدثكم أن التتر انهزموا

(١) Howorth, vol. IV, pp. 56, 61, 81-82.

Browne, Let. Hist. of Persia, II, p. 434.

Osborn, Islam under the Caliphs of Baghdad, p. 377.

Howorth, vol. IV, p. 81.

(٤)

(٥)

(٦) ابن الأثير ج ١٤، ج ٧، ص ١٧٧ .

وأسروا فلا تصدقوا ، وإذا حدثتم أنهم قتلوا فصدقوا ، فإن القوم لا يفرون أبداً ، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر » .

#### ٤ - جيوش المغول

رأينا فيما سبق أن المغول حازوا كل صفات المحاربين الأقوياء وقد كان من أثر ذلك أن فاقوا غيرهم في تنظيم الجيوش وترتيبها وامدادها بكل ما يلزمها ، كما اتبعوا في حربهم طرائق كانت تضمن لهم النصر . وإن ما لدينا من المعلومات يبين لنا أنهم قسموا الجيوش تقسيماً لا يختلف كثيراً عما يتبع في الجيوش الحديثة . فقد كانت عندهم فرق مكونة من مائة ألف جندي يسمونها التبوك a Tuk وأخرى مكونة من عشرة آلاف يسمونها التومان a Toman وثالثة مكونة من ألف يسمونها منجان a Mingan ورابعة مكونة من مائة يسمونها دون Don وخامسة مكونة من عشرة يسمونها أربان Arban . كما أن جيوشهم كانت غنية بالأسلحة وان ما ذكره الكثيرون من أمثال كريبني والقس ولIAM وفنستن أوF بوفيه وماركو بولو وماتيو بارس Mathew Paris في هذا الصدد من الأقوال الكثيرة التي يكمل بعضها بعضاً لتجعلنا قادرين على أن نصف محاربيهم وصفاً دقيقاً . فالمحاربون العاديون كانوا يلبسون ملابس من الفراء على أجسادهم ، كما كانوا يضعون على رؤوسهم خوذات من الحديد ، ويحملون من الأسلحة الأقواس والسيف والمبارد لشحد السهام والحراب التي تنتهي بخنافس والتي تستعمل لعذب الأعداء من فوق سروجهם والبلط والجبال ، بينما الرؤساء من العدهن والضباط والقادة كانوا يلبسون اللامات العربية

ويحملون من الأسلحة مثل ما يحمل السابقون . ولما كان المغول رماة نابهين ، فقد كانوا يعنون عنانة فائقة بالاقواس التي كانت متينة الى ابعد حدود المثانة والتي كان الواحد منها يتطلب رجلين لثنية . وكانت سهامهم تبلغ في طولها قدمين وراحة يد وأصبعين ، كما كانت ذات أسنان مدببة جدا ، وبعضها كانت ذات رءوس فضية ملأى بالثقوب حتى اذا رميته أخرجت صوتا كالصفير . وكانت الالامة الحزبية عندهم تصنع من الجلد ومنها ما يصنع من السلاسل ومنها ما يصنع من ألواح العديد (١) .

أضف الى ذلك آن مهارة المغول كانت تظهر بكل وضوح في تسخيرهم الجيوش للحرب . فقد كانوا يرسلون ألفين من الرجال في المقدمة للاستكشاف ، ويضعون مثلهم في المؤخرة وعلى كل جانب من جانبي الجيش ، كما كانوا يلحقون بالجيش الزاحف عربات المؤونة تجرها الشيران وكذلك الأبقار والأفراس ، وكان كل فرد من أفراد الجيش يأخذ معه مؤونة صغيرة من الجبن واللحم وغيرها . وعندما تكون الجيوش كبيرة العدد وبخاصة في الشتاء كانوا يأخذون معهم خيام المعسكر تحملها الجمال لتكون لهم مأوى . وكان طول هذه الخيام من أربعين الى خمسين قدما وكان هيكلها يصنع من عصى مدبوبة طول الواحدة منها سبع أقدام أو ثمان ، تتصل بعضها ببعض بواسطة قطع من الجلد وتتجمع في القمة مكونة سطحا مخروطيا . كما كانوا يأخذون معهم خياما أصغر ليجمعوا فيها من يقع في أيديهم من الأسرى . وكان الجيش المغولي اذا خرج للقتال لا يعوقه شيء عن مقصدة ، فاذا

(١) Howorth vol. IV, pp. 81-82.  
Osborn, p. 378.

وصل الى نهر كبير حزم أفراده حوايجهم وشدوها الى خيولهم وعلوا فوقها او أتوا بقرب او أكياس من الجلد وملؤوها بالملابس وربطوها جيدا ثم وصلوها بذيل الحصان وجلسوا فوقها بينما يجر رجل منهم هذا الحصان ، وقد يستعملون مجدافين في دفعها بدل الحصان (١) .

وعندما كانت جيوش المغول تلاقي الأعداء على ما ذكره ماركوبولو كانت لا تدخل في حرب نظامية بل كان المحاربون يدورون راكبين ويرمون سهامهم على أعدائهم . ولما كانوا لا يعتبرون في الفرار من المعركة أية نقصة ، فقد كانوا في بعض الأحيان يتظاهرون بالفرار ثم يدورون عنى سروجهم ويرمون أعدائهم بكل شدة وهكذا ينزلون بهم الخسائر الكبيرة . وكانت خيولهم متمنة أحسن تمرين حتى أنها كانت تجري هنا وهناك كالكلاب . وعندما كان المغول يرون أنهم قتلوا كثيرا من الخيول والرجال كانوا يدورون على أعقابهم ويبذرون بمناجزة القوم ، وهم في أحسن نظام مخرجين من أفواههم أصواتا مزعجة تصم الآذان وتتدخل الرعب في القلوب . وقد آيد ماركوبولو في هذا القول هيتون حيث ذكر أن المغول « قد يفرون ولكنهم دائمًا يحفظون جماعاتهم بعضها مع بعض ، ومن أكبر الخطر متى يعتهم لأنهم حين فرارهم يرمون إلى الخلف من فوق رؤوسهم ويؤثرون تأثيرا كبيرا على متابعيهم وتكون صفوفهم دائمًا متقاربة حتى إنك قد تظنهما أقل من نصف حقيقة عددهم (٢) . وفي هذا ما يثبت أن المغول اتبعوا طرائق حربية ، تدل على تضيّعهم العربي ورسوخ قدمهم في فنون الحرب .

(١)

Howorth, Vol. IV, pp. 67, 81-2, 85.

(٢)

Howorth , Vol. IV, pp. 82-85.

Osborn, p. 378.

و

## ٥ - المقول في نظر المؤرخين

يكاد المؤرخون يجمعون على أن المغول كانوا قساة القلوب وحشبي الطباع وأنهم كانوا كالهياكل المدمر لم يسلم إنسان ولا حيوان ولا زرع من ضرهم وأذاهم . لا يختلف في ذلك مؤرخو الشرق عن مؤرخى الغرب ولا مؤرخو العصور الوسطى عن أخوانهم في العصور الحديثة .

أما ما ذكره مؤرخو الشرق في العصور الوسطى عن المغول فيمكن أن نتخيّل له مثلاً ما ذكره ابن الأثير فقد قال يصف مجىء التتر إلى بلاد الإسلام (١) : « الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلاق وخصت المسلمين . فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يقتل بمثلها ، لكان صادقاً : فإن التوارييخ لم تتضمن ما يقارن بها وما يدانها . ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتغريب البيت المقدس ، وما انبأ به المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملائكة من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنوه إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا فإن أهل مدينة واحدة من قتلوا أكثر من إسرائيل . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون العوامل وقتلوا الأجنة فانا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهم

(١) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٦٥ .

الحادثة التي استطاع شررها وعمّ ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح » ، ثم ذكر فتوحاتهم في ما وراء النهر وخراسان وروسيا وقال : « هذا ما لم يطرق الأسماء مثله ، فإن الاسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا إنما رضي من الناس بالطاعة ، وهو لاع قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنها وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة في سنة » .

وقد ذكر ياقوت يصف الأقاليم التي اكتسحتها جيوش المغول في احدى رسائله فقال (١) : « وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان يتجاوب في نواحيها الboom ويتناثر في آرائيها الريح السموم ، يستوحش فيها الأنفيس ويرثى لصابها ابليس .

كأن لم يكن فيها أوانس كالدمي  
وأقيال ملك في بسالتهم أسد

فمن حاتم في جوده وابن مامه  
ومن أحنت ان عد حلم ومن سعد

تداعى بهم صرف الزمان فأصبحوا  
لنا غيرة تدمى الحشا ولن بمد

وذكر مؤرخ ثالث وان لم يكن من العرب فمن الفرس  
وهو الجوييني ، أن البلاد الإسلامية التي اكتسحها المغول لم  
يبق بها واحد من ألف من سكانها الأصليين ، كما قال انه لو  
زاد السكان باضطراد دون أن يحول دون ذلك حائل من

(١) ابن خلkan ج ٢ ، ص ٢١٢ .

الجوائل وذلك فى خراسان والعراق العجمى حتى يوم القيمة  
لما بلغ سكانها عشر ما كانوا عليه قبل الغزو المغولى (١) .

ولم تختلف نظرية مؤرخى أوروبا فى العصور الوسطى  
عن نظرية مؤرخى الشرق السابقين فهذا روجر بيكون Roger  
اعتبرهم جنود المسيح الدجال Antichrist ، وذلك  
القس جون الكربينسى Frair John of Piano Carpine يعتبرهم بقايا القبائل العشر التى حاول الاسكندر الأكبر  
عزلها فى الجبال التى بقرب بحر قزوين (٢) ، أى ان كلا  
منهما نظر اليهم نظرته الى عوامل الفساد فى الأرض .

أما المؤرخون المحدثون فلا يختلفون عن السابقين فى  
هذه الناحية ، وقد جاء فى مجموعة كمبردج التاريخية (٣) أن  
المغول لم يكونوا من يهمهم انتماء بنور الحضارة بالتعاون  
مع الآخرين وأن جل همهم كان التوسع والغزو ، كما أن العالم  
عرفهم محاربين أشداء خربوا البلاد وقتلوا العباد ، وأنهم وإن  
كانت لهم آثار أخرى غير آثارهم الحربية فهى قليلة لا يعتمد  
عليها ، وهم وإن أمدوا الطرق وفتحوها ما بين غربى آسيا  
وشرقها لم يبق بها شيء يتبادله الناس ، كما أنهم وإن أعطوا  
الحرية الدينية لرعاياهم ولم يميزوا بين علماء المسلمين  
وبطارقة المسيحيين ورؤساء البوذيين لم يكن ذلك لاعتناقهم  
مبداً حرية التدين ، بل لأنهم لم يعتقدوا بأى دين من الأديان  
ولم يجدوا حرجاً فى أن يعتنق أى أمرىء الدين الذى  
يميل إليه .

D'ohsson, Tome I, pp. 350-351

(١)

Cambridge Medieval History, Vol. IV, Ch. xx, pp. 628, 630.

(٢)

Ibid, p. 634.

(٣)

أضف الى ذلك أن دوسون المعجب بهم لم يجد بدا من الاقرار بالحقيقة فذكر أنهم ، أى المغول : «فاقوا فى قسوتهم أشد الناس فكانوا يقتلون فى الأقاليم التى يفتحونها الرجال والنساء والأطفال ويحرقون المدن والقرى ويعولون الأرض العاشرة الى صغار ، ومع ذلك فلم يكن يحركهم كره او رغبة فى الانتقام لأنهم لم يعرفوا أسماء الناس الذين قضوا عليهم ، وقد كان ممكنا أن نفرض أن التاريخ جسم مظلوم لهم لو لم يكن المؤرخون فى جميع الأقطار قد اتفقوا على هذه المسألة ، وقد كان الناس بعد الفتح يرون المغول يعاملون البقايا الضعيفة فى الأمم المفتوحة كعبيد لهم وأنهم أثقلوا على الذين نجوا من سيفهم بظلمهم المخيف ، وأن حكومتهم كانت تحتقر كل شريف كريم بينما يلقى أحط الناس ممن دخلوا فى خدمة هؤلاء السادة الغلاظ الغنى والاكرام والقدرة على الاستبداد باخوانهم ثمنا لخيانتهم » (١) .

## ٦ - رأينا الخاص فى المغول

لقد ذكرنا فيما سبق ما يدل على أن المغول جمعوا كل صفات المعاذ بين الأقوياء وزودوا جيوشهم بالسلاح واتبعوا فى حربهم طرائق لا جدال فى أنها من أحسن ما وجد فى أيامهم ، ولكننا فى نفس الوقت لا نعد الدليل على أنهم كانوا معاذ بين النوع القاسي الذى لا يلين له قلب ، كما أنهم كانوا مكرة مخادعين لا ينخدعون وعدا ولا يرعن ذمة ولا عهدا . ولذلك فقد كانت أعمالهم أقرب الى أعمال المخربين منها الى أعمال المعاذين النظاميين .

وتظهر قسوة المغول فيما كانوا يعاملون به أعدائهم ، فقد كانوا حين ينتصرون لا يتوركون في قيد الحياة عظيماً ولا حقيراً ولا كبيراً ولا صغيراً ولا امرأة ولا طفلاً رضيعاً ، كما أنهم كانوا اذا أرادوا أن يحتفظوا بالأسرى ربطوه من أرجلهم تحت بطون الخيول (١) . ولم تكن تلك القسوة عرضية بل كانت متأصلة في نفوس المغول تظهر في طريقة معاملتهم في ذبح الحيوانات ؛ اذا كانوا يفتحون بطنهما ويقبضون على قلبهما ويجرؤونه ليقتلوها (٢) وقد ذكر ذلك القلقشندي (٣) فقال : « ومن معتقدهم في ذبح الحيوان أن تلف قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدhem يده الى قلبه فيمسره بيده حتى يموت او يخرج قلبه ، ومن ذبح ذبحة المسلمين ذبح » . كما تظهر قسوتهم أيضاً في تصفيتهم بالرجال في جنائز الظماء وفي قتلهم عدداً من جمال المتوفى وخ يوله ودفنها (٤) ، وفي معاملتهم للمرضى منهم فقد كانوا يتخلون عنهم بل ويعملون على اماتتهم ، ويقول ولIAM الروبريكى في ذلك أنه « عندما يمرض أحد من المغول يوضع في مرقده وتوضع علامة على مسكنه تشير إلى وجود مريض في الداخل وإلى عدم دخول أحد عليه . ولا يزور المريض أحد أبداً إلا من يتولى خدمته » ، كما يذكر كريبيني أنه « عندما يمرض شخص توضع علامة خارج مسكنه كما يلفون حولها قطعة من الصوف الأسود وبذلك لا يجرؤ غريب على دخولها . وعندما يشتد بالمريض مرضه يتركه الجميع ؛ لأنه ليس مصرحاً لمن يشاهد موته أن يدخل مسكن أي عظيم أو قصر الامير اطصور حتى يبنزع القمر

Howorth, Vol. IV. pp. 81, 85.

(١)

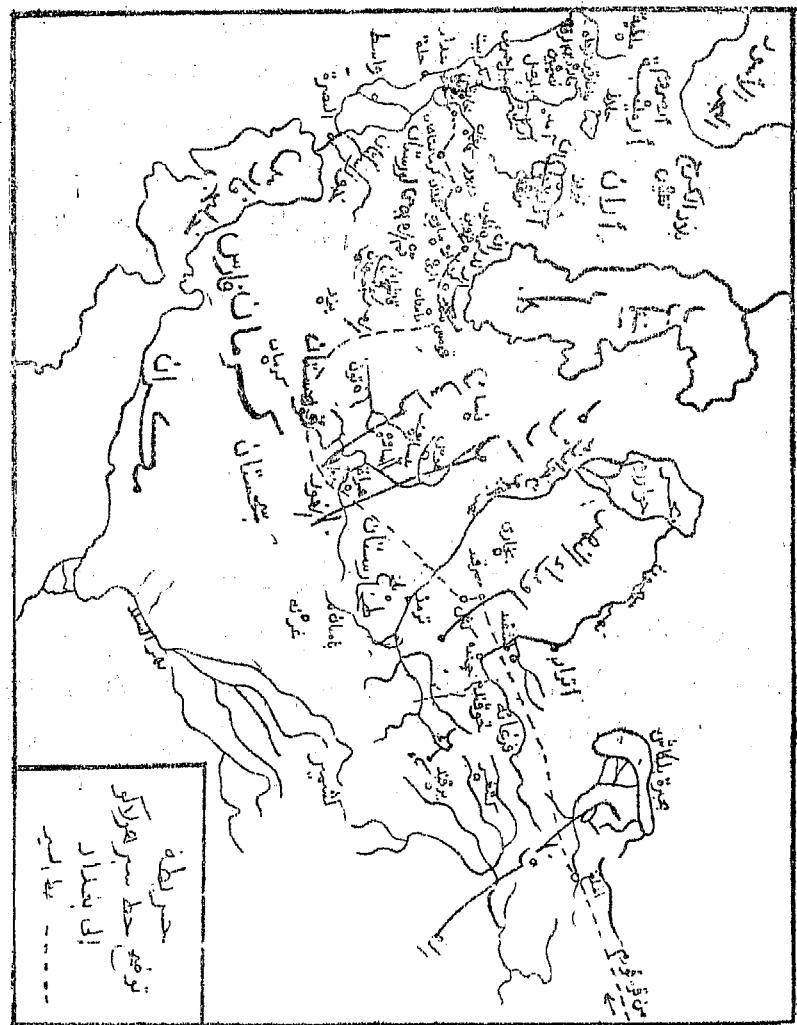
Browne, Literary History of persia, Vol. II, p. 440.

(٢)

(٣). صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦١ .

Howorth, Vol. IV, p. 142.

(٤).



۱۰۰

الجديد» فكانهم ينظرون إلى المريض نظرتهم إلى ملوث نجس - وليت الأمر وقف عند هذا الحد من القسوة بل ان فنسنت آف بوفيه حين يقول ان بين التتار من اذا هرم أبوه أعطاه مادة دهنية - مثل ذيل شاة - ليأكلها فتضفت عليه وتخنقه ، وانهم كانوا عندما يموتون يحرقون أجسادهم ويجمعون بقاياها ليرووا من مسحوقها على طعامهم عندما يتناولون الطعام كل يوم (١) - نعم ؛ انه بذلك يقدم لنا أكبر دليل على قسوتهم وتجبر قلوبهم \*

أما غدر المغول ومكرهم وعدم مراعاتهم للعهود فيتجلى في سلوكهم في حربهم في فارس والصين ، فكثيرا ما وعدوا أهل المدن بالنجاة ان هم سلموا مدنهم ولم يلبشوا أن أنزلوا عليهم من العذاب أثوابا وقتلوا هم حين أصبحوا في أيديهم (٢) - هذا بالنسبة لأعدائهم وقد يجد فيه بعض الناس عذر لهم ، إنما غدرهم الذي لا يمكن الدفاع عنه فيظهر في معاملتهم لحلفائهم ، وقد جاء في كتاب هورث (٣) : « إن دأبهم حين ينتصرون على أعدائهم أن يستولوا على الغنيمة دون تردد أما اذا هزموا فانهم يتبعون حلفاءهم وينزلونهم عن خيولهم ويحملون ما معهم من الأسلاب » \*

Ibid., p. 203.

Osborn, p. 376. ,

Howorth, History of the Mongols, Vol. IV, p. 33.

(١)

(٢)

(٣)

## الفصل الثاني

### توحيد المغول

#### ١ - أصل المغول

تاریخ المغول القديماء تاریخ غامض يتخلله كثیر من الأساطير وذلک لأنھ کتاریخ العرب فی الجاهلية يعتمد علی الروایة والتلقین بدل اعتماده علی الكتابة والتدوین (١) ولا يخفی ما يعثور الروایة من زيادة أو نقص وما يتخللها من عشرات الذاکرة وشوائب التسیان وان ما تناقله المغول عن أصلهم ليتحقق هذا القول . فقد كانوا يعتقدون أن أجدادهم وقد كانوا يعيشون فی منغولیا من عصور سحیقة تعرضوا لآذى جماعات من سکان تلك البلاد قتلتهم عن آخرهم، ولم تترك في قید الحياة منهم الا رجلین وامرأتین تمکنوا من الفرار الى منطقة خصبة اسمها ارجینی کون Erguene-Coun تقع بين جبلين ثم توالدوا فيها حتى نشأت من نسلهم قبائل عدیدة . وقد ضاقت تلك البقعة بتلك القبائل حين کثر عددها ؛ ولذلك فانها اخترقت أحد هذين الجبلين ووصلت الى ضفاف أنهار آونون وكيرولان وتوجولا وتولا وآقامت عليها وكان ذلك حول منتصف القرن الثامن المیلادي . وقد بلغ

من شدة تمسك المغول بهذا الاعتقاد ، أن أبناء جنكيز خان كانوا يحتفلون بهذا الحادث ليلة أول يوم من كل عام (١) .

## ٢ - الأمم المغولية القديمة

ساعد المؤرخين على تبديد الغموض الذي يحيط بتاريخ المغول الأقدمين ما عثروا عليه في مؤلفات التاريخ الصيني ، ولا يخفى ما كان هناك من اتصال بين الصينيين وبين البدو من سكان وسط آسيا منذ الأزلة القديمة . فقد كانت الصين غنية بينما كانت جهات أواسط آسيا فقيرة . ولذلك كثيرا ما هاجم هؤلاء البدو شمالي الصين ورجعوا بالأسلاب والغنائم ، بل إن هذه الهجمات نفسها كانت سببا في اقامة سور الصين العظيم قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف قرن . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن حكومة الصين كانت تستخدم جيوشا من هؤلاء البدو وتوزعهم على حدود بلادها الشمالية لكي يحموها من أخواتهم في الجبس ، كما وجدت أخيرا أن أضمن طريق لحفظ البلاد من شر هؤلاء البدو هو تقسيم منطقة الحدود بين رؤسائهم ، واعتبارهم أقيالا يقدمون لها الخضوع ويسلمون منها علامات السلطان (٢) :

وأن ما عثر عليه المؤرخون في تاريخ الصين خاصة بالمغول الأقدمين وان كان لا يعدو شذرات بسيطة ، الا أنه أراح اللثام عن حقائق لا يجوز اهملها ، وبين أن المغول في عصورهم القديمة كانوا أمما متفرقة تقيم في منغوليا شمالي صحراء شامو والتي الشمال الغربي والشرقي منها . ومن هذه الأمم آمة النيمان Naimans الكبيرة العدد التي كانت

Ibid, pp. 21-22.

(١)

D'Ohsson, Tome I, pp. 4-5.

(٢)

تسكن الأقاليم التي يجري فيها نهر ارتش الأعلى والتي تخترقها سلسلة التاى الكبير وأمة الكريت Keraits التي كانت تسكن الأرض الواقع شرقى منطقة النيلمان ، التي تمتد حتى منابع نهر أونون وكيرولان ، وأمة المركيت Merkits التي كانت تسكن الأقاليم الواقع شمال أرض السكريت ، وأمة الوليرات Ouirates التي كانت تقيم في إقليم يقع شمالى العالى ، وأمة الجليل Djelaires التي كانت تشمل عشر قبائل والتي كانت منطقتها على شواطئ نهر أونون ، وقبائل الأوراسوت Orassoutes والتلنجوت Telengoutes والكشتيميس Keschtimis التي كانت تقيم في غابات واسعة غربى بحيرة بيكار ، وقبائل البارجوت Bargoutes التي كانت تقيم شرقى بحيرة بيكار . أما أمة المغول ، فكان من قبائلها : البايوت Bayaoutes والتيدجوت Taidjoutes والسكنجراتس Coungrates وكانت تقيم في الأقاليم الواقع جنوب بحيرة بيكار ، وأمة التتار وكانت تسكن شواطئ بحيرة بريور فى أقصى الشرق من منغوليا (١) .

### ٣ - حالة الأمم المغولية القديمة حتى أوائل

#### القرن الثاني عشر الميلادي

ظلت الأمم المغولية التي سبق ذكرها عدة قرون قبل الميلاد وأخرى بعده خاضعة للنفوذ الأجنبى لا تكاد تتخلص من سيطرة امبراطورية من الامبراطوريات حتى تقع تحت سيطرة غيرها . وأول ما نعرف من الامبراطوريات التي نشرت نفوذها على منغوليا امبراطورية الهينو Hiong-Nous التي

(١) D. Ohsson, Tome I, pp. 6-9.

Cambridge Medieval Hist., Vol. IV, pp. 631-662.

ـ ظلت قائمة حتى سنة ٩٣٧قـ مـ . وقد قامت بعدها امبراطورية السليبيس Sien-Pis فى وسط آسيا وكان لها فى منغوليا من النفوذ مثل الأولى وظلت حتى سنة ٢٣٣ مـ . وقد وقعت منغوليا بعد ذلك فى قبضة امبراطورية التوباس Les Topas Geougens ثم فى أوائل القرن الخامس فى قبضة الجيوجان و بعد ذلك بحوالى مائة و خمسين سنة أصبح الأمر فيها للأتراء الذين أقاموا امبراطورية ، امتدت من المحيط الهادئ شرقاً إلى بحر قزوين غرباً ومن الصين جنوباً إلى المحيط المتجمد شمالاً . وقد أزال الصينيون بمحالفة الويغور هذه الامبراطورية التركية سنة ٧٤٤ مـ ومن ذلك الوقت خضعت منغوليا للويغور أو الهوى هوى Hoeihoei كما يسمونهم الصينيون . وقد انتقل الأمر بعد ذلك للقرغيز سنة ٨٤٨ مـ . وفي أوائل القرن العاشر الميلادي صار الخط سادة منغوليا ، إلا أن الزمن لم يلبث أن دار دورته وأصبح النفوذ فى منغوليا لأباطرة أسرة كين Kin . وقد ظلت سيادة هؤلاء الصينيين فى منغوليا حتى أوائل القرن الثاني عشر الميلادي حين ثارت الأمم المغولية عليهم واستقلت عنهم عند موت الامبراطور تاي تنج Tai Taung سنة ١١٣٧ مـ (١) .

#### ـ ٤ - توحيد الأمم المغولية القديمة على يد تيموجيان

ـ بعد أن تخلصت الأمم المغولية من النير الأجنبي ، أصبح من الضروري لها أن توحد صفوفها . وقد أخذ رؤساء أمم المغول على عاتقهم اتمام هذه النهاية ولاقوا في سبيلها كثيراً من المصاعب وعلى الأخص من أمم التتار التي كانت في ذلك

Howorth, Vol. IV. pp. 7-8.

D. Ohsson, Tome I, pp. 2-3.

(١) و

السوق أكبر الأمم المغولية حتى كان الصينيون يطلقون اسمها على جميع الأمم المغولية ، التي عن عليها أن تتقدمها أمة المغول . وان التاريخ ليذكر لنا كثيرا من العرب التي خاضها رؤساء أمة المغول مثل كابل وکوپلای Kubilay ويسوجای Yesugai ضد أمة التتار (١) .

وقد كان لتيموجيين بن يسوجاي الفضل الأكبر في جعل وحدة الأمم المغولية أمرا واقعا . وقد بذل في هذا السبيل مجهودا جبارا لأنه حين عزم على تنفيذ فكرة الوحدة المغولية كان يتحدى جميع الأمم الأخرى الموجودة في منغوليا بل والقبائل العديدة التي كانت تضمنها أمة المغول نفسها .

ولو أردنا أن نحصر الحروب التي قام بها تيموجين في سبيل ضم سكان منغوليا جميعهم تحت سلطانه ؛ لافيناها على نوعين : الأول عبارة عن حروب كانت تقع بينه وبين مجموعات من الأمم المغولية التي كانت تتعاون فيما بينها عندما تحس بأن خطرًا عاما يهددها من قبله ، والنوع الثاني عبارة عن حروب فردية كانت تقوم بها أمم منغوليا المختلفة دفاعا عن نفسها حين كان تيموجين يهاجمها .

#### (أ) حروب تيموجين مع الأمم المغولية المتعارضة :

من قبيل المقاومة الاجماعية التي تعرض لها تيموجين ماحدث في السنوات الثلاث ١٢٠٠ و ١٢٠١ و ١٢٠٢ . ففي سنة ١٢٠٠ ميلادية تعاقدت قبائل كثيرة على مناهضة تيموجين على أثر انتصاره على قبيلة التادجوت المغولية وحلف رؤساء هذه القبائل أن يتعاونوا فيما بينهم ويتأزروا حتى يكون النصر حليفهم ، ولكن تيموجين علم بخبرهم من حميـه ، أحد هؤلاء الرؤساء المتعاقدين وسارع إليهم وفاجأـهم بالقرب من

D. Ohsson, Tom I, pp. 33-35.  
Camb. Mod. Hist., Vol. IV, p. 632.

(١)

بحيرة بوبيور وفرق جموعهم وهزم كثيرا من رؤسائهم في سهل تيموركين Temourkin (١) . وفي سنة ١٢٠١ ميلادية، اتفقت أيضا قبائل عديدة على مناوأته واجتمع رؤساها واختاروا رئيسا لهم لينظم جهودهم وللذين لعملهم أشرف عليهم من المرة السابقة . وقد اضطر تيموجين إلى ملاقاتهم وتفریق جموعهم . أما في سنة ١٢٠٢ ميلادية ، فقد جمع ملك المركيت وأسماء توكتا Toucta وبوبوروك Boyourouk أخو ملك النيمان قبائل كثيرة ضد تيموجين ولكن قسوة المناخ ساعدت على تبديد شملها وأنجت تيموجين من خطر جسميم كان يتهدده ، خصوصا وأن العلاقات بينه وبين حليفه وانج خان ملك الكريت كانت قد ساءت في ذلك الوقت حتى انهم عندما خرجا للاقاء هذه العصبة من الأعداء تنازعا ، وقامت العرب بينهما (٢) .

**(ب) حروب تيموجين الفردية :** أما المقاومة الفردية التي لاقاها تيموجين في سبيل توحيد الأمم المغولية فقد كانت ضد أمم المركيت والنيمان والترار والكريت التي قامت ضده مدافعة عن أملاكها واستقلال بلادها .

**١ - حرب المركيت :** كانت أمة المركيت حين هاجمتها تيموجين يرأسها ملك اسمه توكتا ، كما كانت تشمل أربع قبائل \* وقد بدأ تيموجين حروبه فيها سنة ١١٩٧ م ولكنها لم تخضع له إلا في سنة ١٢٠٤ م ، أي أنها ظلت تقاوم سبع سنوات طوال ، لاقت فيها كثيرا من أعمال العسف والشدة . وفي أول حروب تيموجين في بلاد المركيت كان يساعد

D. Ohsson, Tome I, pp. 60-62.

D'Ohsson, Tome I, pp. 63, 65-66

(١) (٢) (٣) (٤)

(٥) (٦) (٧) (٨)

وانج خان (١) ملك الكريت الذى أصبح له حليفاً منذ عام واحد وقد حصل على غنائم كثيرة . وفي السنة التى بعدها (١١٩٨م) لم يخرج تيموجين إلى بلاد المركيت بل خرج حليفه وانج خان وحده وهاجمها واضطرب ملوكها إلى الفرار كما قتل أحد ابنيه وأسر الابن الثاني . ولما أبى تكتا أن يخضع لتيوموجين بعد ذلك اضطر إلى ترك بلاده سنة ١٢٠٤م وحينئذ تتبع تيموجين القبائل المركيتية وأخضيعها بالقوة واحدة بعد أخرى (٢) .

٢ - حرب النيمان : ولما هاجم تيموجين أمة النيمان كانت الظروف مواتية له ؛ لأن عرشه كان يتنازعه الإخوان تاي بوقا Tai Bouca وهو الأكبر وكان يقيم حيث كان يقيم أبوه في السهل كما كان يحمل اللقب الصيني تاي وانج Tai Vang ومعناها الملك العظيم ، وذلك الآخر هو المعروف في التاريخ باسم تيانج النطق المفowى للكلمة الصينية المذكورة . أما الآخر الثاني بوبيوروك وهو الأصغر فكان يقيم في المنطقة الجبلية القريبة من سلسلة جبال التاي . وقد كان من السهل على تيموجين أن يخضع أمة النيمان لسلطانه في وقت قصير إلا أنه حين سار إليها سنة ١١٩٩م كان معه حليفه وانج خان ، وما كاد يتخد لجيشه مكاناً استعداداً للمعركة حتى انسحب هذا الحليف واضطرب هبو بدوره إلى التقىق وتترك بلاد النيمان . ولم يستعد تيموجين استعداداً تماماً لاخضاع النيمان إلا في سنة ١٢٠٤م حين علم أن تيانج خان يحاول أن يكون تحالفاً ضدّه ، فقد جمع

(١) ذكره ابن العبرى في كتابه تاريخ مختصر الدول من ٣٤٤ باسم أولنه خان وقليل وهو المسماى ملك يوحنا من القبيلة التي يقال لها كريت . وذكر أن تيموجين كان يخدمه من صغره .

D'Ohsson 'Tome I, pp. 58, 90.

(٢) ibidem p. 58.

مجلسا عاما ليقرر ما يتبع بشأنه ثم سار بجيشه للاقاته واشتراك معه في معركة انتهت بانتصاره وقتل تيانج خان وتفريق أتباعه . على أن بلاد النيمان لم تخضع إلا في سنة ١٢٠٦م بعد أن قتل بوبيوروك الذي كان قد حل محل تيانج خان واستولى على أملاكه وقطعانه وبعد أن اضطر كشلوك ابن تيانج خان الذي كان مع عمه إلى الفرار (١) .

**٣ - حرب التتار :** أما أمة التتار فقد ناوأت تيموجين مناورة شديدة حين أراد أن يخضعها سلطانه . إذ انضمت إلى كل تحالف عقده القبائل لمناهضته ، سواء أكان ذلك في سنة ١٢٠٠م أو سنة ١٢٠١م . وقد كان مسلكها هذا نحوه يتفق مع مسلكها نحو أبيه وجده من قبله ، وكانت تركيه وتزيد أواره روح الكراهة المتأصلة بينها وبين أمة المغول . وإذا كان تيموجين قد هاجم هذه الأمة سنة ١٢٠٢م وهزم قبيلتين من قبائلها ، فإنه لم يلبث بعد أن انتصر على تيانج خان ملك النيمان وبعد أن أخضع أمة المركيت أن سار إليها وأخضع قبائلها وقتل كثيرا من أفرادها (٢) .

**٤ - حرب الكريت :** لقي تيموجين مقاومة من أمة الكريت لا تقل عما لقيه من غيرها وقد كانت هذه الأمة بفضل محالفتها ملكها وانج خان لتيموجين من أركن الأمم إليه ولكنها بعد أن انسحب وانج خان ملكها من الميدان عندما كان يرافق تيموجين في حربه الأولى ضد أمة النيمان كما سبق أن ذكرنا أصبحت تقاوم تيموجين كغيرها من الأمم التي تقيم في منغوليا . وقد تحالف تيموجين ومن ورائه أمة المغول ووانج خان ومن ورائه أمة الكريت مدة لا يأس بها

D'Ohsson Tome I, pp. 55-59, 83-88, 90, 161.

(١) -

Ibid., pp. 60-63, 92-93.

(٢) .

واشتركوا في كثير من العروب ضد أعدائهم ، إلا أن الحال ما لبث أن تغير والشقاق ما لبث أن أخذ طريقه بين تيموجين ووانج خان وقامت الحرب بينهما وانتهت بقتل وانج خان . وتبع ذلك مهاجمة تيموجين لأمة الكريت واحتضانه لها (١) .

وقد تم بذلك ما كان يرمي إليه تيموجين من توحيد الأمم التي كانت تقسيم في منغوليا لسلطانه ولم تشد أمم من الأمم عن الخضوع له ، وهكذا أصبح تيموجين وتحت حكمه كتلة كبيرة واستحق لقب جنكيز خان ومعناه ملك الأقوباء أو الملك صاحب القوة والبطش ، الذي منحه له مجلس عام أو قوريلتان Curiltai عندما اجتمع سنة ١٢٠٦ م (٢) . وقد ذكر القلقشندي أن اسمه في الأصل تمرجين وأنه لما عظم شأنه سمي جنكيز خان (٣) .

D'Ohsson, Tome I, pp. 69-83.

(١)

Ibid., pp. 98-99.

(٢)

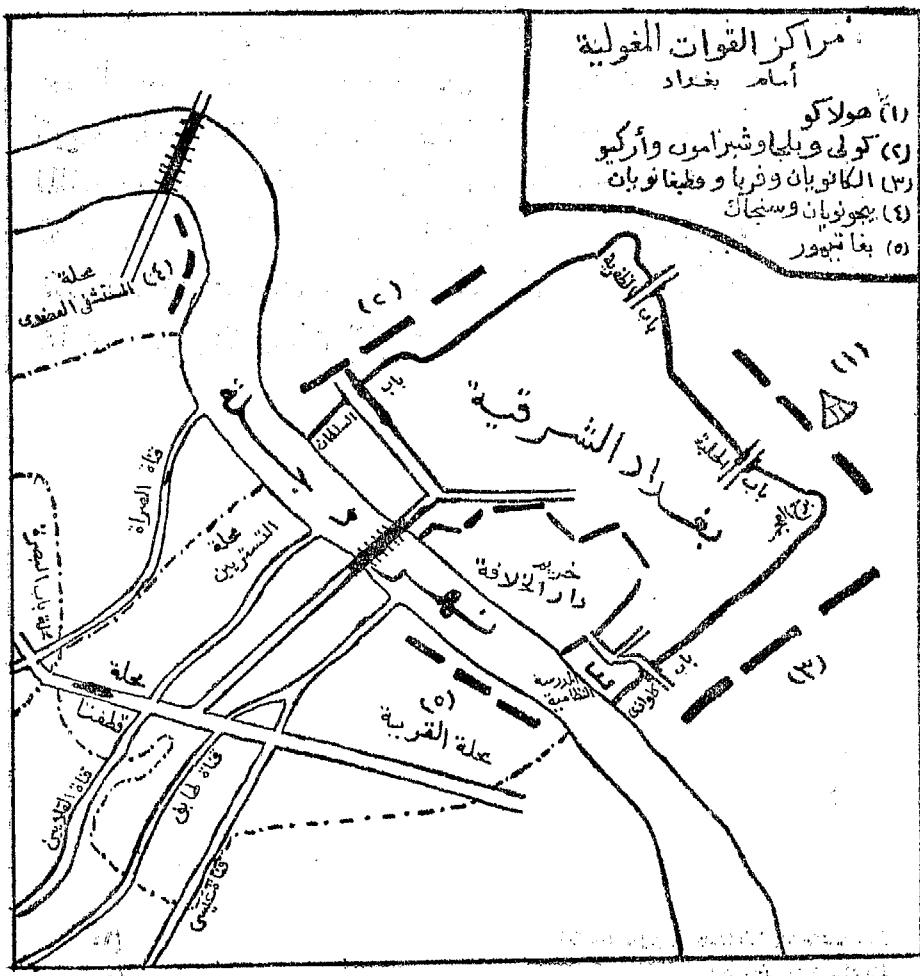
Howorth, vol. I, p. 54. ...

و

Cam. Med. Hist., vol. IV, p. 632.

و

(٣) مبيع الأعشي ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .



هذه المراكز كانت تحيط بالعاصمة بغداد من كل جانب، وكانت تحيط بالشام والشام

لقد انتهى العصر الذهبي للخلافة العباسية في أواخر القرن العاشر، حيث اندفع المغول على إمبراطورية العباسية، فاحتلوا بغداد، وقتلوا الخليفة العثماني، وفتحوا مصر، ووصلوا إلى إيطاليا، مما أدى إلى تفكك الإمبراطورية العباسية.

### الفصل الثالث

## التوسيع المغولي في آسيا وأوروبا

سننتكلم في هذا الفصل عما بذله المغول في أيام جنكيز خان وخلفائه أجطاء وكيف من مجاهدات في سبيل تكوين إمبراطوريتهم التي شملت معظم قارة آسيا وامتدت إلى أوروبا . وذلك لأن أعمال الفتح التي قام بها المغول كانت سلسلة متصلة للعلاقات وسلمًا متتالي الدرجات ، وليس من المنطق أن نتكلّم على إزالتهم للغلبة العباسية في عهد الخان الأعظم مانجو قبل أن نذكر ما قاموا به من حروب في عهود من سبقة من الخانات وما أتموه من فتوحات في تلك العهود هيأت لهم سبيلاً القرب من أملاك الخلفاء العباسيين بل وجعلت استيلاءهم عليها أمراً لا بد منه .

### ١ - عهد جنكيز خان

لم تكن الوحدة المغولية هي كل ما تم في أيام جنكيز خان بل ان أكبر الفضل في وضع سياسة للتوسيع المغولي يرجع إلى ذلك العاهل العظيم . وقد سار جنكيز خان شوطاً بعيداً في تنفيذ سياسة التوسيع ولم تقتصر فتوحاته على جهة من الجهات بل شملت كل الجهات المجاورة لمنغوليا تقريرياً . ويمكن حصر الكلام على ما تم في عهده من الفتوحات في ثلاثة مراحل .

(أ) المرحلة الأولى : تبدأ المرحلة الأولى من سنة ١٢٠٧م وتنتهي سنة ١٢١١م . وقد تم فيها اخضاع عدة امارات صغيرة تركية بين منغوليا وتركستان لنفوذ جنكيز خان Kemkemjoutes وتلük الامارات هي اماراة السكمكمجوت وامارة القرغيز Kirghiz وامارة الويغور Ouighurs وامارة كيالج Kialeq وأماراة الملغ Almaleg ، وجميعها كانت تعترف بسلطان امبراطور القره خطای او الخطأ قبل أن تخضع لجنكيز خان . ولم يبذل جنكيز خان مجهودا في اخضاعها بل أنه بمجرد وصول رسالته إليها ودعوتهم لها إلى الخضوع أجابـتـ دعـوـتـهـمـ .ـ وـ يـرـجـعـ ذـلـكـ إـلـىـ سـوـءـ حـكـمـ أـبـاطـرـةـ الخطـاـ واستـبـادـهـمـ بـمـنـ يـتـصـلـ بـهـمـ .ـ وـ قـدـ أـرـادـ جـنـكـيـزـ خـانـ أـنـ يـكـسـبـ عـلـاقـتـهـ بـهـنـهـ الـأـمـارـاتـ قـوـةـ بـغـيرـ طـرـيقـ العـسـفـ وـ الشـدـةـ فـرـزـوجـ أمـيرـ كـيـالـجـ وـأـمـيرـ المـلـغـ بـأـمـيرـتـيـنـ مـنـ بـيـتـهـ ،ـ كـمـ زـوـجـ اـبـنـتـهـ مـلـكـ الـوـيـغـورـ (١)ـ .ـ

(ب) المرحلة الثانية : أما المرحلة الثانية فتبدأ سنة ١٢١١م وتنتهي سنة ١٢١٨م وتشمل مجهودات جنكيز خان وحربه ضد مملكة هيا Hia أو التنجوت الصغيرة التي كانت تقع بين أملاك جنكيز خان وامبراطورية أسرة كين في الصين الشمالية وأيضا ضد امبراطورية أسرة كين نفسها ضد كوريا أيضا ، وقد انتهت هذه المرحلة بخضوع

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 95, 101-111.  
ذكر ابن العبرى هذه الامارات في كتابه تاريخ مختصر الدول في صفحات ٣٩٦ و ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٢٦ على هذا النحو : الـأـيـغـورـ وـقـبـالـيـهـ أوـقـيـالـيـهـ وـالـمـلـغـ (ـالـتـعـرـيفـ)ـ وـبـلـادـ قـرـاخـطـاـ وـذـكـرـ آـنـ هـذـاـ اللـفـظـ كـانـ يـطـلـقـ عـلـىـ أمـيرـ بـلـادـ الـأـيـغـورـ وـتـنـكـوتـ .ـ وـجـاءـ فـيـ صـبـيـعـ الـأـعـشـىـ جـ ٤ـ مـنـ ٤٨٣ـ «ـبـلـادـ الخطـاـ بـكـسـ الـخـامـ المعـجمـةـ وـفـتـحـ الطـاءـ الـمـهـمـلـةـ وـالـفـ فـيـ الـأـخـرـ وـهـمـ جـتـسـ مـنـ الـتـرـكـ بـلـادـهـمـ فـيـ مـتـاخـمـةـ بـلـادـ الـصـينـ»ـ .ـ وـقـدـ اـتـبـعـ مـاـ ذـكـرـهـ مـؤـرـخـوـ الفـرنـجـةـ لـأـنـهـ اـكـثـرـ دـقـةـ وـأـوـسـعـ اـمـلاـعـاـ فـيـمـاـ يـخـصـ بـدـرـاسـةـ الـمـغـولـ .ـ

كوريا ومملكة التنجوت وانتشار نفوذ المغول في الجزء الواقع شمال النهر الأصفر من امبراطورية أسرة كين وفي المنطقة التي كانت لا تزال ياقية للنخطا والتي كان أهلها يسمون لياوتنج Leao-Tong (١) .

(ج) المرحلة الثالثة : بدأت المرحلة الثالثة سنة ١٢١٨ م وكان ميدانها في غرب آسيا لا في شرقها ، وكانت عبارة عن حروب شديدة شنتها جنكين خان على الامبراطورية الخوارزمية التي كانت تمتد من نهر السند شرقا إلى كردستان وخراسان والخليج الفارسي غربا ومن سواحل بحر آرال وبحر قزوين شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا ، وتشمل بين أهم بلادها آذر بيجان والعراق العجمي وفارس وكرمان ومكران وسستان وخراسان وأفغانستان والبامير والصفد وما وراء النهر (٢) وقد ظلت هذه الحرب نحو خمس سنوات أي حتى سنة ١٢٢٣ م استولى فيها جنكين خان على كثير من مدن ما وراء النهر وأهمها بخارى وسمرقند وترند ، ثم عبر نهر جيحون وفتح بلخ والطالقان وباميان بينما فتحت جيوشه حوض نهر سيعون وخوارزم وخراسان وتتبع قسم منها يعرف في التاريخ باسم المغول المغبة محمد خوارزمشاه الذي أخذ

D'Ohsson Tome I, pp. 123-162.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 135.

و

Cam. med. hist., Vol. IV, pp. 633-637.

و

Cam. med., hist., IV, p. 633, D'Ohsson, Tome I, p. 175.

(٢)

الصفد بالضم ثم السكون وأخره دال مهملة .. كورة عجيبة قصبتها سمرقند ، وترند ، مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي .. وطالقان بعد الألف لام مفتوحة وقف وأخره فون بلدة بين هرو الروذ وبليخ وبينها وبين هرو الروذ ثلاث مراحل ..

« راجع هذه الأسماء في معجم البلدان لياقت »

يتنتقل مسرعان من نيسابور إلى قزوين إلى جيلان إلى مازندران إلى جزيرة عند مصب نهر جرجان في بحر قزوين حيث مات ثم بعد ذلك سار المغول المغربة حتى دخلوا روسيا بعد أن عبروا جبال القوقاز (١)

وقد قامت الغزوات بعد موت محمد خوارزمشاه بين ابنته جلال الدين وبين جنكىزخان فأرسل جنكىزخان جيشاً إلى خوارزم هزمها جلال الدين ، ثم تلاقي بعد ذلك الاشتان عند نهر السند ودارت بينهما معركة حمى وطيسها وأظهر فيها جلال الدين شجاعة أرعبت عدوه ، إلا أن انسحاب جزء من جيشه بسبب التزاع بين قواه أضعفه واضطربه إلى عبور نهر السند إلى الهند . وقد بقى جنكىزخان بعد ذلك مدة قصيرة على شاطئ نهر السند أرسل فيها قائدين من قواه لاقتفاء آثر جلال الدين في الهند ، كما أرسل ابنته أجطاي إلى غزنة فغير بها ، وأرسل جيشاً غير هذه الجيوش ففتح هراة وخر بها كما فتح مرو وخر بها ، ولما عادت هذه الجيوش إليه عزم على العودة إلى منغوليا في ربیع سنة ١٢٢٣م وقد أراد في أول الأمر أن يعود عن طريق الهند والتبت وسار فعلاً بعض المراحل ولكنه غير رأيه وسار عن طريق فارس وما وراء النهر ، أي اتبع في عودته الطريق التي سلكها عند

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥٧ - ٨ و ج ٧ ص ٣٧٣ و ابن العبرى ، ص ٤٠٢ و ٤١٠ .

D'Ohsson, Tome I, pp. 216-292.

Howorth, Vol. I, pp. 77-86.

Browne, Lit. his. of persia. II, p. 438.

Raverty, Tabakat-i-nasiri (trans), p. 377 note 5.

مجيئه فوصل إلى قصره في منغوليا في شهر فبراير سنة ١٢٥١م (١) .

وعلى ذلك فقد سار جنكيزخان شوطاً بعيداً في سبيل  
ضم معظم غرب آسيا إلى ممتلكات المغول ، كما أنه ثبت قدم  
المغول في جزء واسع من شمال الصين ووجه انتظارهم إلى  
البلاد الصينية . وقد مات جنكيزخان في ١٨ أغسطس سنة  
١٢٢٧م وهو يحارب في بلاد التنجووت (٢) .

## ٢ - عهد خلفاء جنكيزخان (أجطاي وكيوك)

(أ) نشر نفوذ المغول في الصين : لم يأت خلفاء  
جنكيزخان بهذا في اتباع الطريق الذي سلكه ؛ وبنفس ذلك ما  
ابنه أجطاي عندما خلفه على العرش عول على اخضاع أمراء  
أسرة كين الذين ثاروا على المغول على أثر موت جنكيزخان  
وهزمواهم مرتين في سنة ١٢٢٨م وفي سنة ١٢٣٠م ، وقد  
سار على رأس جيش كبير كما سير أخاه تولى *Tulé* إلى هونان  
وكانـت النـتيـجة أن انتـصـرـ المـغـولـ وـاـكتـسـحـواـ أـسـرـةـ كـيـنـ منـ  
الـلـوـجـوـدـ وـأـتـمـواـ اـخـضـاعـ الصـيـنـ الشـمـالـيـ نـهـائـيـاـ ،ـ بـعـدـ انـ ظـلـ  
أـفـرـادـ هـذـهـ أـسـرـ يـحـكـمـونـ ١١٨ـ سـنـةـ (٣)ـ .

(١) ياقوت - معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٣٥ و ٤٥١ ، وابن العبرى ، ص ٤١١ - ٤١٣ .  
D'Ohsson , Tome I , pp. 296-323.

« غزنة » ولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند .  
راجع لفظ غزنة في معجم البلدان لياقوت .

D'Ohsson , Tome I , pp. 380-1.

D'Ohsson , Tome II , pp. 16-56.

Howorth , Vol. I , p. 125.

Camb. med. hist. , IV , p. 625.

ذكر ابن العبرى ص ٣٩٥ أن جنكيز خان كان له أربعة أولاد من زوجته الخاتون  
الكبيرة وذكر اسماءهم كالتالى : توشي ، جعاتاي ، أوكتاي ، تولى .

(٢)

(٣)

و

و

هذا في الصين الشمالية ، أما في الصين الجنوبيّة فقد عول أحطاء على تنفيذ رغبة جنكيزخان الذي جهز حملة لغزوها ولكنه مات قبل انجازها . ولم يمنع أحطاء عن تحقيق هذا الغرض مساعدة ملوكها له في حربه ضد أمراء آسرة كين ، بل انه وقد وعد الملك باعطائه هونان جزاء تلك المساعدة عاد فأخلق الوعد ، ولم يكتف بذلك بل فكر أنه حين بدأ محاربة آسرة كين طلب من هذا الملك أن يسمح لجيشه بالمرور في أرضه ولكنه أبي وحين أرسل إليه رسولًا لهذا الغرض قتله ، ورأى في أعمانه هذه سبباً وجيهًا لإعلان الحرب عليه ، وسیر حملة ضد الصين الجنوبيّة سنة ١٢٥٣ م فكان ذلك اتباعاً للطريق الذي اختطه جنكيزخان وان لم تكن نتيجة هذه العملية حاسمة (١) . وقد سار خلفاء أحطاء على هذا النمط نحو الصين الجنوبيّة ولم يفز أحد منهم بنتيجة نهائية بل كانت جيشه تغير على بعض المقاطعات وتستولي على بعض المدن ثم لا تثبت أن تعود منها غير عابئة إلا بالحصول على الغنائم (٢) .

أما في كوريا فقد اشتد النزاع بين ملوكها وأحطاء وكثرت الشورات ضد المغول حتى انه في سنة ١٢٣١ م قتل رسول الخان وكان ذلك سبباً في ارسال حملة بقيادة سابوتاي Sabutai الذي انتصر وعين حكاماً من المغول في كثير من مدن كوريا . وفي سنة ١٢٣٢ م، ثار أهل كوريا وقتلوا كثيراً من هؤلاء الحكام المغوليين وخاف ملك كوريا وفر إلى جزيرة سيانج هوا Siang Hua على ساحل كوريا الغربي فاستدعاه

D'Ohsson, Tome II, pp. 76-83.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 137.

و

Cam, med. hist. IV p. 637.

د

D'Ohsson, Tome II, p. 276.

(٢)

أجطای ليجيیب آمامه عن تلك الحوادث ولكنّه رفض فکان ذلك سببا فى ارسال حملة ضده سنة ١٢٣٥ م . ولم تأت سنة ١٢٤١ م حتى خضع ملك كوريا ووعده بدفع جزية سنوية وارسال رهائن الى أجطای (١) وظل الحال على ذلك أيام الخان سانجو .

(ب) نشر نفوذ المغول في أوربا : كانت حملة المغول المغبة سببا فى توجيهه نظر المغول الى أوربا ، فلما مات جنكيزخان وتولى العرش ابنه أجطای قام المغول بأعظم حربهم في أوربا . وما يدل على اهتمام أجطای بفزو أوربا أنه حين جهز سنة ١٢٣٥ م الجيش لغزو الصين الجنوبية وكوريا لم ينس أن يجهز جيشا ثالثا ليوجهه الى ما وراء نهر الفليجا كما أنه كان عازما على قيادته بنفسه وعندما اضطرته الظروف الى البقاء تخلى عن القيادة الى باتو ابن أخيه جوجى ، وأرسل معه أبناءه وأبناء اخوه (٢) .

، وقد سار هذا الجيش بسرعة كعادة الجيش المغولي وخرب بلادا كثيرة من أهمها موسكو وفلدمير كما استعمل القسوة الشديدة ضد مدينة كسلسك Koselsk التي سماها المغول موباليج Mabalig ومعناها مدينة الآلام ؛ مما يدل على أنهم أحسوا بقسوتهم حيالها . ولم تنج نجرود منه الا لذوبان الثلوج وتحول الاقليم المحيط بها الى مستنقع لا يمكن

D'Ohsson, II, pp. 72-75.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 135.

Cam. med. hist., IV, p. 637.

D'Ohsson, Tome II, p. 276.

(٢).

عبوره . ولم تأت سنة ٤١٢٠م حتى كان قد قارب نهر الدnieper وخرب مدينة برسلاف Pereslave وشنينجوف Chernigov وجلوكوف GlokhoV ثم استولى على مدينة كيف Kiev (١) . وانقسم الجيش المغولي بعد ذلك الى قسمين سار أحدهما الى الشمال قاصدا بولندة وسار الثاني الى الجنوب الغربي قاصدا بلغاريا . أما القسم الشمالي الغربي فتمكن من هزيمة هنري دوق سيليسيا سنة ١٢٤١م ومعه اشراف بولندة ورئيس الفرسان اليوتون في لينتز هزيمة ساحقة وأدخل الرعب في أوربا الغربية كلها من جراء هذا الانتصار ومن جراء أعمال القتل التي قام بها والتي راح ضحيتها شهرون من الأشراف والبطارقة والراهبات والأطفال . بينما القسم الذي سار نحو الجنوب الغربي عبر الكربات بقيادة باتو واكتسح فرسان هنغاريا في موهي Mohi على نهر نيس واضطرب الملك بيلا الرابع Belaiv إلى الفرار نحو الادرياتيك، ولم يكتف بذلك بل عبر نهر الدانوب واستولى على جران Gran ولو لا موت أخطاء الذي استدعى باتو وقاده إلى بلادهم ، لما وجد أقل شيء في مشاركة باريس وروما لكيف وموسكو في مصيرهما (٢) . وعلى العموم فقد شمل عذاب المغول في حملتهم هذه أوربا الشرقية والوسطى وامتد حتى حدود ألمانيا الشرقية ولم تنج منه البوسنة ولا بلغاريا ولا الصرب (٣) كما أن هذه العملية كانت أعظم مجهودات خلفاء جنكيزخان في أوربا بل ويمكن اعتبارها الأولى والأخيرة .

(١) D'Ohsson, Tome II, pp. 114-122.

(٢) Ibid., pp. 124-160.

Cam. med. hist., Vol. IV, p. 637.

Gibbon, decline &amp; fall of the Roman Empire (Ed. Bury).

Vol. VII, p. 17.

(١)

(٢)

و

(٣)

(ج) نشر نفوذ المغول في غرب آسيا : بعد عودة جنكيز خان إلى بلاده رجع جلال الدين من الهند وأخذ يجمع شتات الامبراطورية الخوارزمية ، وقد وفق إلى حد كبير وأصبحت سلطنته منتشرة في خراسان وكرمان والعراق العجمي وفارس وأذربيجان ، كما هزم الكرج ونهب بلاد الأسماعيلية وقتل منهم عدداً كبيراً وفرض عليهم جزية ثقيلة ، كما استولى على خلاط ولم يتركها إلا بعد أن تحالف صاحبها الملك الأشرف مع علاء الدين صاحب بلاد الروم وهزمه (١) .

وكان المغول ينادون جلال الدين في أول الأمر بغير نجاح حتى إذا تولى أجيطاً أمرهم بعد موت أبيه، أرسل جيشاً قوياً استولى على الرى وهمدان وما بينهما من البلاد ثم قصد أذربيجان وخرب ونهب وقتل من ظفر به من أهلها ثم أوقع بجلال الدين ليلاً وهو بظاهر آمد سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) فتشتت عسكره آيدي سباً وفُر هو إلى الجبال حيث قتله أحد الأكراد (٢) وبذلك قضى المغول على الدولة الخوارزمية وأصبح نفوذهم تماماً في ما وراء النهر وخراسان والعراق العجمي وفارس .

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٩٥ - ٢٢٧ .

D'Ohsson, Tome III, pp. 1-21, 34-47.

« الكرج بالضم ثم السكون وآخره جيم وهو جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملوكها تفلس ولهم ولاية تنسب إليهم مملكة ... وشوكة وقوة وكثرة وعدد » .

راجع لفظ كرج في معجم البلدان للياقوت :

(٢) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٢١٧ و ٢٢٠ و ٢٢٢ - ٢٢٤ والذهبي ، تأول الإسلام .

ج ٢ ، ص ١٠١ وابن العبرى ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

D'Ohsson, Tome III, pp. 23-27, 47-62.

Howorth, Vol. I, p. 125.

Raverty (Trans.), Tabakat-i-iNasiri, p. 298, note 1.

وقد ذكر ابن الأثير أن ارسال هذا الجيش المغولي الذى قضى على جلال الدين كان بناء على طلب الحشيشية بسبب سوء معاملة جلال الدين لهم (١) ، فاذا كان هذا صحيحاً فانه يدل بلا شك على قصر نظر المسلمين فى ذلك الوقت وتعاديهما فيما بينهم وعدم تعاونهم، كما يرينا كيف جر المسلمين على أنفسهم البلاء فقد كان محمد خوارزمشاه حاجزاً منيعاً بين الخلافة العباسية والخطر المغولي عمل الخليفة الناصر على إزالتها ثم جاء جلال الدين وحاول أن يقيم هذا الحاجز ويحسم العالم الاسلامي من شر المغول فلم يساعديه أحد بل ووقع الحشيشية في الخطأ الذي وقع فيه الخليفة من قبلهم .

ولم تقتصر مجهودات جنكيزخان على اتمام ما بدأه بالقضاء على الدولة الخوارزمية بل امتدت اطماعهم شيئاً فشيئاً ، وقد تم في أيام أجيال اخضاع جزء كبير من الجهات الباقية في غرب آسيا ، فوعدت أذربيجان بدفع جزية كما وعد كثير من أمراء بلاد الكرج بمثل ذلك وان كانت روسودان Rousoudan ملكة تلك البلاد قاومت المغول مدة طويلة ولجأت إلى قلعة أوزانث ، أما أرمينية فخررت عاصمتها آنى Ani وقتل كثير من أهلها لأنها قاومت المغول الذين ظلوا يحاصرونها زمناً طويلاً، كما عوملت قارص - احدى مدنها - معاملة سيئة على الرغم من أنها سارعت بتقديم مفاتيحها إلى المغول ولم ينج من مذبحتها إلا الأطفال والصناع ، ولكن المغول بعد ذلك عاملوا أرمينية كما عاملوا غيرها ؛ اذ قبلوا منها الجزية المعتدلة كما أعادوا أمراءها إليها وذلك على أثر ذهاب الأمير الأرمني أوراك Avak وأخيته ثماتا Thamata

(١) لين، الأثير، بق ١٢، ص ٢٢٠ .

إلى بلاط أقطاي سنة ١٢٤٠ م واستقباله لهما استقبلا  
حسنا (١) .

بعد موت أقطاي سنة ١٢٤١ م استمر تقدم المغول في  
غرب آسيا وظل هذا التقدم طوال المدة التي كانت فيها  
تيركينا أرملة أقطاي ووالدة كيوك صاحبة الأمر والنهاي  
(١٢٤١ - ١٢٤٦ م) . وفي عهد كيوك (١٢٤٨ - ١٢٥٣ م)  
وأوائل عهد مانجو ، فقد أغار المغول على أرزن الروم سنة  
١٢٤٣ م (٦٤١ هـ) واستولوا عليها وقتلوا حاميتها وأسرروا  
كثيرا من أهلها ، كما حاربوا السلطان غياث الدين كيخسرو  
سلطان الروم السلاجقة في آسيا الصغرى ، واضطربوا إلى دفع  
جزية سنوية قدرها أربعين ألف دينار وعدد من العبيد  
والخيول والأشياء الشمينة . كما دخل في نفس الوقت قسم  
آخر منهم الشام وتقدم حتى حلب وعاد بعد أن دفعت لهم  
مبلغا من المال ، وفي عودته قدم له حاكم ملطيه الخضوع كما  
قدم كمية من النقود والأواني الذهبية والفضية ، وقبل حاكم  
أنطاكية وغيره من حكام المدن المسيحية دفع جزية سنوية ،  
وكذلك فعل هيتون ملك قيليقية أو أرمينية الصغرى وتسلم  
شهادة بأنه من أقبيال الخان ، كما دفعت الموصل لهم جزية  
سنوية (٢) . ومعنى ذلك أن سلطة المغول في تلك الأيام  
انتشرت في أملاك الدولة الخوارزمية البايدة وفي آسيا  
الصغرى وفي شمالي الشام .

D'Ohsson, Tome III, pp. 71, 75-78.

(١)

Howorth, Vol. I, pp. 132-133.

و

D'Ohsson, Tome III, pp. 79-88.

(٢)

Howorth, I, p. 106.

و

**(د) غارات المغول على أملاك الخليفة العباسية : يجب**

الآن ننسى أن الخليفة العباسية لم تسلم من هجمات المغول في ذلك الوقت وأنهم منذ تخلصوا من جلال الدين خوارزمي سنة ٦٢٨هـ أخذوا يشنون الغارات السنوية على العراق (١) وقد لاقى منهم المستنصر أكبر المتاعب واهتم بأمرهم غاية الاهتمام فسير عدة رسل يستنجد الأشرف من مصر ويستنجد العربان وغيرهم ، كما أخرج الأموال وأخذ يجمع الجند من جميع أجزاء بلاده لนาهضتهم . ولما غزوا اربيل سنة ٦٣٤هـ (٢) - وكانت قد آلت إلى الخليفة منذ سنة ٦٣٠هـ بعد موت صاحبها مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين كوجك على - قتلوا كل من فيها وسيروا ونهبوا حتى نتني من كثرة القتلى (٣) ثم رحلوا عنها إلى الموصل ، وتربيصت لهم قوات الخليفة حتى عادوا وهزمتهم عند جبل حمررين واضطربتهم إلى ترك الأسرى الذين وقعوا في أيديهم عندما هاجموا اربيل . ولكن هذا النصر لم يكن حاسما لأن المغول عادوا فانتصروا ثانية ثم ساروا شمالاً (٤) . وقد غزا المغول العراق سنة ٦٣٥هـ ووصلوا حتى سامراً (٤) وافزعوا المستنصر وأضطربوه إلى اعلان الجهاد بعد أن جمع مجلساً من العلماء وجعلهم يفتون بأن الغزو في سبيل الله خير من العج إلى بيت الله . وقد كان ذلك سبباً في سريان روح الحماس في بغداد حتى صار العلماء والكتاب يخرجون من بغداد إلى الصحراء يشجعون الجندي في تدريبهم بل ويشاركونهم في

(١) Richard Coke, baghdad, p. 135.

(٢) المقريزى - السلوك ج ١ ، ص ٢٤٢ والذهبى - دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٤ و ٢٤٧ .

(٣) الديار بكرى - الخميس في أحوال النفس نديس ج ٢ ، ص ٤١٤ .  
Cam. med. hist., IV, p. 638.

(٤) ابن العبرى ، ص ٤٢٨ .

Muir, The Caliphate, p. 586.

هذا التدريب (١) حتى قيل انه استخدم من العساكر ما تزيد عدتها على مائة ألف انسان وانه استعان بالجندي المرتزقة وأرسل الى الملك الكامل مائة ألف دينار ليستخدم له بها العساكر فاستخدم له بضعفها وردها غير منقوصة ثم أرسل له نجدة من لدنها تبلغ عشرة آلاف جندي ، وكانت نتيجة أعماله هذه أن طرد المغول (٢) .

وقد ظلت هجمات المغول على العراق العربي متواتلة في الفترة التي اعقبت موت اجطاي وفي حكم كيوك القصير، كما بلغ تقدم المغول في تلك الجهات أشدّه حتى انه في سنة ١٤٢ هـ (١٢٥٤ م) - التي اتخذ فيها الخليفة المستنصر مؤيد الدين محمد بن العلقمي أستاذ داره وزيرا له - علم الناس في بغداد أن المغول دخلوا شهر زور وهي على مسيرة ثمانية أيام شمالي بغداد وخربوها واضطروا حاكمها من قبل الخليفة العباسي ملك الدين محمد بن صنقر الى اللجوء الى حصن منيع . وفي سنة ١٤٣ هـ (١٢٤٦ م) تقدموا حتى بعقوبا ، ولو لا انتصار جيوش الخليفة بقيادة الدفتردار الصغير عليهم وصدها لهم لأضحوا خطرًا كبيرًا . كما أنهما في سنة ١٤٧ هـ (١٢٤٩ م) تقدموا حتى دقوقاء وقتلوا حاكمها ووصلت طائفة منهم الى بغداد نفسها وهاجمتها على حين غفلة من أهلها وقتلت عدداً كبيراً منهم ونهبت كثيرة من أموالهم (٣) .

D'Ohsson, III, p. 74.  
Coke, Baghdad, p. 135.

(١)

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ والديار بكرى - الخبيس ، ج ٢ .  
ص ٤١٤ .

Muir, The Caliphate, p. 586.

و

Sayed, ameer Ali, A Short hist., p. 393.

و

(٣) المقريزى - الصلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٢٢٠ و ٣٥٥ والذهبى - دول  
الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

اما حكم مانجوخان الذى انتخب سنة ١٢٥١ ففقد امتاز بتقدم المغول المطرد نحو العراق العربى ، فقد دخلوا العراق العربى في السنة الثانية من حكمه (٦٥٠ هـ - ١٢٥٢ م ) وخرروا ديار يكر وميافارقين وتقدموا حتى رأس عين وسروج وقتلوا أكثر من عشرة آلاف شخص وأسروا مثل ذلك ، كما أنهم هاجموا قافلة كبيرة كانت في طريقها من حران الى بغداد وحصلوا منها على غنائم وافرة ، من بينها ستمائة حمل من السكر وكثير من نسيج القطن المصرى وستمائة ألف دينار ، وقتلوا الشيوخ والعجائز وساقو النساء والصبيان معهم وعادوا بعد ذلك الى خلاط (١) . هذا الى أن سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية كان في أيام ذلك الخان العظيم وذلك ما سنتكلم عنه في الباب الثالث .

(١) المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٨٢ والذهبى ، دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .

بعقبها بالفتح ثم السكون وضم القاف وسكون الواو والباء موحدة ٠٠٠ قرية كبيرة .. بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان ٠٠٠ ودقوقام بفتح أوله وضم ثانية وبعد الواو قاف أخرى وألف ممدودة ومحصوره : مدينة بين اربيل وبغداد ٠٠٠ كان بها وقعة للخارج :

ويميافارقين مدينة بديار يكر ٠٠٠ ويزان ٠٠٠ وبلدة قرية من مدنه الجزيرة بين حران ونصيبين ودينيسن ٠٠٠ وشترنج تقول ٠٠٠ بلدة قرية من ديار مصر ٠٠٠ وخلاط بكسر أوله ، وهي قصبة ارميبيه : الوسيطى : ٢٢٣ .

ابن الأثير (١) : (راجع تهدى الأسماء في معجم البلدان . ليناقوت) .

١٤٦٦ تيرى ، ٧ ج ، ٣ .

## الباب الثالث

### الفتح المغولي للعرا

#### الفصل الأول

#### بغداد قبيل الفتح المغولي

#### ١ - طبغرافية بغداد

أتم أبو جعفر المنصور بناء بغداد سنة ١٤٩ هـ وكا عبارة عن دائرة في مركزها قصر الذهب والمسجد الج تحيط بها منازل أبنائه ودواعين حكومته ، ومحيطها أسد ثلاثة من اللبين متعاقبة ، بين الداخلي والأوسط مسافة عرض ٥١٠ ياردات يسكنها الأتباع، وبين الأوسط والمخارجي مس يبلغ اتساعها ٥٠ ياردة خالية . وكانت معاور هذه الدا شوارع أربعة في نهايتها أبواب كبيرة هي باب خراس وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة (١) . ومنذ أوا عهد المنصور أخذت بغداد في الاتساع والنمو ولم تعد تقتصر على تلك الدائرة ، ولم تؤشر في نموها تلك العوادث التي نزلت بها كالنراع الذي قام بين الأمين والمأمون وانته

(١) الطبرى ، ج ٩ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ و ٢٣٩ - ٢٤١ .  
والخطيب البغدادى ج ١ ، ص ٦٩ - ٨٣ . واليعقوبى ، ص ٢٣٩ - ٢٥٤ .  
وابن الأثير ج ٩ ، ص ٢٦٥ و ٢٨٦ . ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٦ .  
ص ٢٥٤ . وصبح الأعشى ج ٤ ، ص ٢٣٠ و ٢٣٧ . Le Strangee pp. 18-27 .

الخلفاء الى سامرا ووقوع الخلافة تحت سيطرة بنى بويعه والسلاجقة ، وأصبحت ثلاثة أقسام : القسم الواقع على شاطئ دجلة الغربي ومن محلاته شارع دار الرقيق والعربيه وباب البصرة والكرخ والمستشفى العضدي (١) ، والقسم الواقع على امتداد الجزء الشمالي من شاطئ دجلة الشرقي ومن محلاته الرصافة والشمايسية والمخرم ومحلة القصور البويهية ، والقسم الواقع على امتداد الجزء الجنوبي من شاطئ دجلة الشرقي ويشمل حريم دار الخلافة الذي كان يحيط به سور ويوجد في داخله القصر الحسني وقصر التاج وقصر الفردوس (٢) ومحلات العامة التي كان منها المأمونية وباب الأزج ومسعودية والريان والمقدية وقراح ظفر والقاضي وابن رزين وأبى الشحم والتى أحاطها جميعها الخليفة المستظهر وابنه المسترشد بسور عظيم (٣) .

وعلى الرغم من أن القرن السادس الهجرى شاهد استعادة الخلفاء العباسيين لسلطانهم بعد أن اغتصبه بنو بويعه ثم السلاجقة أكش من قرنين (٣٤٧ - ٢٣٤ هـ ) ، فان أقسام بغداد المختلفة فى ابانه وفي أوائل القرن السابع الذى تلاه فقدت كثيرا من عمارتها بسبب كثرة القلاقل والمنازعات التى كانت تقوم بين سكان محلات مختلفة أو فيضانات دجلة

(١) البغدادى ج ١ ، ص ١١٩ ومعجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ و ٢٦٥ وج ٥ ، من ٢١١ و ٢٩١ وج ٧ ، من ٤٠٨ و Le Strange, pp. 232, 304-306.

(٢) البغدادى ، ج ١ ص ٩٩ ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ وج ٧ ، من ٣٦٩ وصبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٣١ . Le Strange, pp. 243-254.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٠٤ و ٢٦٢ ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٤٩ ، وج ٧ ، من ٤١ و ٤٠٨ . Le Strange, pp. 284-288.

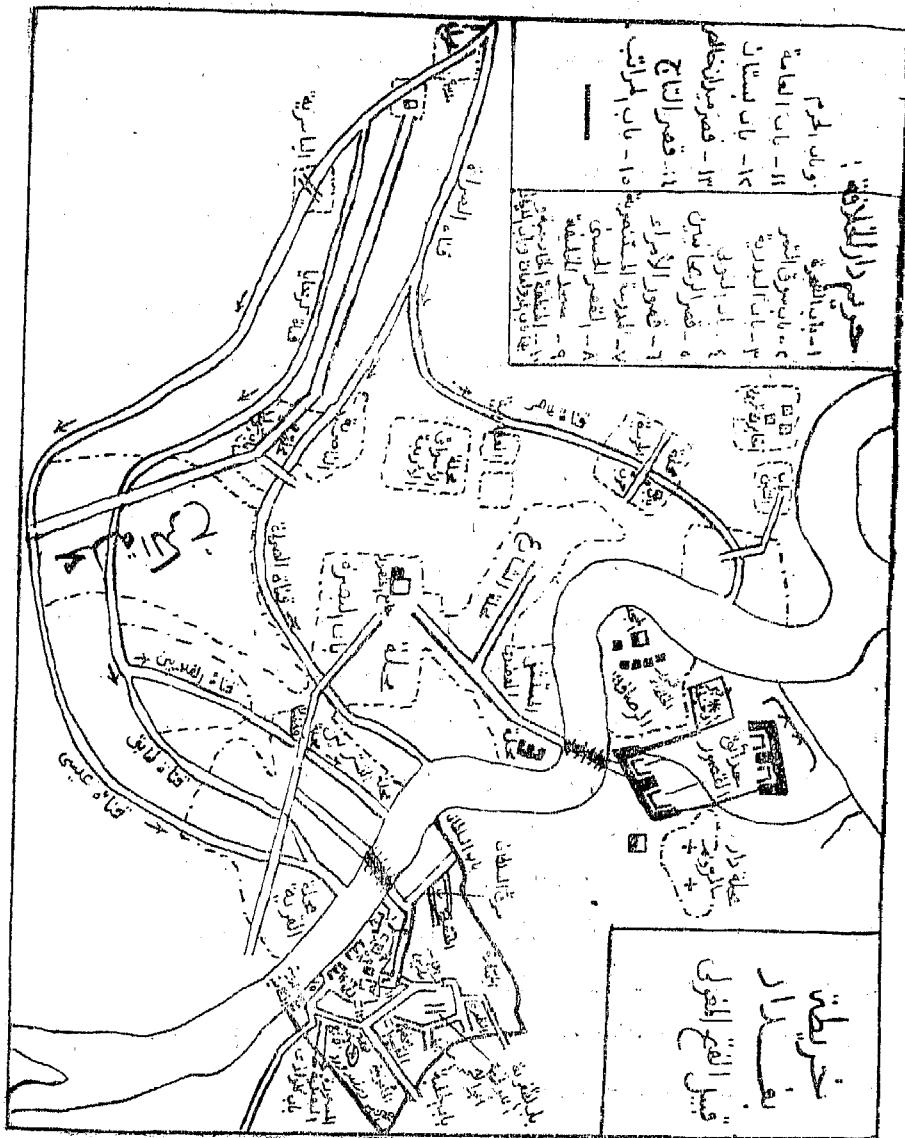
جامع فى معجم البلدان ج ٢ ، من ٤١ . القراب بفتح أوله وتخفيظ ثالثه والختمه جاء اصطلاح بغدادى فانهم يسمون البستان قرابة .

الكثيرة<sup>(١)</sup> ، وقد أثبت ذلك ابن جبير في رحلته حيث قال : «هذه المدينة العتيقة - ان لم تزل حاضرة الخلافة السياسية ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية - وقد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها الا شهير اسمها ، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل انحصار الحوادث عليها والتفات أعين النواب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامن أو تمثال الخيال الشاخص »<sup>(٢)</sup> .

ولو أردنا أن نصف بغداد بأقسامها المختلفة عندما حاصرها هولاكو سنة ٩٥٦ هـ لوجدنا أن هذه الأقسام : بغداد الشرقية الجديدة التي كان يقيم بها الخليفة المستعصم وحكومته والتي رکز المغول جهودهم لفتحها . وقد كانت قصور الخلفاء في هذا القسم مختلفة عما كانت عليه في الماضي ، فقصر الفردوس كان قد تهدم وزالت معالمه ، والقصر الحسنى القديم كان قد تهدم أيضاً ونشأت على أنقاضه منذ القرن الخامس الهجرى قصور أخرى تهدمت بدورها ثم نشأت على أنقاضها المدرسة المستنصرية وقصر عرف باسم الريحانين ، كما أن قصر التاج القديم الذى وضع أساسه المعتضد وأكمله المكتفى تهدم ونشأ قصر آخر باسمه إلى الشمال منه . أى أن منطقة حريم دار الخلافة كانت في ذلك الوقت تتكون من الشمال إلى الجنوب من المدرسة المستنصرية على ساحل دجلة الشرقية وقصر الريحانين بعذائها إلى الداخل ثم قصر التاج إلى الجنوب منها ، هذا عدا قصور أخرى وحدائق غناء . وكانت هذه القصور لا يزال يحيط بها سور يفصلها عن محلات العامة وإن كان هذا السور قد نقل

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ١٩٦ .



إلى الجنوب من مكانه الأصلي . وكان حريم دار الخلافة في أيام ياقوت يشمل ثلث بغداد الشرقية الجديدة تقريراً كما كان له سور يحيط به ابتدأه من دجلة وانتهاه إليها كهيئه نصف دائرة ، وله عدة أبواب : أولها من جهة الغرب بباب الغربة وهو قرب دجلة ، ثم باب سوق التمر وهو باب شاهق البناء أغلق في أول أيام الخليفة الناصر لدين الله ابن المستضيء ، ثم باب البدرية وعنده باب العتيقة التي تقبلها الرسل والملوك إذا قدموا بغداد ، ثم باب العامة وهو باب عمورية أيضاً ، ثم يمتد قرابة ميل ليس فيه باب إلا باب بستان قرب المنظرة التي تنحدر تحتها الضحايا ، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو غلوتى سهم في شرقى العريم (١) ولم نعلم بعد ذلك أنه لحق به تغيير كبير .

أما محلات العامة التي كانت توجد خارج سور حريم دار الخلافة - والتي سبق أن ذكرنا منها المأمونية وباب الأزوج والريان ومسعودية والمقتدية وقراح ابن رزين وقراح أبي الشحم وقراح القاضي وقراح ظفر والمخたارة - فقد لحقها كثير من التلف بسبب فيضان دجلة سنة ٥٥٤ هـ ثم في سنة ٦٦٤ هـ ولكنها رغم ذلك ظلت عامرة - وقد ذكر ياقوت أن محلة الريان كانت من أعمق المحلات (٢) ، كما ذكر أن المحلات الأربع التي كانت تسمى قراح ابن رزين وظفر والقاضي وأبي الشحم كانت لا تزال موجودة في أيامه ولو أنها كانت منفصلة عن بعضها البعض ، وأن أبنيتها كانت جيدة وأنها كانت عامرة ومتسعة وفي كل منها مساجد وأسواق ودورب

(١) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٤٧ .

كثيرة ، كما ذكر أن محلة أخرى هي محلة العجم كانت موجودة وأنها كانت أشبه بقرية قائمة بنفسها (١) .

ويجب لا ننسى أن حريم دار الخلافة ومحلات العامة التي كانت في شرقها كانت جميعها داخل سور كبير بناء الخليفة المستظاهر سنة ٤٨٨ هـ ثم اصلاحه وأعاد بناءه الخليفة المستضيء سنة ٥٦ هـ . وكانت تتخلل هذا السور ابواب أربعة هي : باب السلطان في الشمال وباب الظفرية وباب الحلبة في الشرق وباب البصليه الذي ينسب إلى محله البصليه في الجنوب ويسميه ياقوت باب كلواذى . وكانت على هذا السور أبراج قائمة للدفاع عن بغداد ، منها برج العجم الذي اشتهر أثناء الحصار المغولي لبغداد وكان يقع عند تلاقي السور الشرقي بالسور الجنوبي (٢) .

وكان يلي بغداد الشرقيه الجنوبيه في الأهميه بغداد الغربيه ، وكان معظم محلاتها القديمه لا تزال عامره ، وان كانت قد ضاقت رقعتها وتلاشت بعض محلاتها . ومن محلاتها العامره في ذلك الوقت محلة العربيه وكانت في الشمال منفصله عن غيرها من محلات يحيط بها فضاء واسع من الخرايب والأتربه . وقد ذكر ياقوت أن الكثير منها كان قد تخرب في أيامه وأنها أصبحت حول باب حرب فقط ، كما ذكر أنه كان يحيط بها سورها الخاص وكانت لها مسجدها الجامع وأسواقها الكثيرة العامره (٣) . وإلى الجنوب من محله العربيه كانت توجد محله باب البصرة وكان بها جامع

(١) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٤١ .

Le Strange, pp. 284-293.

و

(٢) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ورحلة ابن جبير ، ص ٣٣١ .

Le Strange, pp. 278-81.

و

(٣) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

المنصور لا بحالته الأولى التي كان عليها حين بناء المنصور بل بعد أن لحقت به تغيرات كثيرة ؛ اذ هدمه الرشيد وبناء من الأجر كما أن الخليفة المعتصم وسعه باضافة جزء من قصر الذهب اليه ٠ وكانت محلة باب البصرة هذه مركزاً لأهل السنة ٠ وعلى بعد نصف ميل من محلة باب البصرة كانت توجد محلة الكرخ ، وكانت مركز الشيعة كما أنها كانت قد تقلصت عما كانت عليه فيما مضى<sup>(١)</sup> ٠ وكانت – حين كتب ياقوت كتابه – أهم محلات بغداد الغربية محلة القرية التي كانت محتفظة بمسجدها الجامع وأسوارها<sup>(٢)</sup> ٠ وكانت بجانب هذه المحلات الكبيرة محلات أخرى أقل منها أهمية مثل محلة باب المحول التي كانت توجد إلى الجنوب الغربي من الكرخ وأصبحت في أيام ياقوت منفردة كالقرية المنفصلة ذات جامع وسوق مستغنية بنفسها<sup>(٣)</sup> ٠ ومحلات دار القز والناصرية والعتابية وكانت توجد إلى الجنوب الغربي من محلة الحربية وسط خرائب واسعة ٠ ومحله الكاظمية وكانت توجد في أقصى الشمال من بغداد الغربية حول قبر الإمام موسى الكاظم<sup>(٤)</sup> ٠

وكانت بغداد الغربية قبيل حصار هولاكو لها تتصل ببغداد الشرقية الجنوبيّة بجسرتين ٠ وقد ذكر صاحب الفخرى أن الخليفة الظاهر أعاد في سنة ٦٢٣ هـ جسراً كان فيضان دجلة قد أزاله<sup>(٥)</sup> كما ذكر ابن العبرى أن الظاهر بن الناصر عقد لبغداد جسراً ثانياً عظيماً جديداً وأنفق عليه مالاً كثيراً فصار في بغداد على دجلتها جسراً<sup>(٦)</sup> ٠ وسواء

(١) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ - ٧٧ ٠

(٣) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١ - ٢٢ ٠

(٤)

Le Strange, pp. 126-137, 162, 334, 337.

(٥) الفخرى ، ص ٢٤٢ ٠

(٦) ابن العبرى ، ص ٤٢٣ ٠

أكان الظاهر قد عقد جسراً جديداً على ما ذكره ابن العبرى أو أنه أعاد جسراً قد ديمى كان قد أزاله فيضان دجلة على ما ذكره صاحب الفخرى ، فان بغداد الغربية والشرقية كانتا تتصلان بجسرىين .

ولم تكن بغداد الشرقية القديمة أو بغداد الرصافة ذات أهمية كبيرة فى ذلك الوقت ، ولم يكن باقياً منها الا محللة التى كانت قد نشأت حول قبر أبي حنيفة ، كما كان الى الجنوب منها مسجد الرصافة وحوله قبور الخلفاء العباسيين ، كما كانت الى الشرق منها محللة دار الروم التى كان يقيم بها النصارى الذين يعتنقون المذهب النسطورى (١) .

## (٢) حكم المستعصم ببغداد

(١) أخلاقه وصفاته : تولى المستعصم الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٠ هـ وكانت مدة خلافته خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر وأياماً . وقد ذكر المؤرخون أنه كان تقيراً ورعاً متمسكاً بمذهب أهل السنة والجماعة على ما كان عليه والده وجمه (٢) كما ذكر أى مثلاً تبين رقته ولطف حسه ، منها عدم سيره على طريقة من سبقة من الخلفاء في حبس أولادهم مدة خلافتهم ، ومنها أنه دخل خزانة الكتب ووجد خویدما نائماً فانسحب وأمر بايقاظه برفق وهو بعيده حتى لا يدعر (٣) . ولكنهم في الوقت نفسه لم يضنوا علينا باظهار صفاته السيئة التي لا تؤهله للحكم والتي تنذر بفشله المرريع في ادارة شئون البلاد . ومما ذكروه في هذا الصدد

Le Strange, p. 338.

(١)

(٢) ابن شاكر - فرات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٣) الفخرى ، ص ٢٤٥ .

أنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك عديم اليقظة كثير الغفلة قليل البطش، محباً للهو يقضى أكثر أوقاته في سماع الأغانى والتفرج على المساحر (١) . هذا إلى أنه كان بخيلاً لدرجة الشج، يدل على ذلك أن الملك الناصر داود صاحب الكرك على أثر نزاع بينه وبين الناصر يوسف صاحب حلب ترك بلده وذهب إلى الخليفة المستعصم ليستعين به في مصيبيه فأودع لديه وديعة من الجواهر تبلغ قيمتها ما ينيف على مائة ألف دينار (٢) على أمل استردادها عند تحسن الأحوال ، ولما تحسن حاله وطلبها من الخليفة أخذ يماطله ، ولما ألح عليه « أرسل من حاسبه على ما وصله في ترداده إلى بغداد من المضييف مثل اللحم والخبيز والمحطب والعليف والتبين وغير ذلك ، وشمن عليه ذلك بأعلى الأثمان وأرسل إليه شيئاً نمراً ، وألزمته أن يكتب بخطه بقبض وديعته وأنه ما بقي يستحق عند الخليفة شيئاً . فكتب خطه بذلك كرها وسار عن بغداد » (٣) .

وقد انتقد صاحب فوات الوفيات الخليفة المستعصم فقال : « ولو لم يكن فيه إلا ما فعله مع الملك الناصر داود في أمر الوديعة لكتاه عاراً وشنراً . والله لو كان الناصر من بعض الشعراء وقد قصده وتردد عليه على بعد المسافة ومدحه بعده قصائد، كان يتبعه عليه أن ينعم عليه بقرب من قيمة وديعته من ماله ، فقد كان من أجداد المستعصم بالله من استفاد منه أحد الشعراء أكثر من ذلك » (٤) .

(١) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ من ١٧٦ وابن شاكر - فوات الوفيات ، ج ١ من ٢٢٧ والفرخى ، ص ٢٤٤ وابن العبرى ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ فالسيوطى.

٠ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ والمديار يكرى - الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ -

(٢) المقريزى ، السلوك لعرفة دول الملوك ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨

(٣) أبو الفدا ج ٣ ، ص ٣٠٠ .

(٤) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧

كما أن السيوطى رماه بالضعف وحقره كل التحقير فقال عند كلامه على الخليفة المستنصر : « وكان له ( أي المستنصر ) أخ يقال له الخفاجى فيه شهامة زائدة وكان يقول ، لئن وليت لأعبرون بالعسكر نهر جيرون وأخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم . فلما مات المستنصر لم يز الدويدار ولا الشرابى تقليد الخفاجى خوفا منه وأقاموا ابنه أبياً أحمد للينه وضعف رأيه ليكون لهما الأمر ؛ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً من هلاك المسلمين فى مدتھ وتغلب التتار » (١) . ولم ينس ابن طباطبا أن ينال منه كما نال منه غيره ، بل وحاول أن يكون أوسع منهم خطى فى هذا السبيل فانتقض من عمله ما يشتم منه البعض فائدة ما وذلك فى قوله : « وكان يجعلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة » (٢) . ولكنهم جميعاً كانوا سطحيين فى نقدهم ، ولم يهتم صاحب فوات الوفيات بغير الناحية الخلقية التى يتوجه إليها مؤرخو العرب دائمًا فى كلامهم .

**(ب) الحالة الداخلية في عهده :** ازدادت حالة العراق الداخلية في عهد المستعصم سوءاً؛ بسبب ضعف الخليفة وما اجتمع فيه من الصفات السيئة التي جرت عليه وعلى بغداد كثيراً من الويلات وانتهت بقتله والقضاء على نفوذ أسرته . فقد كانت قلة معرفة المستعصم بتدبير الملك وانصرافه عن ادارة شئون البلاد وضعف ارادته سبباً في استخفاف أعدائه به وطمعهم فيه وعملهم على الاستئثار بالسلطة دونه ، ثم أدى ذلك إلى تنازعهم فيما بينهم وانصرافهم عن شئون الحكم ومن هنا كان استهثار العامة بالحكومة وكثرة الفتنة وتفشي

(١) السيوطى - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ .

(٢) الفخرى ، ص ٢٤٤ .

القلق ببغداد . كما أن بخله كان سببا في اضعاف الجيش . وسنتناول فيما يلي شرح النزاع بين الرؤساء في بغداد في أيام المستعصم ثم ضعف الجيش وبعد ذلك اضطراب الأمن في بغداد .

**١ - النزاع بين الرؤساء :** عند موت الخليفة المستنصر سنة ٦٤٠ هـ ، اتفق الدفتردار الصغيرة أبيك وكان رجلاً كبيراً المطامع مع الشرابي على اختيار ابنه أبي أحمد بدلاً منه ، وذلك لما يعرفه فيه من الضعف والانصراف إلى اللهو وحتى تتهيأ له الفرصة لتوسيع سلطنته والاستئثار بتصريف الأمور . وقد تمكّن من تنفيذ رغبته هذه ، وتولى أبو أحمد الخلافة باسم المستعصم . كما أبعد عمه الخفاجي عنها وكان رجلاً قوياً الشكيمة (١) . وقد سارت الأمور كما يشتهي الدفتردار سنتين استوزر فيها المستعصم نصير الدين أحمد بن الناقد وزير أبيه . فلما استوزر بعد ذلك مؤيد الدين محمد بن العلقمي سنة ٦٤٢ هـ تغيرت الحال لأنه ترك لهذا الوزير الأمور كلها يديها كما يشاء (٢) كما أن هذا كان كبيراً المطامع فتدخل في كل صغيرة وكبيرة و تعرضت بذلك سلطة الدفتردار للضياع .

**غضي الدفتردار لسلطته المهددة وبدا التنافس يشتند.** بينه وبين الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي . ولما كان الخليفة يحب وزيه فقد رأى الدفتردار أن خير طريقة لابعاد الوزير هي الارهاب ، وقد سلك لهذا الغرض طريقاً غير شريف فجمع حوله كثيراً من العيارين وأخذ يهدد الأمن ، ولما أعيته العيل أخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة واقامة

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ج ١٨٥ .

(٢) المخري ، ج ٢٤٧ .

آخر مكانه . أما الوزير ، فقد كان يقضى لم تفته أعمال الدفتردار وحاول أن يقضي عليها ، فأعلم الخليفة بها وطلب منه أن يقضى على مدبريها ، وهكذا صرنا نرى الاثنين يواجه كل منهما الآخر .

وقد كان النجاح حليف الدفتردار لأن الخليفة خاف من مؤامراته ودخل الرعب إلى قلبه حين رأى أتباعه الكثيرين من العياريين . ولذلك استدعاه إليه وأخربه بما نقله إليه الوزير وأكد له أن ثقته منوطه به ، وأنه لا يسمع ما يقال عنه . ولم يفعل ذلك فحسب بل عندما رأى الدفتردار بعد ذلك يعاود خطته الأولى ويجمع أعوانه ويسعد لها جمته كتب بيده اقرارا ذكر فيه أنه يعتقد أن كل ما قيل عنه من قبل المكائد والأكاذيب وأن ثقته فيه تامة كما أعطاه أمانا تماما ثم أحضره إليه وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة وتخل عن الوزير ابن العلقمي (١) .

ويلاحظ أن الخلاف بين الوزير والدفتردار قد جر البلاء العظيم على بغداد ، وذلك لأن الدفتردار عندما كان في أول الأمر بعيدا عن الخليفة كان يجمع حوله العياريين الذين يعيشون فيها فسادا والذين نشروا الفوضى في ربوعها حتى مل أهلها حكومة العباسيين (٢) . كما أنه بعد أن أصبح الأمر له وقربه الخليفة إليه واستراح أهل بغداد من شر العياريين الذين كانوا يدبرون المؤامرات ويزرعون الأمان حتى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي لفقد سلطته وانتصار منافسه عليه وأصبح يتعين الفرص لاسترداد

Quatremere (Trad.), Histoire des Mongols, pp. 227-229.

Quatremere, p. 229.

(١)

(٢)

سلطته أو التأثر لنفسه ، فلما هاجم المغول بغداد لم يخلص في الدفاعة عنها .

٢ - ضعف الجيش : لم يكن الجيش العباسى فى أيام الخلفاء العباسيين المتأخرین قوياً بمعنى الكلمة . وقد رأينا كيف أن الخلافة فى أيام الخليفة الناصر لم تعتمد عليه فى القضاء على سلاجقة فارس ، كما أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الجيوش الخوارزمية فى أيام الناصر والمستنصر . ولكنه كان على كل حال قوة ثانية وانتصر انتصارات لا بأس بها فقضى على بعض الخارجين فى الداخل ، كما انتصر فى خوزستان على جيوش خوارزمية صغيرة وصد غارات مغولية متعددة .

وفى أوائل حكم الخليفة المستعصم ظلّ الجيش العباسى على حاله هذه وانتصر فى سنة ٦٤٣ هـ على المغول عند بعقوبة من أعمال بغداد (١) . ولكنه بعد ذلك أخذ فى الضعف شيئاً فشيئاً . ويرجع هذا الضعف إلى أسباب متعددة منها أن المستعصم كان يخالاً جداً معباً لجمع المال فلم ينفق على الجيش اللازم . وقد ويجه على عمله هذا عدوه هولاكو بعد أن وقع فى يده ، فقد ذكروا أنه عندما استحوذ على ما كان تدبيه من الكنوز ، أمر بأن يقدم للخليفة من هذه الكنوز طعام ولما قال له الخليفة إن الكنوز لا تزيل جوعاً ، رد عليه بقوله : « اذا كانت الكنوز لا تسد الرمق وإذا كانت لا تحفظ الحياة فلماذا لم تعطها لجنودك ليحموك أو إلى جنودي ليسالمونك » (٢) . أضف إلى ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمي

(١) الديار بكرى ج ٢ ، من ٤١٥ وابو الفدا ج ٣ ، من ١٨٤ .  
Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 400.

(٢)

بعد أن رأى نفوذه قد ول وأن الخليفة مال إلى أبيك الدفتردار الصغير دونه وأن هولاكو مقبل على بغداد بجيشه المظفر، اخذ يفكر في عمل شيء يستدر به عطف الفاتح فأمر بتسريح جيش الخليفة . وسواء أكان ذلك قد تم بعد أن أقنع ابن العلقمي الخليفة بأن الأمراء المسلمين التابعين له كثيرون وأنهم اذا ما حل الخطر بالبلاد مستعدون للدفاع عنها بجيوشهم (١) أم بعد أن أقنعه بأن الجيش يتكلف كثيراً من المال وأن الأفضل أن يسترضي المغول بمال المتواffer من تسريحة (٢) ، فان جيش الخليفة بعد أن كان في أواخر أيام المستنصر وأول أيام المستعصم يبلغ مائة ألف فارس ، صار دون العشرين ألفاً (٣) .

**٣ - اضطراب الأمن في بغداد :** « جعلت المنازعات بين الأحناف والحنابلة الذين كانوا مصدر اضطراب لبغداد ، وبين أهل السنة والشيعة الذين كانوا يسكنون ضاحية الكرخ الغربية ، ومعظم المعارك بين الرعاع والطبقات الغنية - حياة المستعصم عبئا ثقيلا » (٤) .

أما المعارك بين أهل السنة والشيعة ، فقد كانت لا تنتقطع قبل أيام المستعصم لما بين الفريقين من حزازات واحد كانت تنفجر لأوهى الأسباب ، غير أنها كثرت كثرة مزبعة في أيام المستعصم . وقد تكون الفتنة التي وقعت بين الفريقين سنة ٦٥٥هـ من أهم هذه المعارك ؛ لأنها امتازت بما عداها بتدخل عسكر الخليفة فيها وانتصاره لأهل السنة . وقد ذكروا أن

Howorth, Vol. I, p. 197.

(١)

(٢) أبو الفدا ج ٢ ، ص ٢٠٢ والديار بكرى ج ٢ ، ص ٤٢٠ وابن خلدون ج ٥ ، ص ٥٤٢ .

(٣) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

(٤) Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 396.

أبا بكر ابن الخليفة وركن الدين الديويدار أمراً العسكري فنهبوا الكرخ وهتكوا أعراض النساء وركبوا منهن الفواحش وقتلوا كثيراً من الرجال (١) ، أضف إلى ذلك أن هذه الفتنة كانت السبب المباشر الذي جعل الشيعة يقفون موقف العداء للعباسيين عندما هاجم المغول بغداد على ما سترى .

ولم تكن المنازعات الطائفية هي وحدها السبب في اضطراب الأمن في بغداد ، بل ان المنافسة بين الرؤساء كانت في وقت من الأوقات من أكبر العوامل التي أدت إلى هذا الاضطراب ، وذلك حين كان أعون الدفتردار الصغير من العياريين يهاجمون الآبراء ويقبضون عليهم ويملاون جو بغداد بفظائعهم وحشة ورهبة ، وقد بلغ من أمرهم أن الخليفة المستعصم فزع منهم وأمر فخر الدين الدامغاني رئيس الادارة باتخاذ ما يلزم للقضاء عليهم (٢) . ولم يكن ارضاء الدفتردار طبعاً بتقريريه إلى الخليفة قاضياً على مشاغباتهم مرة واحدة بل لابد أنهم وقد تشبعوا بروح الفوضى مدة من الزمن كانوا يهددون الأمن بيان حين وأخر .

**(ج) الحالة الخارجية :** ظلت الخلافة في عهد الخليفة المستعصم محتفظة بما كان لها من علاقات طيبة مع الدول الإسلامية وبما كان لها في نفوس المسلمين من احترام وقدسيّة . غير أنه وقد ضاقت رقعة العالم الإسلامي بعد زوال دولة السلاجقة في فارس والدولة الخوارزمية كما سبق أن ذكرنا ، انحصرت علاقات الخلافة وأصبحنا لا نكاد نعثر في ثنايا الكتب على غير ما كان بين الخليفة المستعصم

(١) أبوالهدا ج ٣ ، ص ٢٠٢ والديار بكرى ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ . وتاريخ ابن خلدون ج ٥ ، ص ٥٤٢ .

Quatremere, pp. 227-229.

(٢)

والأيوبيين ثم ما كان بينه وبين المماليك الذين خلفوهم على عرش مصر من علاقات . هذا وستتناول فيما يلي الكلام عن حالة العالم الاسلامي في الفترة ما بين سنتي ٦٤٠ و ٦٥٦ هـ ثم بعد ذلك نبين علاقات الخلافة بالأيوبيين ثم بالمماليك .

**١ - العالم الاسلامي :** طرأ على العالم الاسلامي في تلك الفترة كثير من الأحداث وجرت به كثير من التغيرات أدت جميعها إلى اضعافه وفل شوكته ، وإننا لا نكاد نعثر على دولة من بين دوله قوية الجانب نافذة السلطان بل إننا لا نكاد نجد واحدة من بين هذه الدول لا يتغلل فيها النفوذ المغولي ولا يخيفها شبح المغول .

(أ) مصر : كان الحكم في مصر في ذلك الوقت للأيوبيين أولا ثم بعد ذلك للمماليك ، أى أن نظامه لم يكن مستقرا . وقد حكم من الأيوبيين نجم الدين أيوب من سنة ٦٣٧ هـ حتى سنة ٦٤٧ هـ وكان قوى الشكيمة تتمكن من الاحتفاظ بمركزه في مصر والشام ، على الرغم من أن الفرنجة هاجموا مصر في آخر أيامه . وبعد موته استدعي المماليك البحريية – الذين كان الصالح نجم الدين قد استكثروا منهم في جيشه – ابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيما ؛ ليخلف أباه وليقف أمام الفرنجة (١) .

على أن حكم الملك المعظم تورانشاه لم يطل ، لأنه بعد أن انتصر على الفرنجة أخذ يعتدى على المماليك البحريية فأوجسوا منه خيفة وقتلوه سنة ٦٤٨ هـ ثم ولوا شجرة الدر (٢) حكم

(١) المقريزى – السلوك معرفة دول الملوك . ج ١ . ص ٢٢٢ – ٢٥١ وابن العبرى . ج ٤٥٢ – ٤٥٥ .

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 77-78.

(٢) نكرها المقريزى في أكثر من موضع شجر الدر ، ولم يذكرها شجرة الدر على ما هو مشهور .

البلاد - وكانت أرملة الصالح أيوب - كما جعلوا عز الدين أيوب التركماني مقدم العسكر ، وبذلك انتهى عهد الأيوبيين في مصر (١)

بدأ عهد المماليك في مصر منذ قتل الملك المعظم على أن الأمور لم تستقر لهم فيها إلا بعد مدة طويلة . وكانت المدة الباقية من الفترة التي نتكلم عنها - أي من سنة ٦٤٨ هـ حتى سنة ٦٥٦ هـ - تسودها الاضطرابات والفتنة، فقد تزوج أيوب التركماني من شجرة الدر في ١٩ ربیع الآخر سنة ٦٤٨ هـ ثم خلعت شجرة الدر من الملك بعد أن حكمت نحو ثمانين يوماً ، وأصبح عز الدين أيوب التركماني في الملك ولقب بالملك المعز في آخر شهر ربیع الآخر . وبعد ذلك أشرك المماليك مع الملك المعز أحد أفراد أسرة بنى أيوب وهو الملك الأشرف موسى ابن الملك الناصر يوسف ؛ حتى يجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله وذلك في ٣ جمادى الأولى سنة ٦٤٨ هـ . كما أن المماليك في يوم ٦ جمادى الأولى نادوا في القاهرة بأن البلاد لل الخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك المعز نائبه بها . وبعد ذلك صار الأمر للملك المعز والأشرف ثانية . ثم في سنة ٦٥٠ هـ أزيل اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وانفرد الملك المعز باسم السلطنة . وفي سنة ٦٥٥ هـ، قتل الملك المعز بتدبير شجرة الدر وتولى بعده ابنه الملك المنصور نور الدين على وعمره خمس عشرة سنة تقريباً وظل في الملك سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام حتى قبض عليه الأمير سيف الدين قطز يوم السبت ١٤ من ذى القعدة سنة ٦٥٧ . وقصارى القول ، إن هذه الفترة كانت فترة

(١) المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٥١ - ٣٦٢ .

(٢) المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٦٩ - ٤١٧ .

**مضطربة لا يتوافر فيها شيء من الاستقرار وتتوالى فيها  
الحوادث سراعاً .**

(ب) **بلاد الشام :** تمكن الأيوبيون في هذه الفترة من الاحتفاظ بنفوذهم في الشام ، ذلك أن الناصر صلاح الدين يوسف الذي أصبح صاحب حلب منذ سنة ٦٣٤ هـ بعد أن قتل الماليك البحري الملك المعظم تورانشاه في مصر سنة ٦٤٨ هـ استولى على دمشق في نفس السنة ، ثم حاول بعد ذلك عدة مرات أن يستولي على مصر ولكن جيوش الماليك صدته . على أن قوة الناصر يوسف لم تكن كبيرة ، كما أنه كان يهاب المغول ، يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزي عند كلامه على سنة ٦٤٨ هـ حيث قال : « وفيها وصل إلى الملك الناصر من قبل القان ملك التتر طمنغا ( براءة ) صورة أمان فصار يحملها في حياسته ( حزامه ) وسير إلى القان هدايا كثيرة » (١) . أضف إلى ذلك ما كان من ارساله ابنه الملك العزيز إلى هولاكو سنة ٦٥٦ هـ ومعه الهدايا وطلب منه نجدة ضد الماليك (٢) .

(ج) **آسيا الصغرى :** سبق أن ذكرنا أن المغول هزموا غياث الدين كييخسو سلطان الروم السلاجقة سنة ٦٤٠ هـ واضطروه إلى دفع جزية سنوية . وقد مات غياث الدين سنة ٦٤٣ هـ وخلفه على العرش ابنه الأكبر عن الدين كيكاووس الثاني وبدأت بذلك فترة كلها منازعات واضطرابات زادت في ضعف دولة الروم السلاجقة وخضوعها للمغول . ذلك أن غياث الدين كان له ولدان آخران غير عن الدين أحدهما

(١) المقريزي : السلوك معرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ، ص ٣٧٠ - ٤١١ وابن العبرى ، ص ٤٥٦ و ٤٠٢ -

علاء الدين والثانية ركن الدين لم يرضيا بانفراد عن الدين بالسلطة دونهما . وكان أول الخارجين على عن الدين أخوه ركن الدين الذى سار الى الخان المغولى كيوك وطلب معونته وكان من آثر ذلك أن اقتسم البلاد مع عن الدين . على أن الأمر لم يستقر بذلك وتتجدد النزاع بين الأخوين وانتصر عن الدين على ركن الدين وأسره وحبسه . وقد كان من المصادفات أن وصل فى ذلك الوقت القائد المغولى بيجونويان الى آسيا الصغرى بأمر الخان مانجو ليقوم بأعمال الفتح والتوسيع ، فطلب من عن الدين أن يقدم له ولجنوده مشتى ( سنة ٦٥٤ هـ ) . ولما لم يجب عن الدين القائد المغولى الى طلبه قامت العرب بينهما وانتهت بهزيمة عن الدين وفراره الى الامبراطور البيزنطى الاشكري Theodore II Lascaris في نيقية فأخرج بيجونويان ركن الدين من سجنه وولاه السلطنة في نفس هذه السنة ( ٦٥٤ هـ ) . وقد تبع ذلك رحيل المغول عن البلاد ورجوع عن الدين الى قونية وقيام النزاع بين الأخوين مدة خربت فيها بلاد سلطنة الروم ، ولم ينته الا في سنة ٦٥٦ هـ ، حين اتفق الأخوان على جعل نهر قزل ارمق حدا فاصلاً بين أملاكهما . على أن عن الدين وأخاه أرادا أن يعطيا هذا الاتفاق صفة عملية ؛ فذهبا الى هولاكو وهو بهمدان بعد أن ترك بغداد بقليل وحصلوا على موافقته (١) .

( د ) بلاد الجزيرة : لم يكن في بلاد الجزيرة في ذلك الوقت ( ٦٤٠ - ٦٥٦ هـ ) قوة اسلامية كبيرة فقد زال الفرع

(١) ابن العبرى ، ص ٤٤٦ - ٤٦٨ .

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 155.

Cambridge Medieval History Vol. IV, pp. 503-510.

Encyc Of Islam Arts, Kaika'us II, Kilig Arslan IV.

الأيوبي الذي كان فيها سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) حين قضى المغول على مظفر الدين غازى ، كما أن قوة مظفر الدين كوكبى صاحب أربيل انتهت بموته سنة ٦٣٠ هـ وأصبحت أربيل من بعده خاضعة لتواب الخليفة العباسى . ولم يبق هناك الا أتابكية الموصل التي كانت قد آلت الى بدر الدين لؤلؤ خادم أسرة زنكى ووزير عدة أفراد منها بعد موت ناصر الدين محمود بن القاهر بن نور الدين ووصول التقليد بولايته ايها من الخليفة سنة ٦٣١ هـ ، وظل بدر الدين لؤلؤاً صاحب الأمر في الموصل طوال خلافة المستعصم لا يشاركه في ذلك انسان بل انه ملك جزيرة ابن عمر التي كانت تقع على دجلة شمالي الموصل من صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من سلالة أتابك زنكى وأمر باغرائه . على أن ذلك ليس معناه أن قوة بدر الدين لؤلؤ بلغت الذروة ، اذ انه كان يخاف المغول وبهيا بهم حتى اننا نراه يرسل ابنه اسماعيل بالهدايا الى هولاكو وهو بهمدان على أثر انتهائه من فتح بغداد ثم يذهب بنفسه بعد ذلك ليقدم له الخصو (١) .

(ه) الاسماعيلية : لم يكن «الاسماعيلية» أحسن حالاً من غيرهم من المسلمين ، ذلك أنه بعد موت رئيسهم جلال الدين حسن سنة ٦١٨ هـ ترك خلفه علام الدين محمد (٦١٨ - ٦٥٣ هـ) سياسة الرجوع الى أحكام الاسلام ومصادقة المسلمين وسار تبعاً لعقائد الاسماعيلية التي تبيح التمتع بالملذات والبعد عن أحكام الاسلام . هذا الا أنه أصيب بمرض عقلى وأصبحت أوامره ونواهيه بعيدة عن جادة الصواب واضطربت شئون طائفته واعتلت ادارة حكومته حتى كثر النصوص فى أملاكه . وبعد موته سنة ٦٥٣ هـ خلفه ابنه ركن الدين

(١) المقريزى ج ١ ، ص ٢٤٧ و ابن العبرى ، ص ٤٢٥ و ٤٥٦ و ٤٨٢ .  
Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 77, 162-163

خورشاه الذى يقال انه حرض على قتل أبيه فسار سيرة سبيئة وارتكب كثيرا من المظالم ونزع الى الاستبداد وانتهى أمره بقضاء المغول عليه وعلى طائفته سنة ٦٥٥ هـ (١)

## ٢ - علاقة الدول الإسلامية بالخلافة في أيام المستعصم

تکاد العلاقات بين الخلافة العباسية في أيام المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) وبين العالم الإسلامي تختصر فيما كان بينه وبين أمراء بنى أيوب في مصر والشام ثم بينه وبين المماليك في مصر بعد زوال سلطان الأيوبيين منها بقتل الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ . وليس العيب في هذا راجعا إلى الخليفة المستعصم ، بل إنني لا أستبعد أن يكون هذا الخليفة قد فكر في السير على طريقة الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ = ١١٨٠ - ١٢٢٥ م) ومالت نفسه إلى نشر نفوذ الخلافة على العالم الإسلامي ولكن الظروف لم تساعد له على تنفيذ فكرته . إذ كان الاسماعيلية قد غادوا إلى معاداة العالم الإسلامي . كما كانت الأمور في دولة الروم السلجوقية تتحرك بالأصابع المفولية وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لا يجرؤ على السير في طريق غير طريق المغول :

ولا يبعد أن يكون الخليفة المستعصم قد تعلق - حين رأى المغول يغزون على بلاده مرة بعد أخرى ويصبحون المحركون للأمور في دولة الروم السلجوقية - بأخر خيط من خيوط التجاة وأراد أن يحافظ على الحكومات الإسلامية التي كانت في مصر والشام ؛ حتى تمد له يد المساعدة حين يشتد به الخطير

D'Ohsson, Tome III, pp. 174, 186-187.

(١)

Quatremere, p. 185.

المغولى ، كما لا يبعد أيضاً أن يكون هذا هو السبب الذى من أجله نرى الخليفة يقوم بمحاولات عددة للتوفيق بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام من جهة ، وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم الملك المعز أبيب فى مصر من جهة أخرى . فقد أرسل الخليفة المستعصم سنة ٦٤٦ هـ المشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن بن أبي سعد البادرائى لعقد الصلح بين الملك الناصر يوسف – وكان فى ذلك الوقت صاحب حلب فقط – وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب على أثر استيلاء الناصر على حمص من صاحبها الأشرف ثم سير الصالح نجم الدين أيوب من مصر الى دمشق وارساله الجيوش لمعاصرة حمص واستردادها من الملك الناصر ، ونجح الرسول فى مهمته وتقرر الصلح . كما أن الخليفة أرسل رسوله هذا سنة ٦٥٠ هـ الى مصر للاصلاح بين الملك المعز أبيب والملك الناصر يوسف ، وكان فى ذلك الوقت قد أصبح صاحب دمشق وحلب معاً على أثر ما كان من سير الملك الناصر سنة ٦٤٨ هـ الى مصر ومعه كثير من أمراء بنى أيوب بغية الاستيلاء عليها وملاقاة الملك المعز له ثم انتصاره عليه واضطراره الى العودة الى بلاد الشام . وقد نجح الرسول أيضاً فى تقرير الصلح بين الملكين سنة ٦٥١ هـ . وأرسل الخليفة الرسول نفسه مرة ثالثة سنة ٦٥٤ هـ لتجديد الصلح بين الملك الناصر والملك المعز على أثر ما كان من تسبيب الناصر العساكر سنة ٦٥٣ هـ . ومعهم بعض المالكين البحرينية الذين كانوا قد تركوا مصر عندما قتل الملك المعز الأمير أقطاي خوفاً من ازدياد نفوذه سنة ٦٥٢ هـ ، ونجح الرسول أيضاً كماماته فى عقد الصلح<sup>(١)</sup> .

(١) المقرىزى – السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٢٣٠ – ٢٣١ و ٢٨٢ – ٢٨٦ و ٣٩٧ .

ويرجح نجاح الخليفة المستعصم في محاولته التوفيق بين مصر والشام في ذلك الوقت إلى أن الأيوبيين سواء في مصر أو في الشام كانوا يسيرون على طريقة من سبقوهم من حيث احترام الخليفة العباسي وتلقى الخلع منه . وهكذا كان يفعل المماليك حين أصبح لهم الأمر في مصر . فقد بعث الخليفة المستعصم سنة ٦٤٢ هـ جمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين ابن الجوزي إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ومعه الخلع التي كانت تتكون من عمامة سوداء وفرجية مذهبة وثوبين من ذهب وسيف مذهب وطوق ذهب وعلمين من حرير وحصان فلبسها الملك نجم الدين أيوب (١) . كذلك بعث الخليفة المستعصم ابن الجوزي مرة أخرى إلى الملك الصالح سنة ٦٤٣ هـ « ومعه التقليد والتشريف الأسود وهو عمامة سوداء وجبة وطوق ذهب وفرس بمركب بحلية ذهب ، ونصب المنبر وصعد عليه الرسول وقرأ التقليد في الدليلين السلطاني والسلطان قائم على قدميه حتى فرغ من القراءة ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفي (٢) » ولم ينس الصالح أيوب ذلك للخليفة المستعصم ، فلما حضرته الوفاة سنة ٦٤٧ هـ لم يعهد إلى أحد بالملك ، بل قال : « اذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم . بالله ليり فيها رأيه » (٣) .

ولم يجد المماليك عن طريق احترام الخلافة العباسية والاخلاص لها في ذلك العهد ، فلما قتلوا الملك معظم تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ وتركوا جثته في المنصورة على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يدفنوه شفع فيه رسول الخليفة فقبلوا شفاعته ودفنوه (٤) . هذا إلى أنهم عندما وضعوا على عرش

(١) المقريزى - السلوك ج ١ ، ص ٣١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٦٠ .

مصر شجرة الدر بعد قتل الملك المظيم تورانشاه ولم يرض عن عملهم الخليفة المستعصم وأرسل اليهم كتاباً ينكر عليهم فيه تعين امرأة ويقول : « ان كانت الرجال قد عدلت عندكم فأعلمنا حتى نسير اليكم رجلاً » ، تابوا نصيحته وعززوا شجرة الدر عن الحكم وعيتوا عن الدين آبيك التركمانى فى الملك ولقبوه الملك المعز ، وذلك فى أواخر ربىع الآخر سنة ٦٤٨هـ(١) . ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ، بل انهم فى يوم الأحد ٦ جمادى الأولى نادوا فى القاهرة ومصر بأن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك المعز آبيك نائبه بها(٢) . وفي سنة ٦٥٤هـ عندما أتم الشيخ نجم الدين البادرائى رسول الخليفة تجديد الصلاح بين الملك المعز والملك الناصر يوسف صاحب الشام ، أرسل الملك المعز بصحبة الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولاً إلى الخليفة ببغداد يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر (٣) .

على أن الخليفة المستعصم اذا كان قد نجح في وضع نفسه في موضع الحكم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك الصالح آيوب ثم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك المعز آبيك ، وإذا كان قد نجح أيضاً في الاحتفاظ للخلافة بالاحترام في مصر والشام وجعل حكامهما يلتسمون خلع الخلافة وتقاليدها ، فإن نجاحه لم يكن عظيماً لأن الملك الناصر لم يكن شديد القوى كما أن الماليك لم يكونوا قد استقروا بعد في الحكم على ما تقدم :

(١) المقريزى - السلوك لعرفة دول الملوك ج ١ ، من ٣٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ .

## الفصل الثاني

### حملة هولاكو

#### ١ - اعداد العملية

رأينا فيما تقدم أن المغول في أيام جنكيز خان وابنه أخطاى وحفيده كيوك تمكنا من نشر نفوذهم فيما وراء النهر وفي خوارزم وخراسان وفارس والعراق العجمي وأذربيجان وبلاط الكرج وأرمينية ، كما اعترف بسيادتهم سلطان الروم السلاجقة ووصل نفوذهم إلى شمال الشام ، ولم يبق خارجا عن دائرة نفوذهم في غرب آسيا إلا بلاد الاسماعيلية في قوهستان والخلافة العباسية في العراق العربي ، وسرى فيما يلي أن المغول لم يتراكوا تلك الجهات طويلا بل أوقعوا بها كما أوقعوا بغيرها عندما ساحت لهم الفرصة . ذلك أن مانجوخان بن تولى الذي ارتقى عرش الخانية سنة ١٢٥١م بعد أن وضع حدا للنزاع القائم بين بيته جنكيز وأخطاى (١) وبعد أن ثبت مركزه وقتل أحفاد أخطاى الذين دبروا المؤامرة ضده (٢) ، أخذ يعيد المجد المغولي القديم ويحيي روح الحماس في نفوس قومه فأعد

(١) Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 641.

(٢) ابن العبرى - تاريخ مختصر الدول ، من ٤٥٩

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 452.

العدة لارسال حملتين حر بيتن احداهما الى الصين والآخرى  
الى فارس (١) .

اما حملة فارس فهى التى تهمنا وقد أسندها مانجو الى أخيه هولاكو وعنى بها عنایة فائقة وآية ذلك أنه خصص لها كثيرا من القوات المغولية المعاشرة فوضع تحت تصرف هولاكو الجيش الذى كان قد أرسله الى ايران تحت قيادة بیجونویان وجورماجون Gourmajoun والآخر الذى أرسله نحو كشمير وهندستان تحت قيادة طاين بهادر Tair Behadur ، كما أ美的ه بآلف من الرجال ذوى الخبرة فى ادارة آلات العرب وقادفات النفط الذين أحضرهم من بلاد الخطا لهذه الغاية . وكانت بعض هذه الآلات عبارة عن جاذبات أقواس ميكانيكية تدور بعجلات ويمكنها أن تجذب ثلاثة أقواس فى وقت واحد وكل قوس منها يرمى سهاما يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أو أربعة ذراع (١) . وكانت السهام مغطاة بريش الصقور والنسر ولها حافات قصيرة قوية . وأمر مانجو فوق ذلك بأخذ اثنين من كل عشرة رجال من جنود جنكيرخان التى قسمت بين أبنائه واحتوه وأبناء اخوه لتكونين حرس خاص لهولاكو . ولم يهمل فى الوقت نفسه تموين الجيش فخصص لكل جندى ألف رطل من النبيذ ومثل ذلك من اللبن الحامض الذى كان يحبه المغول وألف رطل من اللحم ، كما أنه لم ينس أن يسهل لهذه الجيوش مهمة السير وأرسل رسله الى البرارى والمراعى التى تمتد من قره

Howorth, Vol. I, p. 193.

(١)

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 452.

و

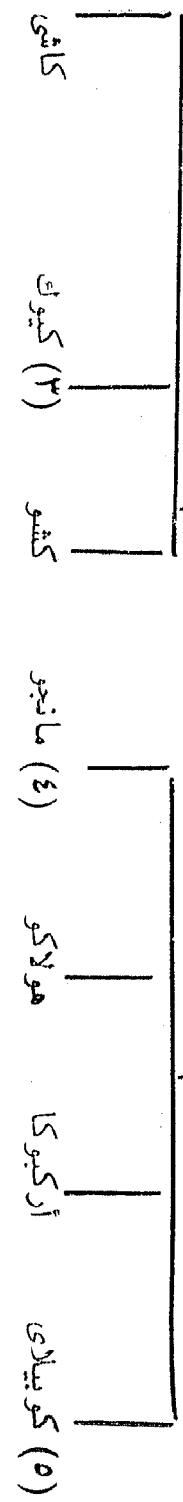
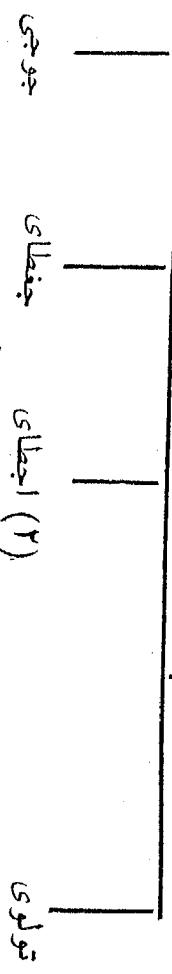
Cambridge Medieval History Vol. IV, p. 641.

و

(٢) الذراع مقياس يبلغ ملوكه ثلاثة أربعين باردة .

سلسلة نسب هولاکو

(۱) جنگیزخان



قورم إلى شاطئه جيرون والتى ستمر بها هذه الجيوش ليدعوا أهلها إلى تقديم المعونة لها أثناء سيرها ولينذر وهم من التعرض لها وليقيموا الجسور المتينة على الأنهار العميقية ومجارى المياه السريعة التى تتعترض طريق هذه الجيوش (١) .

وبعد أن أعد مانجو ما يلزم من الرجال والمؤن والذخيرة لم ينس أن يضع لهولاكو خطة العمل ويزوده بما يلزم من النصائح وقد كان مما قاله : « لاحظ فى كل خطواتك أعمال جنكىز خان وعاداته وقوانيته جملة وتفصيلاً . وعامل بالحسنى وأغمض بشواهد محبتك وعطفك كل من يخضع لك ويطيع أوامرك ونواهيك من شواطئه جيرون حتى أطراف مملكته مصر . أما إذا ثار عليك انسان أو عصاك فشتته فى الصحراء هو وزوجته وأولاده وأسرته وجميع أقاربه واجعله فريسة للشدة والذل . وعندما تبدأ بقوهستان خرب القلاع والحسون واجعل أعلى كردكوه ولنبيه أسفلها ولا يهمنك إبقاء أى حصن في العالم أو أية بقعة من بقاع الأرض . حتى إذا أتممت كل هذا فسر إلى العراق واقض على سادتها وعلى من فيها من الأكراد الذين يقطعون الطرق بلصوصيتهم . وإذا قدم لك خليفة بفداد فروض الطاعة والخضوع فلا تأخذ منه شيئاً ، أما إذا تظاهر بالغور وإذا كانت أقواله ونواياه تعوزها المودة فعامله كما تعامل أعدائك الآخرين » (٢) .

(١) ابن العبرى ، من ٤٦٠ - ٤٦١ .

D'Ohsson, Tome III p. 13E.

Howorth, Vol. II. p. 193.

Quatremere, pp. 129-137.

Riehard Coke, Baghdad the City of peace, p. 137..

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 453.

D'Ohsson, Tome III, p. 136-137. Quatremere, p. 141.

(٢)

## ٢ - قضاء هولاكو على الاسماعيلية

كان ظهور طائفه الاسماعيلية على يد الحسن بن الصباح وكان أول مركز لها في الموت على ما ذكرنا . وقد كان قدوة جنكيزخان إلى ما وراء النهر في أيام جلال الدين جد ركن الدين خورشاه الذي حكم من سنة ١٢١٠ م حتى سنة ١٢٢٠ م ، كما كان رسول جلال الدين هذا أول من قدم إليه فرض الطاعة بعد عبوره نهر سيجون (١) . بل إن الاسماعيلية ظلوا مدة طويلة في صفاء مع المغول ويقال إنهم هم الذين دعوا جنكيزخان إلى القضاء على جلال الدين خوارزمشاه بعد رجوعه من الهند لما لحقهم على يديه من العنط ، ولكنهم بعد ما رأوا مطامع المغول لا تقف عند حد وأن فتوحهم مستمرة في الصين وأوربا وخراسان والعراق العجمي وأسيا الصغرى خافوا خطرهم وعولوا على مناجزتهم وأخذوا يرسلون رسالاتهم إلى أوربا سنة ١٢٣٨ م يعتلبون معونة ملوكها الذين عرفوهم إبان الحروب الصليبية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم حاولوا عمل اتحاد من جميع الإمارات المجاورة لهم لصد خطرهم المشترك (٢) .

ولابد أن خططة الاسماعيلية هذه أغضبت المغول وكانت سببا في سوء معاملتهم لرسول شيخ الجبل الذي حضر مجلس انتخاب كيوك سنة ١٢٤٦ م (٣) كما كانت أيضا سببا في تقوير المغول بعد ذلك في مجلس انتخاب مانجو ، ارسال حملة من ضمن أغراضها القضاء على الاسماعيلية هي حملة هولاكو .

D'Ohsson Tome III, p. 174.

(١)

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 456.  
Cambridge Medieval History, Vol. IV, 1. 638.

و

(٢)

(٣) ذكر ابن العبرى ، ص ٤٥٠ أن كيوك صرف رسول الملاحة مئتين مهانين سنة

٦٤٥ .

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 451.

و

وقد جاء في صبح الأعشى « وعلت كلمة منكوتان ( يقصد مانجوخان ) صاحب التخت ووصلت اليه كتب أهل قزوين وببلاد الجبل يشكون من سوء مجاورة الملاحدة وهم الاسماعيلية فجهز اليهم منكوتان أخاه مكوقان ( لابد أنها هولاكو خان لأن بقية الكلام تدل على ذلك ) لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم » (١)، أي انه يرجع ارسال هولاكو هذه الحملة الى طلب أهل قزوين وببلاد الجبال المعونة من المغول ضد الاسماعيلية .

وقد خرج هولاكو من قره قورم في فبراير سنة ١٢٥٤م بعد أن أقام مانجو له ولجنوده الولائم ، وسار حتى وصل إلى الملغ ثم منها إلى سمرقند في سبتمبر سنة ١٢٥٥م . وبعدها سار في بخارى كنفول حيث قدم له مسعود بك حاكم ما وراء النهر وتركستان خيمة مطرزة بالذهب ووصل مدينة كش التي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من سمرقند في يناير سنة ١٢٥٦م . وقد مكث في هذه المدينة شهراً تقبل فيه فروض الطاعة والولاء من الأمير آرغون حاكم خراسان وغيره من الكبار الذين جاءوا حاملين الهدايا من العراق وخراسان وأذربيجان وأران وشرون وبلاد الكرج والذين كان من بينهم السلطان عن الدين وركن الدين من بلاد الروم السلجوقية وسعد بن الآتابك مظفر الدين من فارس ، كما أنه وجه الرسائل إلى ملوك ايران وسلطانينهم ، يدعوهم فيها إلى مساعدته ويقول : « أتينا طبقاً لأمر الخان الأعظم لندرك حصون الاسماعيلية ونقضى على هذه الطائفة قضاء تماماً ، فإن حضرتم بأنفسكم أمامي وعضدتكم مشروعي بتقديم الجندي والذخيرة والآلات احتفظت لكم بما في أيديكم من الولايات والجيوش والقصور ، أما ان أظهرتم على العكس من ذلك توانيَا

(١) صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

واهتمالاً في تنفيذ أوامر سرت اليكم بعد اتمام مشروعى  
بعون الله ولم آسمع منكم اعتذاراً وعاملت حكوماتكم  
وأملاككم كما لو كانت ملكاً للكافر » (١) .

بقي أمام هولاكو أن يلاقي الاسماعيلية بعد أن أطمأن  
إلى عدم وجود أخطار وراءه ، وبعد أن اكتسب محالفه الأمراء  
فيما وراء النهر وفارس . وقد عول على ذلك فعلاً فعبّر بقواته  
نهر جيحون في أول ذي الحجة سنة ٦٥٣ هـ (٢ يناير سنة  
١٢٥٦ م ) وسار نحو قوهستان . ولما كان قد أرسل من قبل  
قائد قطبيغاً نويان بجيشه عدده اثنا عشر ألفاً في خريف  
سنة ١٢٥٢ م إلى هذه الجهة ليمهد له السبيل ، ولما كان هذا قد  
قام بواجبه خير قيام ، فإن هولاكو لم يلق صعوبة كبيرة ولم  
يبذل مجهوداً شاقاً فيها ، وكل ما يذكر له فتحه ساوه وخواف  
حوالى آخر مارس سنة ١٢٥٦ م (٢) .

وقد ترك هولاكو قوهستان واتجه نحو بحر قزوين مارا  
بالمنصورية وسهول راذكان ثم خبوشان التي كانت مخربة  
منذ حملات المغول الأولى فأعاد بناءها ، ولم يحل يوم ١٠  
شعبان سنة ٦٥٤ هـ الا وكان أمام أسوار خراكان وبستان (٣)  
وأصبح عليه أن يفتح معاقل الاسماعيلية الحصينة .

لو أن هولاكو عزم على فتح هذه المعاقل بالقوة للقى من  
شجاعة الاسماعيلية وروح التضحية المتأصلة فيهم ما أتعبه

D'Ohsson, Tome III, pp. 137-138.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 193.

و

Quatremere, p. 151.

و

Richard Coke, p. 137.

و

Browne, Literary Hist of Persia, Vol. II, p. 453.

و

Drowne, Lit. Hist. of Persia, Vol. II, p. 458.

(٢)

Quatremere, pp. 183, 184. ,

(٣)

وأقض مضجعه وأطال حربه وكبد الخسائر الكبيرة ، ولكنـه وقد كان بعيد النظر اتبـع خطة أخرى وفـرت عليهـ كثـيرا من الجـهـود وقوـبـت لـهـ أـمـيـتـهـ ، تـلـكـ هـىـ الـاسـتـفـادـةـ منـ جـبـنـ رـكـنـ الدـيـنـ خـورـشـاهـ رـئـيـسـ الـاسـمـاعـيلـيـةـ الـمـقـيمـ وـقـتـدـاكـ فـىـ مـيـمـونـ دـيـزـهـ وـاـدـخـالـ الرـعـبـ فـىـ قـلـبـهـ حـتـىـ يـسـلـمـ ثـمـ اـسـتـخـداـمـهـ فـىـ فـتـحـ مـعـاقـلـ الـاسـمـاعـيلـيـةـ .

بدأ هولاكو بتنفيذ هذه الخطة وهو أمام أسوار بستان Merketai فأرسل حاكم هراة من كتاب Merketai رـمـعـهـ منـ كـلـمـشـ Monkclimesii وأوصـاهـماـ بـتـهـدـيـدـ خـورـشـاهـ وـارـهـابـهـ . ثمـ توـالـتـ المـرـاسـلاتـ بيـنـهـماـ مـدـةـ طـوـيـلـةـ (١)ـ . وأـخـىـراـ أـرـسـلـ إـلـيـهـ هـولـاـكـوـ عـطـاـ مـلـكـ الجـويـنـىـ حـتـىـ إـذـ لـمـ يـصـلـ إـلـىـ نـتـيـجـةـ بـدـأـتـ جـيـوشـهـ فـىـ ضـرـبـ المـدـيـنـةـ ، وـهـنـاـ آثـمـتـ خـطـتـهـ ثـمـتـهاـ الـأـوـلـىـ إـذـ خـرـجـ رـكـنـ الدـيـنـ خـورـشـاهـ مـنـ مـيـمـونـ دـيـزـهـ فـىـ يـوـمـ ٢٩ـ شـعـبـانـ ٦٥٤ـ هـ (١٩ـ نـوـفـمـبرـ ١٢٥٦ـ مـ)ـ وـقـدـمـ خـضـوعـهـ لـهـولـاـكـوـ وـاستـولـىـ المـغـولـ بـعـدـ ذـلـكـ مـبـاشـرـةـ عـلـىـ مـيـمـونـ دـيـزـهـ وـخـرـبـوـهـ وـنـهـبـوـهـ وـأـحـرـ قـوـهـ (٢)ـ . ثـمـ أـيـضـاـ يـسـتـغـلـوـنـ رـكـنـ الدـيـنـ خـورـشـاهـ وـيـسـتـفـيـدـوـنـ مـنـ وـجـوـدـهـ فـىـ أـيـدـيـهـمـ فـعـامـلـوـهـ بـالـحـسـنـىـ فـىـ أـوـلـ الـأـمـرـ حـتـىـ أـطـاعـهـمـ وـدـعـاـ مـدـنـ الـاسـمـاعـيلـيـةـ إـلـىـ التـسـلـيمـ لـهـمـ . وـقـدـ سـلـمـتـ لـهـمـ نـتـيـجـةـ دـعـوـتـهـ أـكـثـرـ مـنـ خـمـسـيـنـ قـلـعـةـ (٣)ـ أـمـاـ

(١) ابن العـبـرىـ ، صـ ٤٦٣ـ - ٤٦٤ـ .

Quatremere, p. 185.

وـ

D'Ohsson, Tome III, pp. 195-196.,

(٢)

Browne, Vol. II, p. 458.

وـ

(٣) ابن العـبـرىـ ، صـ ٤٦٤ـ .

وـ

D'Ohsson, Tome III, pp. 197-198.,

وـ

Howorth, Vol. I, p. 196.

وـ

ويلاحظ أن دوسون يذكر أن المدن التي سلمت للمغول أكثر من أربعين لا أكثر من

خمسين .

المدن التي أبىت سماع دعوة خورشاد بالتسليم مثل الموت فقد فتحت بالقوة في ٣٠ ذي القعدة سنة ٦٥٤ هـ (٢٠ ديسمبر سنة ١٢٥٦ مـ) ، وحدث بعد ذلك أن أرسل هولاكو ركن الدين خورشاد إلى قره قورم لمقابلة العان الأعظم مانجو ولكن هذا الأخير لم يقابله وأمر بقتله وقتل جميع من بقي على قيد الحياة من أهل طائفته فقضى المغول على الاسماعيلية في ايران كقوة سياسية ؟ وان كان لا يزال لهم حتى الوقت الحاضر نسل في تلك البلاد (١) .

وإذا كنا قد رأينا أن جبن ركن الدين خورشاد وسوسوع تدبيره كانا السبب في قضاء هولاكو على الاسماعيلية بهذه السهولة ، فيجب ألا يعزب عن بالنا عامل آخر لا يقل أثرا وهو الدور الذي قام به نصير الدين الطوسي الذي كان في الموت عندما دارت المحادثات بين هولاكو وركن الدين خورشاد . وقد أتى بهذا الرجل إلى الموت نصير الدين حاكم قوهستان من قبل الاسماعيلية في أيام علاء الدين والد ركن الدين خورشاد وظل بها منذ ذلك العين محترماً مكرماً (٢) . ولكن هذه الاقامة كانت على غير رغبة منه ؛ لذلك لم يخلص لحكمها وبلغ كرهه لها أشدّه في أيام ركن الدين خورشاد . ويختلخص الدور الذي قام به في أنه اتفق مع جماعة من كانوا يقيمون مثله في الموت على غير ولاء على تسلیم الأقاليم لهولاكو اذا استدعى الأمر (٢) . وقد خدمته الظروف اذ لم تضطره

(١) ابن العبدى ، ص ٤٦٥ .

D'Ohsson, Tom I III, pp. 101-102. ,

Browne, Vol. II, pp. 458-460.

D'Ohsson, Tome III, p. 256. ,

Browne, Vol. II, p. 456.

Quatremere, p. 185.

و

و

(٢)

و

(٣)

إلى تدبير مؤامرة لتسليم البلاد ولم تظهر للمملأ خيانته هو وأخوانه؛ لأن خورشاد سرعان ما افتقن بضرورة التسليم للمنفول مع أنه الخائن الذي غرر بخورشاد وخدعه وشجعه على التسليم وكلفه بذلك أمراً أفقده حیاته وملكه وطائفته (١) .

### ٣ - قضاء هولاكو على الخليفة العباسية

بعد انتهاء هولاكو من أمر الاسماعيلية ذهب إلى قرب قزوين في ٢٧ ذى الحجة سنة ٦٥٤هـ وأقام الحفلات لجيشه المنتصرة، ثم تحرك منها إلى همدان فوصل إليها في أوائل المحرم سنة ٦٥٥هـ (أوائل يناير سنة ١٢٥٧م) وعسكر بجيشه فيها وأخذ يعمل على تنفيذ الشطر الثاني من برنامجه العملة التي بيده قيادتها . ويلوح لي أن هولاكو عندما فكر في الخليفة العباسية وهو بهمدان عزم لأول وهلة على ابادتها ، على الرغم من أن مانجو بنصيحته التي وجهها إليه يوم أقام له وجيشه الولائم في قره قورم لم يدعه إلى القضاء على الخليفة العباسية بل طلب منه أن يترك أملاك الخليفة له إذا قدم فروض الطاعة وأظهر نوایاه الحسنة . ويتحقق ذلك لدى تقييع هولاكو للقائد المغولي بيجو نويان حين وصل إلى همدان قادماً من أذربيجان على عدم فتحه بغداد وقضاءه على الخليفة (٢) . ولا بد أن هولاكو عندما ترك قره قورم كان على رأى الخان الأعظم؛ ولكن بعد أن سار إلى الغرب ورأى الأمراء يقدمون له فروض الطاعة حيشما وصل بينما الخليفة العباسى لم يكلف نفسه مؤونة ارسال رسول

(١)

(٢)

Quatremere, p. 185.

Quatremere, p. 223.

D'ohsson, Tome III, p. 206.

=

من قبله كما أنه لم يمده بالمعونة عند محاربته للاسماعيلية - لما رأى هولاكو ذلك كله حقد على الخليفة وعزم على الانتقام منه .

وإذا كان هولاكو لم يسيطر جيشه إلى العراق حالما انتهى من محاربة الاسماعيلية ، فمن المحتمل أن يكون ذلك رغبة منه في الاستعداد للحرب خصوصا وأن بييجو نويان حين دافع عن نفسه أمام تكريت هولاكو على تركه بغداد دون فتحها بالغ في قوتها ووصفها بقوله : « الحقيقة أن هذه المدينة بسبب كثرة سكانها وجيوشها العديدة ، وبسبب ما تحتوى عليه من آلات الحرب والذخيرة وبسبب هذه الطرق الصعبة الضيقة التي يجب سلوكها قبل الوصول إليها . بسبب ذلك كله لا يمكن لأى جيش أن يقتضهما إلا بصعوبة » (١) . إذ ليس من الحكمة والأمر على ما ذكره بييجو نويان الارساع بمحاجمتها قبل اعداد العدة . كما أنه قد يكون الدافع بهولاكو إلى التراث رغبته في الظهور بمظهر المطیع لتعليمات الخان الأعظم المنفذ لها .

=. ذكر دوسون أن هولاكو غادر الجهات المجاورة لقزوين قاصدا همدان في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ( مارس سنة ١٢٥٧ م ) وذكر رشيد الدين ( ترجمة كترمير ) أن هولاكو وصل همدان في ١٢ رجب سنة ٦٥٥ هـ ( يوليو سنة ١٢٥٧ م ) على أنجرى الحوادث على ما سترى فيما بعد يدل على أن هذه التواريخ غير صحيحة . إذ كيف تستطيع التوفيق بين هذه التواريخ وبين قول رشيد الدين نفسه فيما بعد ان وصول هولاكو إلى كرمانشاهان كان في ٢٧ من المحرم ؟ ان الأقرب إلى الصحة فيما أرى أن تكون مغادرة هولاكو للجهات المجاورة لقزوين وذهابه إلى همدان قد وقعت في أوائل المحرم ، وأن يكون سيره منها بعد العشرين من المحرم . وهذا هو الذي أخذت به في هذا الكتاب .

D'Ohsson, III, p. 207.  
Quatremere, p. 225.

(١)

(أ) دعوة الخليفة المستعصم الى التسلیم : وعلى كل حال، فقد كان أول ما قام به هولاكو في همدان هو أن أرسل إلى الخليفة المستعصم رسالة يعتب فيها عليه بسبب عدم امداده بالجندي عند محاربته للاسماعيلية ويدركه بأن المغول لم يهزموا قط ويدعوه إلى تجريد حصونه من السلاح والحضور شخصياً إليه أو إرسال الدفتردار الصغير وسلامان شاه نيابة عنه . ويقول له انه ان فعل ذلك ضمن حریته وحفظ مركزه وأن أى أحل بنفسه وبأهلة الدمار ؛ لأن جيوش المغول في تلك الحالة ستسرىء إلى بغداد وتستولي عليها منه لتختفه من عزه ولا تدع أحداً في قيد الحياة في جميع أرضه ، ويختتمها بقوله : « القمر يضيء فقط عندما تغيب الشمس فلا تدق مسماراً بقبضتك ولا تخطئ الشمس بنور الشيمعة أو تظن أنه يمكنك التوبة » (١) أي ان هولاكو اتبع في أول الأمر وصية الخان الأعظم مانجو فدعا الخليفة إلى اظهار ميوله الحسنة نحو المغول وتقديم خضوعه لهم وان أحاط كل ذلك بتهديدات تفصح عن كراهيته للخليفة ورغبتة في النيل منه .

وقد جاء رد الخليفة المستعصم على هولاكو شديداً وان حرص على صوغه في قلب من ، اذ دعاه إلى الاقلاع عن غروره والرجوع إلى خراسان وقال له : « أيها الشاب يا من بدأت بعياتك وشبكت وشربت كأس العن والحظ الحسن من عشرة أيام وجعلت نفسك تبعاً لذلك فوق العالم أجمع وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء ، كيف تطلب مني طلباً لا يمكنك تنفيذه ؟ أيغيل إليك أنك بذكائك وقوّة جيشك وشجاعتك ستتأسر نجماً من النجوم ؟ اتبع طريق الحسني وعد إلى

D'Ohsson, Tome III, pp. 215-217.  
Quatremere, pp. 231-233.

(١)

خراسان » (١) « وأخذ يذكره بمجد الخليفة الغابر وسلطنة الخليفة الحالية وانتشار نفوذه على جميع المسلمين ويقول له : « إن ملايين من الخيالة والرجالية على استعداد للحرب رهن اشارتي حتى اذا حللت ساعة الانتقام جفروا مياه البحر » (٢) ، كما أنه لم ينس في آخر الأمر أن يذكر أنه لا يريد حربا لأنه لا يود أن تقاضي رعيته من سير العبيوش « فكانت النتيجة أن هولاكو وجد فيه مبررا لتشدده ازاء الخليفة العباسية وتكملا لتنفيذ ارادته في سحقها ، ورأى أنه ان حارب الخليفة بعد أن ظهرت نوایاه السيئة وغروره القبيح لم يتخط الدائرة التي رسماها له مانجو « ويدلنا على ذلك أنه أرسل إلى الخليفة يقول : « إنك تركت نهيج آبائك فاستعد للحرب وانتظر جيشا قويا ، ولو أن الشيطان وضع عرقلة أمام خططى لانتصرت عليه بعون الله » (٣) .

لم يهتم هولاكو بعد ذلك ولم يدخل الرعب إلى قلبه حين وصله من قبل الخليفة المستعصم بدر الدين ديريكي وقاضي البندنيجين وأخذنا يقولان له ، إن كل من حاول فتح بغداد فشل ورجع بالخيبة ويضر بان له الأمثال بيعقوب بن الليث الصفار الذي سار لفتحها ولكنه مات ، وأخيه عمرو الذي أراد ما أراد أخوه ولكنه وقع في يد اسماعيل بن احمد الساماني أسيرا وأرسل إلى بغداد ليلاقي جزاءه ، والبساصيري الذي أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر ولكن طغرل بك السلاجوقى قضى عليه ، والسلطان محمد السلاجوقى الذي تقدم لغزو بغداد ولكنه عاد هاربا ومات في الطريق ، ومحمد خوارزمشاه الذي

D'Ohsson, Tome III, pp. 217-218.

(١)

Richard Coke, p. 141.

و

Quatremere, p. 335,

(٢)

Ibid, 233.

(٣)

سار لهذا الغرض ولكن البرد اشتد عليه ونزل الثلوج على جيشه واضطرب الى التقهقر بعد أن مات كثير من جنوده ثم لم يلبث أن مات هو نفسه في أحدى الجزر النائية في بحر قزوين (١) . نعم ، لم يتأثر هولاكو بهذه الأقوال ، بل ازداد عزمه قوة وتمثل لهما بقول الفردوسى في الشاهنامة « أقيموا حوله مدينة وسورا من الحديد وشيدوا حصنًا وحاجزا من الصلب . اجمعوا جيشا من الشياطين والجن وسيراوا بعد ذلك ضدى تحرقكم الرغبة في النار فساخضه ولو كان في السماء وسائل اليه رغم أنه ولو كان في معقل الأسد » (٢) ثم أخذ يعد العدة لمحاربة الخليفة المستعصم .

**(ب) الاستعداد للحرب :** ساءت العلاقات بين هولاكو والخليفة المستعصم ، ولم يكن لتبادل المراسلات بينهما من آثر سوى جعل الحرب ضرورة لابد منها ، وقد رأى هولاكو بثاقب نظره أن يستولى على الجهات الواقعة في طريقه إلى بغداد قبل أن يعزم على السير إليها . لهذا أرسل إلى حسام الدين اكه صاحب مدينة ديرتنك Dertenk وما جاورها من قبل الخليفة واستدعاه إليه وغمره بعطفه وحاول أن يضممه إليه ، ولما لم يأنس فيه الأخلاص له ورأه يميل إلى الرجوع إلى صف الخليفة استدعى قطبغا نوبيان من ايران الوسطى ثم كلفه بمحاربته فسوار إليه وقتلها واستولى على بلاده ثم رجع إليه منتصرا (٣) . ويلاحظ أن هولاكو لم يكتف بذلك ، بل أخذ يشير أحقاد الشيعة والمسيحيين ضد الغلافة العباسية (٤) .

D'Ohsson, Tome III, pp. 212-222.

(١)

Quatremere, p. 251.

و

Quatremere, p. 253.

(٢)

D'Ohsson, Tome III, pp. 222-224.

(٣)

Quatremere, pp. 255-259.

و

Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 142,

(٤)

وعندما تأكد هولاكو أن في امكانه السير إلى بغداد دون أن تتعارضه مصاعب ذات بال بدأ فيأخذ رأى الفلكيين على عادة المغول اذا قدموا على غزو أو عزمو على أمر مهم . أما الفلكي حسام الدين الذي أرسله الخان مانجو مع هولاكو وكان سنيا يعطف على الخليفة العباسى فقد حاول أن يتمنى هولاكو عن عزمه وأخذ يبين أن مشروعه يراد به فتح بغداد لن يعقبه خير ، وكان مما قاله : «الحقيقة انه حتى هذه اللحظة كل ملك تجاسر على السير ضد بغداد وأبناء العباس لم يبق له العرش ولا العيادة ، وإذا أبى الأمير أن يسمع لنصائحى وتمسّك بمشروعه فسينتيج عنه ست مصائب كبيرة ، أولاً - ستموت الخيول جميعها وتصيب الجنود أمراض مختلفة ثانياً - لن تطلع الشمس ، ثالثاً - لن يسقط المطر ، رابعاً - ستذهب رياح شديدة وسيعاني العالم من هزات الأرض ، خامساً - لن تخرج الأرض نباتاً ما ، سادساً - سيموت الخان الأعظم في هذا العام » . وقد كان في تحديده وقتاً لوقوع هذه الكوارث أكبر الخطأ لأن هولاكو اعتقله عنده حتى حل الوقت المعين ولما لم يحدث ما أشار به قتله (١) . وقد خالف الفلكي خوجه نصير الدين الطوسي حسام الدين وانضم إلى صف الأماء المغول الذين كانوا متسلكين بضرورة غزو بغداد وكانوا يرون أن حملة ضدّها مشروع من أنساب المشروعات . وعندما سأله هولاكو عن رأيه فيما قاله حسام الدين أجا به بأن شيئاً من الكوارث التي عددها لن يقع، وأكّد له أنه سيحكم مكان الخليفة . ويدرك لنا رشيد الدين (٢) أن نصير الدين الطوسي ذكر ما ذكره لأنّه خاف أن يتحققوا من كلامه ويفعلوا

D'Ohsson, Tome III, pp. 224-225.

Quatremere, p. 261.

Quatremere, p. 263.

(١)

و

(٢)

به ما فعلوا بحسام الدين ، أى انه يحاول أن يبرئه من وصمة تشجيع هولاكو على غزو بغداد . بينما يذكر لنا غير رشيد الدين من المؤرخين (١) أن نصير الدين فعل ذلك نكاية في الخليفة العباسى الذى كان يكرهه لاختلافه عنه فى المذهب الدينى ولأنه جاء مرة الى بغداد وقدم اليه قصيدة شعرية فلم يجزه عليها .

والواقع ، انى لا أجد فى سيرة نصير الدين الطوسي ما يبرئه من هذه التهمة ، فهو الذى كان سببا فى اقناع خورشاه بالتسليم لهولاكو ، هذا الى أن هولاكو عندما أحضر حسام الدين ليمناقش نصير الدين ويدافع أمامه عن رأيه أخذ نصير الدين يأتى بالحجج الدامغة للدلالة على كذب دعوى حسام الدين ، وكان مما ذكره أن كثيرين من أصحاب الرسول ماتوا فى الدفاع عن الدين ومع ذلك لم تقع كارثة ما وأن كثيرين من الناس خرجوا على بنى العباس ولم يلتحقهم آذى وجعل يمثل بطاهر قائد المأمون الذى قتل محمد الأمين وبالامراء الذين قتلوا المتكى والمتصدر والمعتز وغيرهم (٢) . فلو أن نصير الدين لم يكن يكره الخليفة وي يعمل على سقوطه أو لو أنه كما يقول رشيد الدين كان مضطرا الى تعبيذه المشروع ؛ لما وقف موقف المدافع عن الفكرة المحبذ لها الذى لا يتهماون فيها ولاكتفى بالقول بإنجاح المشروع دون أن يفتقد أقوال حسام الدين .

هذا ما قام به هولاكو استعدادا للحرب ، أما الخليفة المستعصم فعلى الرغم من أنه وافق الدفتردار الصغير وسليمان

D'Ohsson, Tome III, pp. 225-226.

(١)

Coke, Baghdad the City of peace, p. 142.

و

D'Ohsson, Tome III, p. 226.

(٢)

Quatremere, p. 263.

و

شاه على المقاومة (١) فإنه لم يقم بما يجب عليه لصد هذا الخطر المد لهم ولم يقم بعمل الاستعدادات الالزمة ، بل انه بعد أن أمر وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي بجمع الجنود وبعد أن نفذ الوزير أمره بعد مراوغة بلفت خمسة شهور عاد فنكص على عقبيه ولم يوزع عليهم شيئاً من ماله وعازدته طبيعة البخل المتعكمة فيه (٢) . وقد قيل انه كان ينتظر معاونة الهيبة ، كما ذكروا أنه كان ينتظر مساعدة أمراء المسلمين له كما قال له وزيره ابن العلقمي (٣) ، هذا وقد ذكر ابن العبرى (٤) « وكان اذا نبه على ما ينبغي أن يفعله في أمر التatars (كندا) اما المداراة والدخول فى طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجنيش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق ، فكان يقول أنا بغداد تكتفي ولا يستكشونها لي اذا نزلت لهم عن باقى البلاد ولا أيضا يهجمون على وأنا بها وهى بيتي ودار مقامي » . وعلى كل حال فإنه لزم خطة الجمود ولم يقم بعمل يستحق الذكر ولم تنزل عليه معاونة الهيئة ولم يخف الأمراء المسلمين لنجدته ، كما أن المغول لم يراعوا عواطفه ولم يفكروا في ترك بغداد له .

(ج) هسيير هولاكو الى بغداد : وضع هولاكو وهو بهمدان خطة السير الى بغداد ، وكانت هذه الخطة ترمى الى جعل بغداد فى وقت من الأوقات محاطة بجيشه من جميع النواحي على أن يكون هو فى القلب ، بينما يؤلف جورماجون وبيجونيان ومن معهما الجناح الأيمن ويدهبون الى الموصل عن طريق

D'Ohsson, Tome III, pp. 219- 220.

(١)

Ibid, p. 221.

(٢)

Quatremere, p. 248.

D'Ohsson, Tome III, p. 218.

(٣)

(٤) ابن العبرى ، ص. ٤٤٥ - ٤٤٦ .

أربيل ويعبرون جسر الموصل ويكونون فى وقت معين  
معسكرين غربى بغداد ، ويكون الجناح الأيسر مؤلفا من  
جيش كتبغا نويان بعد أن يخترق لورستان (١) .

وقد بدأ هولاكو سيره من همدان فى أواخر المحرم سنة  
١٢٥٥هـ ( أواخر يناير سنة ١٢٥٧ ) وأخذ معه من أمراء  
المغول كوكا الكا Kouka Ilka واركاتو Arkatou وآرجوناكا  
Argounaka ، ومن أمراء المسلمين آبا بكر سعد بن زنكى  
أتابك شيراز وبدر الدين نلؤ أتابك الموصل ، ومن الكتاب  
والعلماء قرطائى Karatai وسيف الدين وسكتيره عطا ملك  
الجوينى صاحب كتاب جهان جشا وخوجه نصیر الدين  
الطوسي (٢) . ولما وصل الى آسد آباد أرسل رسولا يدعوه  
الخليفة المستعصم الى المشول بين يديه ، ثم واصل سيره . وفي  
دينور لقيه رسول الخليفة شرف الدين عبد الله بن الجوزى  
برسالة كلها تهديد ووعيد وفيها يطلب الخليفة من هولاكو  
الرجوع ويعده فى مقابل ذلك بدفع جزية سنوية . وقد رد  
هولاكو هذا الرسول وقال له ساخرا : « لقد قطعنا طريقة  
طويلة فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة . اننا بعد أن نتشرف  
بالمشول بين يديه وبعد أن نتحادث معه سنسمع أوامره  
ونعود مباشرة » (٣) . ثم بعد ذلك استمر فى سيره  
وعبر يجيوشه الجبال الكردية حتى وصل الى كرمانشاهان فى  
يوم ٢٧ من شهر المحرم سنة ٦٥٥هـ .

Howorth, Vol. I, p. 199.

(١)

D'ohsson, Tome III, p. 227.

(٢)

Quatremere, p. 265.

و

Browne, Literary History of Persia' Vol. II, p. 460.

و

Dohsson, Tome III, p. 228.

(٣)

Quatremere, pp. 265-267.

و

صارت جيوش هولاكو في كرمانشاهان قريبة من قوات الخليفة التي كانت معسكرة في المكان الواقع بين بلدتي بعقوبا وباجسرا تحت قيادة مجاهد الدين أبيك الدفتردار الصغير وابن قره (١) . وأصبح التصادم بينهم أمراً لا بد منه . ولكن المغول حالوا دون هذا التصادم بكل الطرائق الممكنة لأنهم على ما يظهر كانوا يخافون عواقبه وقنعوا في أول الأمر بالعمل على تمزيق القوات الخلافية وذلك باستعماله الأتراك الموجودين فيها ، وقد استعملوا لهذه الغاية الأتراك الذين يعملون في صفوفهم ، معتقدين أن تأثيرهم على أبناء جنسهم لا بد أن يكون كبيراً ولكنهم فشلوا وأثبتت الأتراك الذين في صف الخليفة أنهم مخلصون له وأنهم عازمون على البقاء معه حتى النهاية ، وتجلى أخلاصهم في رد أحد هم المسئي قره سنقر الذي كان يقود مقدمة جيش الخليفة على كتاب أرسله إليه أحد الكشاف الأتراك في الجيش المغولي واسمه سلطان جوك Sultan Djouk . فقد كتب سلطان جوك يقول انه تركى مثله خضع لهولاكو فلم يلق منه الا كل خير ، ودعاه إلى الانضمام إلى هولاكو هو الآخر حتى يحتفظ بحياته وحياة أبنائه وأسرته ، ولكن قره سنقر رد عليه رداً شديداً قال له فيه ان كل من حاولوا فتح بغداد أو الاعتداء على الخليفة العباسى باعوا بالفشل ، وذكر له أن الخليفة عندما علم بسير هولاكو حنق وعزم على القضاء عليه ، ثم طلب منه اذا كان يريده سلماً أن يبدأ باقنانع هولاكو بالرجوع إلى همدان ووعده

بأنه فى هذه الحالة سيوسيط الدفتردار لاقناع الخليفة بالرضا بالسلم (١) .

اغتاظ هولاكو لهذا الفشل وكان مما قاله عندما علم بما رد به قوله سنقر : « ان قوتى قائمة على سيف الخالق وليس قائمة على الذهب والفضة ، وإذا أحببى الله وقانى فمن ذا الذى يخيفنى من الخليفة وجنته . ان ناظرى لا تختلف أمامه النملة والبعوضة والفيل أو النبع والنهر والبحر والنيل » (٢) . ولكن مع ذلك لم يجسر على أن يتبع طريق القوة بل أراد أن يراوغ الخليفة ويكسب الوقت فارسل اليه يقول : « اذا كان الخليفة عازما على التسلیم فليأت بنفسهلينا وإذا كان عازما على محاربتنا فليلرسل الوزير وسلیمان شاه والدفتردار قبل كل شيء ليصغوا الى مطالبنا» (٣) ثم أراد أن يتخلص من مقاومة جيوش الخليفة له بعد أن فشل في تمزيقها فاستدعى بييجونويان وسنچاك Soundjak وسنتوا وبغاٹیمور Sountoi على عجل وأمرهم بالاسراع الى عبور دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب (٤) . وكان النجاح حليفه ، لأن قوات الخليفة الممسكة بين يعقوبا وباجسرا عندما علمت بمهاجمة القوات المغولية لبغداد من النزب تحركت من مراكزها وعبرت نهر دجلة لتصدها وبذلك تركته حرا طليقا فسار حتى وصل شاطئ نهر حلوان في يوم ٩ من ذى الحجة سنة ٦٥٥ هـ (١٨ ديسمبر سنة ١٢٥٧ م) ثم عسكر في خانقين حتى يوم ٢٢ من الشهر نفسه ، ثم واصل

D'Ohsson, Tome III, pp. 228-229.

(١)

Quatremere, p. 269.

و

Ibid, p. 272.

(٢)

D'Ohsson, Tome III, p. 229.

(٣)

Quatremere, p. 279.

و

Quatremere, p. 267.

(٤)

سيره حتى عسکر شرقی بغداد فی يوم ١١ من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٨ يناير سنة ١٢٥٨م) (١) آی بعد سنة تقريباً من تركه همدان .

ويجب ألا ننسى هنا أن بيجونوبيان وزملاءه قاموا بهذا الدور تبعاً للخطة التي رسماها هولاكو لجيشه في همدان، وكل ما في الأمر أنه سيرهم في الوقت المناسب فرمي عصافورين بحجر واحد ، اد وصل آسوار بغداد الشرقية دون أن يلقي مقاومة كما وصلت جيوش بيجونوبيان وزملائه إلى بغداد الغربية .

وقد بذلت قوات بيجو نويان وزملائه مجهوداً كبيراً ؛ إذ أسرعت منذ دعاهما رسول هولاكو وقابلته في المكان المسمى طاق كسرى Tak-kesra ثم تلقت أوامره وأحرقت أكثار العيونات على عادة المغول ثم يممت شطر بغداد الغربية وعبرت نهر دجلة عند تكريت على جسر من القوارب أقامته في أربع وعشرين ساعة بعد أن قطع أهل تكريت الجسر الذي كان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد أقامه لعبورها . وسارت في معاذنة قناة دجيل حتى عسکرت على شاطئ نهر عيسى . وبعد أن استراحة من العداء الذي لاقتة طلب سنجاك من بيجو نويان أن يؤمره على مقدمة الجيش ثم سار حتى وصل قريباً من حي الحربية ، ولكن قوات الخليفة كانت قد عبرت نهر دجلة فلاقتها في ٩ المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٦ يناير سنة ١٢٥٨م) وهزمته بقرب الأنبار على بعد

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٢ .

تسعة فراسخ من بغداد واضطرته الى التقهقر والاسراع للانضمام الى قوات المغول التى تركها وراءه . وقد حدث بعد ذلك أن سارت قوات الخليفة متتبعة الجيش المنزه غير مكتفية بما أحرزته من نصر ، فاضطررت قوات بيجونوبيان وزملائه ازاء ذلك الى ملاقاتها ، ووقعت بذلك موقعة شديدة فى منطقة دجبل استغرقت مساء ٩ وصباح ١٠ من المحرم سنة ١٥٦ هـ (١٦ وصباح ١٧ يناير سنة ١٢٥٨ م ) . وعلى الرغم من أن قوات الخليفة أحرزت الغلبة فى مساء ٩ المحرم ، فان المغول نجحوا ليلا بسبب قطع أحد الجداول واغراق ما وراء معسكر الجيش العباسي . ويقول الديار بكري (١) ان أتباع الوزير ابن العلقمي هم الذين أغروا المعسكر ، كما يقول براون (٢) ، ان المغول فعلوا ذلك بمساعدة المهندسين الصينيين الذين أحضروهم معهم . وعلى كل حال ، فان المغول لم يهزموا هذا الجيش فى صباح ١٠ المحرم فحسب بل أنزلوا به الخسائر الفادحة أيضا ، فقتل من قواه فلاج الدين وابن قره وقره سنق ، كما قتل من جنده انتا عشر ألفا عدا من غرقوا وغطاهم الطين ، ولم ينج منهم الا من رمى بنفسه فى الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام أو الحلة أو الكوفة وكان الدفتردار الصغير من نجوا اذ تمكן من الوصول الى بغداد على رأس شرذمة صغيرة (٣) .

(١) الديار بكري - الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) Brown, Literary History of Persia, Vol. II, p. 461.

(٣) ابن العبرى ، ص ٤٧٣ والفرى ، ص ٢٤٦ .

D'Ohsson, Tome' III, pp. 228-230-232.

Browne, Literary History of Persia, Vol. II. p. 461.

و ملاحظة - كان عسكر الخليفة فى هذه الموقعة فى غاية القلة على ما ذكره صاحب الفخرى ( ص ٢٤٦ ) وعشرين ألفا على ما ذكره صاحب طبقاتي ناصرى ( براون - تاريخ فرس الآبى ج ٢ ص ٤٦١ ) ، بينما كان جيش بيجونوبيان وزملائه يريد على ثلاثين ألفا على ما ذكره صاحب الفخرى ( ص ٢٤٦ ) وثمانين ألفا على ما ذكره صاحب طبقاتي ناصرى ( براون ، ص ٤٦١ ) .

وعلى كل حال ، فقد كان انتصار القوات المغولية عظيماً مكنهم من دخول بغداد الغربية في ١٥ المحرم سنة ٦٥٦ هـ (٢٢ يناير سنة ١٥٢٨ م) والسيطرة على جميع أجزائها<sup>(١)</sup> .

هذا فيما يختص بالجناح الأيمن والقلب ، أما الجناح الأيسر الذي كان يقوده قطبيغا نوبيان فكل ما نعلم عنه أنه اخترق لورستان وتقدم حتى أصبح في يوم ١٥ المحرم سنة ٦٥٦ هـ عند صرصر (٢) .

**(٤) حصار بغداد :** إذا ذكرنا حصار بغداد فاننا نقصد حصار المغول لبغداد الشرقية ، وذلك لأن تلك المدينة الشرقية كانت مقراً الخليفة وحكومته كما أن أهل بغداد الغربية تدفقوا إليها منذ عبرت جيوش بييجو نوبيان وزملائهم نهر دجلة عند تكريت عازمة على غزو بغداد من الغرب ، ويقول صاحب الفخرى : وقد بلغ من شدة رغبتهم في الذهاب إليها أنهم

= وأحب أن أتبه في هذا المقام إلى أن برأون خطأ حين ذكر أن الجيش الذي كان يزيد على ثلاثين ألفاً هو جيش هولاكو لا جيش بيجونويان ، خالباً هذا الخبر إلى صاحب الفخرى (برأون ، ص ٤٦١) فقد رجعت إلى هذا الكتاب فلم أجده فيه شيئاً من هذا القبيل بل وجدت هذا النص « فلما وصل العسكر السلطاني إلى دجيل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس سرّج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أبيك الدريدار وكان عسكراً في غاية القلة فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريباً من البلد » وهو يبين بكل وضوح أن الجيش الذي كان يربو على ثلاثين ألفاً هو جيش بيجونويان وزملائهم الذي هاجم بغداد من الغرب لا جيش هولاكو الذي هاجمها من الشرق . ولابد أن برأون حين وجد ابن طباطبا يذكر أن العسكر السلطاني يربو على ثلاثين ألفاً ، ظننه عسكراً هولاكو وهو مدعور في ذلك لأن ابن طباطبا ذكر كلمة العسكر السلطاني قبل ذلك مرات وكان يقصد بها دائماً عسكراً هولاكي الذي هاجم بغداد من الجهة الشرقية .

D'Ohsson, Tome III, p. 232.

(١)

Quatremere, p. 281.

و

D'Ohsson, Tome III, p. 232.

(٢)

صرصر بالفتح وتكرار الصياد والراء وهو قريتان من سواد بغداد صرصر العلبة وصرصر السفلى وهو على خبطة نهر عيسى ٣٠٠ وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين (راجع لفظ صرصر في معجم البلدان للياقوت) .

كانوا يعطون الجذافين الذين ينقلونهم بقواربهم من ضفة دجلة الغربية الى ضفته الشرقية اسورة من الذهب وملابس سطرة من الذهب وعددا كبيرا من الدنانير (١) .

وقد احاط المغول ببغداد الشرقية منذ وصولهم احاطة السوار بالمعصم . فهو لا يكاد الذى وصل عن طريق خراسان عسكرا في وسط القوات التي توجد أمام الأسور الشرقية تجاه برج العجم ، بينما عسكر من الأمراء الذين كانوا يرافقونه الكا نوييان Ilka Noyan رفربا Ferba أمام باب كلواذى على يسار هولاكو ، وانضم اليهم قطبيغا نوييان الذى كان يكون بجيشه الجناح الايسر للقوات جميعها . على أن المؤرخين ، ومن بينهم هورث ودوسون ، لم يذكروا عند كلامهم على ترتيب الجيوش المغولية أثناء حصارها مدينة بغداد شيئاً عن انضمام قطبيغا نوييان إلى هذه القوات التي عسكرت أمام باب كلواذى ، ونستطيع أن نؤيد ما ذهبنا إليه مما ذكره هؤلاء المؤرخون في موضع آخر من آن الخليفة بعد أن خرج من بغداد نقل إلى معسكر قطبيغا نوييان أمام هذا الباب ووضع في خيمة . أما كولي Kouli وبليجا Boulga روتوكai Toutakai وشيرامون Shiramoun وأركيو Arkiou ، فعسكروا تجاه الجزء الأكبر من سور الشرقي بقرب باب السلطان على يمين هولاكو ، هذا بينما عسكرت جيوش بيجو نوييان وسنباك في محللة المستشفى العضدي كما عسكرت قوات بغاتيمور في محللة القرية ، وكانت بذلك جميعها تطل على بغداد الشرقية من الغرب وتحول دون وصول المدد إليها عن طريق نهر دجلة (٢) .

(١) الفخرى ، ص ١٤٦ .

D'Ohsson , Tome III , p. 230.

و

D'Ohsson , Tome III , p. 232, 239

(٢)

Quatremere , pp. 281-283, 299.

و

ولم تترك هذه القوات منذ اتخذت أماكنها حول بغداد فرصة تمر دون أن تستخدمنا في تقرير الغاية التي تسعى إليها وهي الاستيلاء على هذه المدينة ، فأقامت أمام أسوارها أسواراً أخرى موازية لها من الأتبة كما حفرت خندقاً بجانب المدينة ووراء هذه الأسوار ، وأتمت هذه الأعمال جميعها في أربع وعشرين ساعة وتمكنـت بذلك من فصل المدينة عما جاورها . هذا إلى أنها كونـت من الأنماض الموجـودة حول المدينة أـكواـما عـالـيـة - جعلـتها مقـاعـد لـقـاذـفـات الـأـحـجـار (الـعـرـادـات) وـآلاتـ الـنـفـطـ وبـذـلـكـ جـعـلـتـ المـديـنـةـ تـحـتـ رـحـمـتـهاـ . أـضـفـ إلىـ ذـلـكـ أـنـهـاـ عـنـدـمـاـ وـجـدـتـ آنـ العـجـارـةـ التـيـ تـحـتـاجـ إـلـيـهـاـ العـرـادـاتـ لـاـ تـوـجـدـ حـوـلـ بـغـدـادـ أـحـضـرـتـهـاـ مـنـ جـبـلـ حـمـرـينـ وـجـالـوـلاـ وـهـىـ أـمـاـكـنـ تـبـعـدـ عـنـ بـغـدـادـ شـمـالـاـ بـمـراـحلـ طـوـيـلةـ تـقـطـعـ فـيـ ثـلـاثـةـ أـوـ أـرـبـعـةـ أـيـامـ ، كـمـاـ أـنـهـاـ كـانـتـ تـسـتـعـيـضـ بـالـأـحـجـارـ عـنـ دـمـ وـجـوـدـهـ بـقـطـعـ مـنـ جـذـوعـ النـخـلـ . وـمـنـ الغـرـيبـ أـنـ الـجـيـوـشـ الـمـغـولـيـةـ لـمـ تـهـمـلـ النـاحـيـةـ الـعـنـوـيـةـ فـيـهـاـ وـفـيـ أـعـدـائـهـاـ ، فـكـانـتـ تـقـويـهـاـ فـيـ أـفـرـادـهـاـ بـعـثـمـ عـلـىـ الـعـمـلـ كـمـاـ سـنـرـىـ ، وـكـانـتـ تـضـعـفـهـاـ فـيـ أـعـدـائـهـاـ بـنـشـرـ عـوـاـمـ الـانـقـسـامـ فـيـ صـفـوفـهـاـ اـمـاـ بـرـمـيـ النـشـراتـ عـنـ طـرـيقـ تـشـبـيـتهاـ فـيـ سـهـامـ تـرمـيـهـاـ دـاـخـلـ الـأـسـوـارـ اوـ بـالـاتـصـالـ بـرـجـالـ مـنـ أـعـوـانـ الـخـلـيـفـةـ (١)ـ .

بدأ هجوم هذه القوات المغولية على الأسوار الشرقية في ٢٣ من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ (٣٠ يناير سنة ١٢٥٨ م) فضررت هذه الأسوار ضرباً شديداً في جميع نقطتها ،

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

D'Ohsson Tome III, pp. 232, 234.

و

Howorth, Vol I, p. 199.

و

Quatremere, pp. 283-285.

و

ويلاحظ أن عدد الأبراج التى كانت تقوم على هذه الأسوار كان يبلغ مائة وثلاثة وستين وكان من أهمها برج العجم . وقد ظل الضرب عدة أيام متواصلة ثم أخذ أثره فى الظهور فى يوم ٢٥ المحرم ( أول فبراير ) حين تصدع برج العجم أمام هجمات فرقة هولاكو ، كما ظهر هنا الاشارة أيضاً فى يوم ٢٩ المحرم ( ٥ فبراير ) حين استولت هذه الفرقة نفسها على الشغرة التى أحدثتها بالقوة . ثم اشتد حماس القوات المغولية المواجهة لباب السلطان على أثر لوم هولاكو لها على تكاسلها ، فهاجمت السور المواجه لها واستولت عليه وأصبح بذلك جميع السور الشرقي فى قبضة المغول . وما تجنب ملاحظته أن المغول حين كانوا يهاجمون السور الشرقي لجأ هولاكو إلى اضعاف الروح المعنوية فى أهل بغداد فى الوقت الذى قوى فيه الروح المعنوية فى جنوده ، وقد استعمل لهذا الغرض نشرات ثبتها فى سهام رمى بها داخل الأسوار وفيها يقول : « ليتأكد القضاة والعلماء والشيوخ والشيعة والتجار وكل من لا يحمل سلاحاً ضدنا أنتا سنصون حياتهم (١) » .

وبعد أن سيطر المغول على الأسوار الشرقية أرادوا أن يجعلوا أشرافهم على الجهة الغربية تماماً ; حتى لا يتمكن أحد من المحاصرين أن يجد له مهرباً وحتى لا يترك الباب مفتوحاً أمام أهل بغداد ليستمدو العون من خارجها ، فأمر هولاكو باقامة جسرين من القوارب المسلحة على نهر دجلة شمالي

(١) ابن العبرى ، من ٤٧٤ .

D'Ohsson. Tome III, pp. 233-234.

و

Howorth, Vol. I p. 199.

و

Quatremere, pp. 183-289.

و

Coke, Baghdad the City of Peace, p. 147.

و

Osborn, Islam Under The Caliphs of Baghdad, p. 392.

و

بغداد وجنوبها ، كما أمر باقامة حواجز من الأتربة على شاطئ النهر ووضع العرادات عليها ، هذا الى أنه أمر بوضع قوات تشرف على الطرق الموصلة الى البصرة وعهد الى بفاتيمور ومعه عشرة آلاف بحراسة طريق المدائن ، وكانت هذه الاحتياطات التي اتخذها المغول في محلها . اذا ان الدفتردار الصغير حين رأى أن المغول يضيقون الدائرة على بغداد أراد أن يقنع الخليفة بالفرار عن طريق قناة دجبل والفرات فلما أخفق عول على الهرب وحده وسار في مجلة نحو الجنوب ؛ ولكن القوات المغولية رده بوابل من الحجارة وبمقذوفات النفط بعد أن استولت على ثلاثة من القوارب التي كانت ترافقه وبعد أن فقدته كثيرة من أتباعه (١) . وعلى كل حال ، فان حلقة الحصار أصبحت كاملة حول بغداد ولم يبق أمامها الا طريق واحد هو التسلیم .

(ه) سقوط بغداد : منذ تجمعت القوات المغولية حول بغداد وبدأت في حصارها ، أحسن الخليفة المستعصم بالله الخطر الكبير الذي يهددها وبدأ يفكر في انتهاها . وقد اتبع لهذه الفاجة طريقة استعماله هولاكو واسترضائه ، فأرسل في أول الأمر وزير ابن العلقمي وأمره بأن يقول لهولاكو باسمه : «طلب مني الأمير المغولي ارسال وزيري وهأنذا اليوم أقتتنع بما طلب مؤملاً أن يحفظ الأمير كلمته » . وقد رمى بذلك إلى اقناع هولاكو بارسال الوزير إليه والرجوع من حيث أتى . وكان مع الوزير بطريق نساطرة بغداد أرسله الخليفة عندما علم بأن لهولاكو زوجة مسيحية . ولكن هولاكو رد عليه بقوله : « عندما وعدت هذا الوعد ( وهو الرجوع اذا

D'Ohsson, Tome III, p. 235.

(١)

Quatremere, p. 291.

و  
و

Coke, Baghdad the City of Peace, p. 146.

أرسل الخليفة وزيره) كنت لا أزال تحت أسوار همدان ، أما الآن وأنا أغسّكِر أمّا ببغداد وقد أصبح بحر المشاكل والعداوة في أشد الهيجان كيف أكتفي باستقبال أحد كبار رجال الدولة . يجب أن يرسل الخليفة رؤساء حكومته الثلاثة الوزير والدفتردار وسلامان شاه » . وفي اليوم التالي أرسل الوزير وتسبعة من حاشيته وعدداً من أشهر كبار رجال بغداد؛ ولكنه لم يصل إلى غرضه أيضاً وردهم هولاكو دون أن يغيرهم أي اهتمام (١) . ولما ضيق المغول الخناق على بغداد وحاصروها من جميع جهاتها ولم يمكنوا الدفتردار من الهرب كما تقدم فكر الخليفة مرة أخرى في استئصاله هولاكو وأرسل فخر الدين الدامغاني وابن درنوش ثم ابنه الأوسط آبا الفضل عبد الرحمن وكثيراً من رجال حكومته يحملون الأموال الكثيرة . وفي اليوم الثالث الموافق آخر المحرم سنة ٦٥٦هـ (٢ فبراير سنة ١٣٥٨م ) أرسل الخليفة ابنه الأكبر ومه الوزير وعدد من أشهر رجال العاشية ولكن هولاكو لم يسمع لهم وردهم جمِيعاً وفداً بعد الآخر يجررون أذيال الخيبة والفشل وطلب من الخليفة إرسال الدفتردار الصغير وسلامان شاه ، وهكذا لم تفلح الطرائق التي اتبَعها الخليفة لاستئصاله هولاكو نهائياً (٣) .

(١)

D'Ohsson, Tome III, pp. 233-234.

و

Howorth, Vol. I, p. 199.

و

Quatremere, p. 283.

و

(٢)

D'Ohsson, Tome III, pp. 235-236.

و

Howorth, Vol. I, p. 200.

و

Quatremere, p. 295.

و

وقد خالف ابن العبرى (من ٤٧٤) المؤرخين السابقين حين ذكر أن الدفتردار عاد من الطريق بحجَّة أنه يرجع ويمنع المقاتلين في الdroوب والأزقة ؛ لئلا يقتلوا أحدهما من المغول .

فهم الخليفة فشلها هذا وعرف في الوقت نفسه أن هولاكو مصمم على اتباع طريق العنف فبادر إلى اجابة طلباته حتى يسلم من أذاه على الأقل وأرسل إليه في أول صفر سنة ٦٥٦هـ (٧ فبراير سنة ١٥٢٨م) الدفتردار الصغير وسلامان شاه فكان ذلك أول خطوة في سبيل التسلیم . ولكن هولاكو رأى أن الفرصة سانحة وأن في إمكانه أن يصل إلى درجة أبعد فأعاد الدفتردار الصغير وسلامان شاه إلى المدينة وطلب منهما الرجوع إليه ومعهما أتباعهما ، ولما عادوا إليه ومعهما الأتباع الذين خرجوا من المدينة على أمل السير إلى سوريا أمر بالأتيا فوزعوا على الجندي المغولي وقتلوا أقطع قتلة ثم قتل الدفتردار الصغير وأبنه كما قتل سليمان شاه بعد أن أنبه على مسلكه ، وكان مما قاله له : «وأنت يا من تعرف سير النجوم ( فقد كان فلكيا ) وما يقع من خير وشر لم لم تعرف يوم مصرعك وتنصوح سيدك وتدعوه إلى المسالمة » ثم أرسل رئيس الشلاتة إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصديق سليمان شاه ليعلقها في مجلسه (١) . وهكذا ، لم يحل تساهل الخليفة دون وقوع الكوارث المتواالية برجاته ورعايته .

ويجب أن نلاحظ أن قتل سليمان شاه والدفتردار وأتباعهما كان له أثر كبير في سوريا الأمور فيما بعد ، ولم يقتصر هذا الأثر على تصرفات أهل بغداد أزاء المغول بل تعدى ذلك إلى تصرفات الخليفة نفسه . أما أهل بغداد فقد دب الرعب في قلوبهم على أثر هذا الحادث وطارت نفوسهم شعاوا ، فأخذ فريق منهم يختبئ في المفارقات وفي أفران الحمامات كما خرج بعض كبارائهم من المدينة ليعرضوا تسلیمهما على هولاكو وليردوا بأن الخليفة أراد بارسال أولاده أولاً أن يحضر

Howorth, vol. I, p. 200, D'Ohsson, Tome III, pp. 236-238.  
(1) Quatremere, p. 295.

بشخصه بعد ذلك . وقد ذكر ابن العبرى (١) أن الدين خرجوا من بغداد فى هذه المهمة هم شرف الدين المزراوى وشهاب الدين الزنکانى وأن أهل بغداد هم الذين أرسلوهم . ولم يسمع لهم هولاكو ولم يجب طلبتهم ، خصوصاً عندما أصابت سهم طائرة خارجة من داخل المدينة عين سكريته هندو ، بل أمر نصير الدين الطوسى أن ينصب خيامه أمام باب الحلبة ليستقبل من يسلم منهم ثم لم يلبث حين تجمع منهم عدد كبير أن أمر بقتلهم (٢) .

أما الخليفة المستعصم ، فقد تسرّب الخوف إلى نفسه على أثر قتل الدفتردار وسليمان شاه وأتباعهما ولم يلبث حين رأى هولاكو يقتل من خرج إليه من أهل المدينة ، أن تحقق مصير بغداد وأهلها ، ورأى أن كل شيء لابد ضائع ، خصوصاً وأنه أراد أن يستعين بالوزير فلم يجد منه معيناً بل وجد منه مثبطاً لهمة ودخله للیأس في نفسه . وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قال له عندما سأله عما يصنعه في هذا الموقف :

يظلون أن الأمر سهل وإنما  
هو السيف حدت اللقاء مضار به

ولذلك لم يجد الخليفة بدا من تسليم نفسه إلى عدوه وخرج من بغداد يوم الأحد ٤ من صفر سنة ٤٥٦ هـ ( ١٠٣ ) هـ ( ١٢٥٨ م ) ومعه أولاده الثلاثة أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك وثلاثة

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٤ .

D'Ohsson , Tome III , p. 237., Quatremere , p. 397.,  
Osborn , Islam Under the Caliphs of Baghdad , p. 393.

آلاف شخص من السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة وسلم نفسه إلى هولاكو (١) .

أدى تسليم الخليفة المستعصم إلى سقوط بغداد في أيدي المغول ، وذلك لأن هولاكو منذ رأه أراد أن يتخد هذه آلته لتحقيق هذا الفرض فقا به بالترحاب وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم ، فأجابه الخليفة إلى ذلك وأرسل رسولاً من لدن نادى في طرقات بغداد على الناس أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار ، ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو المغول فانقضوا عليهم وقتلوهم (٢) .

ولم يكتف هولاكو بذلك بل أمر بردم الخنادق وازالة أسوار المدينة كما أمر بنصب جسر على دجلة ، ولما تم له ذلك أمر القوات المغولية في شرق بغداد بدخول المدينة من الشرق ، كما أمر القوات المخونية الموجودة على الشاطئ الغربي بعبور الجسر ودخول المدينة من الغرب ، فدخلوها في يوم ٧ من صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٣ فبراير سنة ١٢٥٨ م) ووزعوا أنفسهم على محلاتها وظلوا فيها أسبوعاً تاركين لأنفسهم العنوان ؛ فخرموا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبية وهدموا القصور بمقدار أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية النادرة وخرموا المكاتب وأتلفوا الكتب التي بها إما باحراقها أو برميها في دجلة كما قتلوا معظم أهل المدينة

(١) ابن العبرى ، ص ٤٦٥ .

D'Ohsson, Tome III, p. 238.

و

Howorth, Vol. I p. 200.

و

Quatremere, p. 299.

و

D'Ohsson, Tome III, p. 238.

(٢)

Howorth, Vol. I p. 200.

و

Quatremere, p. 299.

و

دون أن يستثنوا امرأة أو طفلاً ودون أن يعطفوا على مريض أو يقدروا عالماً (١) . وكان استهتار المغول بالنفوس بالغاً (شده فقتل اثنان منهم ناعاً حملًا بما جمعا من الأسلاب رجلاً قابلهما في الطريق وشقاً جوفه لا شيء إلا ليتخذه أداة لحمل ما معهما كما دخل أحدهم زقاقاً وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهااتهم قتلن من قبل (٢) . ولذلك فان المؤرخين يبالغون في تعداد الأنفس التي أزهقوها حين دخلوا بغداد ، فمنهم من قدرها بـ ميليون وثمانمائة ألف نفس (٣) ومنهم من قدرها بـ ميليون نفس (٤) وفريق ثالث قدرها بـ ثمانمائة ألف نفس (٥) بل وهناك من قدرها بألفي ألف نفس (٦) . وما لا شك فيه أن المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة ، كما أن الشروة الأدبية والفنية التي سهر على جمعها خلفاء بنى العباس منذ اتخاذها عاصمة لهم ضاعت وأصبحت آثراً بعد عين (٧)

**هذا ولم ينفرد جنود المغول دون رئيسهم بارتکاب ما ارتکبواه من الفظائع ، بل ان هولاکو شاركهم وزاد عليهم**

(١) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر . ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

D'Ohsson, Tome III, pp. 239, 241.

و

Howorth, Vol. I, p. 200.

و

Quatremere, p. 301.

و

Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 401.

و

Richard Cike, Baghdad the City of Peace, p. 146.

(٢)

(٣) الذهبي - دول الاسلام ج ٢ ، ص ١٢٢ والديار بكري - الخميس ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٤) فوات الرفيفات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ والسيوطى - تاريخ الخلفاء . ص ١٨٩ .

D'Ohsson, Tome III, p. 241. Howorth, Vol. I, p. 200. , (٥)

Coke, Baghdad, p. 148. Browne, Lit. Hist. Vol. II, p. 463. و Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 463. (٧)

(٦) المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك . ج ١ ، ص ٤١٠ .

فدخل بغداد الشرقية حين دخلوها وأقام معسكره في محلة المأمونية حتى إذا كان يوم ٩ صفر سنة ٦٥٦ هـ ( ١٥ فبراير سنة ١٢٥٨ م ) ذهب هو وأمراؤه إلى قصر الخليفة المستعصم الذي كان يرافقهم ونهبوا وأذلوا صاحبه وقتلو الانفس البريئة التي تقييم فيه ، وكان سلوك هولاكو في ذلك اليوم سلوكاً سيئاً تتجلّى فيه قلة الذوق والوحشية اذ بدأ عمله بأن طلب من الخليفة أن يقدم له وأمرائه ما يليق بهم وهم ضيوف في قصره ولما أتى له بالفسيفساء عشرة آلاف قطعة ذهبية وبعض الأحجار الكريمة وحلبها من أصناف مختلفة ، أخذها منه بازدراع وقدمها إلى أتباعه وقال له : « ان الكنوز التي تملكها والتي توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها وهي تحت تصرفى وتصرف أتباعى ، إنما ما نريد هو أن تظهر لنا ثروتك المدفونة وتبين لنا موضعها » ولما أخبره الخليفة أن في وسط القصر جرة مملوقة بالذهب أمر بالعفر في الموضع الذي عينه . وقد وجدوا بها عدداً كبيراً من القطع الذهبية التي تزن الواحدة منها مائة مشقال . هذا إلى أنه جرد القصر من سبعمائة جارية كانت به وألف خصي ولم يدع للخليفة إلا مائة جارية فقط من هذه الجواري .

أما في اليوم التالي ، فقد أرسل سنجاك أحد القواد المغول الذين كانوا في صحبة بيوجو نويان عندما هاجم بغداد من الفرب إلى القصر فجمع ما به من ثروة اقتناها الخلفاء العباسيون في مدة خلافتهم الطويلة وعاد بها إلى حيث وضعت حول خيمة هولاكو فصارت كجبل قائم (١) .

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٥ .

D'Ohsson, Tome III, pp. 239-240.

و

Quatremere, pp. 301-303.,

و

ولم تقف اعمال هولاكو انقايسية عند هذا الحد ، بل انه بعد ذلك بعده أيام (١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ) = (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) وفي الوقت الذي أمر فيه جند المغول بالدف عن أعمال النهب والقتل في بغداد على أثر مقابلته لوفد ممن يقى في قيد الحياة من اهلها ، على راسه شرف الدين المراغي وشهاب الدين ابن نجاشي ، ارتكب أكبر جرائمها بقتله الخليفة المستعصم وولده الأكبر أبا بكر وخمسة من خصيه انه المخلصين الذين لم يتركوه عندما نزلت به المصائب ودان ذلك في قرية وقف ، في مساء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) (١) .

وقد كتب عن مسألة قتل الخليفة المستعصم كثير من مؤرخي العرب والفرس والفرنجة ، ويظهر الخلاف بينهم حين يتناولون تحديد تاريخ هذا القتل أو طريقة " شالمورخون من العرب يذكرون أن القتل حدث في المحرم سنة ٦٥١هـ دون أن يحددواليوم الذي قتل فيه (٢) بينما الفرس يذكرون أنه حدث مساء يوم ١٤ من صفر سنة ٦٥٦هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) وعنهم يأخذ الفرنجة (٣) . ويظهر الخلاف بين هؤلاء المؤرخين كذلك في الطريقة التي قتل بها الخليفة ، فيقول بعض مؤرخي العرب انه قتل رفسا ويقول البعض انه وضع في عدل ورفس حتى مات ، كما يذكر البعض الآخر أنه خنق ، ويقول غير هؤلاء ان جسمه

D'Ohsson, Tome, III, pp. 241-242.  
Quatremere, p. 308.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 200

و

(٢) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ . والخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٣)

D'Ohsson, Tome III, p. 242. Howorth, Vol. I, p. 201.

Quatremere, p. 305.

و

منق اريا ، كما يذكر غيرهم أنه لف في بساط والقى في دجلة (١) . أما مؤرخو الفرس والأرمن ومن أخذ عنهم من مؤرخي الفرنجية ، فقد ذكروا عن الطريقة التي قتل بها الخليفة أن هولاكو وضع أمامه شيئاً من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وطلب منه أن يأكلها اذا أراد بعد أن وضعه في حجرة مغلقة (٢) . وعلى كل حال ، فإن هذه المسألة غامضة ولعل غموضها يرجع إلى أن هولاكو أخفى عن الناس قتل الخليفة ردها من الزمن فلم يقفوا على الطريقة التي لقى بها حتفه ، أو إلى أن هذا الحادث كان شديداً الوقع على المؤرخين من العرب فادهشهم وحال بينهم وبين تدوينه ، وقد جاء هذا الرأي في كتاب ثغورات الوفيات حيث ذكر ما نصه « توثى الخليفة في أواخر المحرم سنة ١٥٦هـ وما أظنه دفن وكانت الأمر أعظم من أن يوجد من يؤرخ موته أو يسوارى جسده » (٣) .

هذا وقد اعتمدت عند الكلام على حوادث الحصار المغولي على التواريخ التي ذكرها مؤرخو الفرس ومن أخذ عنهم من الفرنجية ، وأن كانت لا تتفق مع التواريخ التي ذكرها مؤرخو العرب ، وذلك لأنها تتفق وحوادث الفتح ولأن مؤرخي العرب لم يحددوا التاريخ الذي وقعت فيه هذه المأساة للسبب الشي أدل لنا به ابن شاكر .

أما فيما يختص بطريقة قتل الخليفة ، فلا أرى داعياً إلى الأخذ برأى دون رأى ، وحسبى أننى تعرضت لذكر هذه الآراء على اختلافها .

(١) أبو الفدا ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ وثغورات الوفيات ج ١ ص ٢٣٧ و الخمس ج ٢ ص ٤٢٠ وتاريخ الخلفاء ، ص ١٨٩ .

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 244-246. Coke, Baghdad, pp. 151-152.  
Browne, Literary History of Persia, vol. II, p. 463.

(٣) ثغورات الوفيات ، ج ١ ص ٢٣٧ .

ولم يكن قتل هولاكو للخليفة المستعصم راجعا الى كراهة شخصية ، بل كان للتخلص منه باعتباره عدوا سياسيا كان فى بقائه فى قيد الحياة خطر كبير ، يهدد نفوذ هولاكو وسلطانه فى بلاد العراق . لذلك نجده يأمر فى اليوم التالى بتعقب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعا ، ويقال انه ظف ببغيته هذه ولم ينج من أفراد هذه الأسرة المنكوبة الا أصغر أبناء الخليفة واسمه مبارك شاه ، وكان ذلك بناء على طلب زوجة هولاكو وقد أرسل الى الشرق حيث تزوج من مغولية ، وامن نجا أيضا ابنة الخليفة التى أرسلت الى الخاقان مانجو والتى يقال انها عندما وصلت الى سمرقند استأذنت المرافقين لها فى ان تزور قبر قشم بن العباس (١) ولما أجابوها الى طلبها وقفت على القبر وقالت : « ربى ، اذا كان لقشم بن العباس عندك قدر فاقبض عبدتك اليك ونجها من أيدي هؤلاء الناس » واستجاب لها ربها وسقطت على القبر ميتة (٢) .

وكانت واقعة بغداد وقتل الخليفة من اعظم الواقع ، قال الشيخ شمس الدين الكوفي يذكر خراب بغداد وينوه بقتل الخليفة وأسرته :

عندى لأجل فراقكم آلام  
فalam أعنذر فيكم والألم  
من كان مثل للحبيب مفارق  
لا تعذرلوه فالكلام كلام

(١) هو قشم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم اخو عبد الله بن العباس ، خرج مع سعيد بن عثمان الى عقان الى سمرقند فاستشهد هناك ( الاصابة فى تمييز الفضاحية لابن حجر المthoni سنة ٨٥٢ ، ج ٥ ، خ ٢٣١ )

D'Ohsson , Tome III , pp. 244-246. Coke , Bagdad , p. 151. (٢)

قف في ديار الطاعنين ونادها  
 يا دار ما صنعت بك الأيام  
 يا دار أين الساكنون وأين  
 ذياك البهاء وذلك الاعظام  
 يا دار أين زمان ربكم مونقا  
 وشعارك الاجلال والاكرام  
 يا دار مذ أفلت نجومك عمنا  
 والله من بعد الضياء ظلام  
 فلبعدهم قرب الردى ولفقدتهم  
 فقد الهدى وتزلزل الاسلام  
 فمتى قبلت من الأعدى ساكننا  
 بعد الأحبة لا سقاك غمام

كما ذكر أيضا يرثى أهلها (١) :

ان لم تقرح أدمى أجفاني  
 من بعد بعديكمو فما أجفاني  
 انسان عيني مذ تناءت داركم  
 ماراقه نظر الى انسان  
 ما للمنازل أصبحت لا أهلها  
 أهلى ولا جيرانها جيرانى

وحياتكم ما حلها من بعديكم  
غير البلى والهدم والنيران  
مالى آردد ناظرى ولا أرى  
الأحباب بين جماعة الاخوان

وبعد أن استولى الجيش المغولى على بغداد ونهبها وقتل سكانها وبعد أن قتل هولاكو الخليفة وأعوازه وأفراد أسرته، أصبح الأمر في هذه المدينة لهولاكو . ولذلك نجده في نفس اليوم الذي تخلص فيه من الخليفة يعين الحكام فيها وفيما جاورها من البلاد، فيجعل على بهادر حاكما عليها ويحتفظ لابن العلقمي بالوزارة و يجعل فخر الدين الدامغاني صاحب الديوان ويسلم أحمد بن عمران ادارة المناطق الواقعة شرق بغداد ، ويعين نظام الدين عبد المؤمن قاضيا للقضاء (١) .  
هذا وقد كان في عدم ذكر الخليفة في الخطبة في يوم الجمعة التالي لوقوع بغداد في أيدي المغول (٢) اعتراف ضمني بالأمر الواقع زاده تأكيدا تلوك الفتوى التي أصدرها علماء الشريعة الاسلامية في الاجتماع الذي عقدوه في المدرسة المستنصرية ، حيث طرح عليهم هولاكو هذا السؤال : «أيهما أفضل : السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم العاجس؟»، وأفتوا بأن الكافر العادل يجب أن يفضل على المسلم الجائز (٣) \*

وأحب أن أنه في هذا المقام بأن علماء المسلمين حين وأفتوا بأن الكافر العادل يجب أن يفضل على المسلم

D'Ohsson, Tome III, pp. 248-248.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 201.

و

Quatremere, p. 309.

و

D'Ohsson, Tome III, pp. 250-254.

(٢)

Ibid, pp. 254-255.

(٣)

نصلحة القوى تحت ضغط الخوف ولم يكن موقفهم هذا فريداً في بايه ، بل ان التاريخ يوضح لنا أن الناس دائمًا يميلون مع القوة على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ومراكلهم ، والا فكيف نفس موقف البابا زخارياس *zacharias* حين أرسل اليه بيبيين *Pippin* ابن شارل مارتيل *Charle Martel* حاجب قصر الفرنجة وصاحب الأمر والنهاي في المملكة يستفتته فيمن يجب أن يكون ملكاً : فهو صاحب اللقب الذي لا قوة عنده ألم صاحب القوة الذي لا يحوز لقباً ؟ ورد عليه بأن صاحب القوة يجب أن يحوز اللقب أيضاً ويصبح ملكاً . وبذلك شجعه على خلع آخر ملك من الفرع الميروفنجي *Merovingians* الذي أسسه كلودويج *Cloduiq* ملك الفرنجة المتوفى سنة ٥١١ م والقضاء على حق موروث بالقوة القاهرة سنة ٧٥١ م (١) .

ولو أن هولاكو لم يكن مطمئناً إلى أن بغداد قد أصبحت في قبضة المغول نهائياً ، لما رفع مسكنه من جوار قرية وقف في يوم الجمعة ٣٠ من صفر سنة ٦٥٦ هـ ( ٨ مارس سنة ١٢٥٨ م ) ليصل بعد نحو خمسة أيام ( ١١ ربيع الآخر = ١٧ أبريل ) قرب همدان ، غير تارك في بغداد سوى ثلاثة آلاف فارس مغولى على رأسهم الكانويان وقره بقا *Cara Boca* (٢) .

(و) اتمام فتح العراق : بعد فتح بغداد لم تبق أمام المغول أية مقاومة في العراق ، وقد ذكر لنا المؤرخون أن أهل حلة من الشيعة أرسلوا إلى هولاكو وهو يحاصر بغداد

Thatchor & Schwill, A General History of Europe, Vol. I, 42. (١)  
D'Ohsson, Tome III, pp. 248, 256.  
Quatremere p. 309. (٢)

يقدمون خصوّعهم ويلتمسون ارسال حاكم عليهم من قبله ويذكرون له أن الأحاديث التي تناقلوها عن الامام على والأئمة الاثني عشرية تؤكد نجاحه في القضاء على الخليفة العباسى . وينذكر المؤرخون أيضاً أن هولاكو أجابهم إلى ما طلبوا وأرسل إليهم بفاتيمور زوج اخته على رأس قوة مغولية حتى يتأكد من اخلاصهم ، وأنهم قابلوه بالترحاب وأقاموا على الفرات جسراً عبر عليه هو ومن معه إلى بلدتهم . وقد اقتتنص بفاتيمور هذه الفرصة ليخضع جنوب العراق لسلطان المغول فسار إلى واسط وحاصرها بقواته في ١٧ صفر سنة ٦٥٦ هـ (٢٣ فبراير سنة ١٢٥٨ م) . ولما قاومته فتحها بالقوة وقتل الكثريين من أهلها ، وقد ذكروا أن عدد القتلى بلغ أربعين ألفاً . وبعد ذلك استولى على تسر والبصرة وغيرها من البلاد . ثم رجع إلى بغداد في ١٢ ربيع الأول من نفس السنة ، بعد أن أتم فتح العراق العربي وانضم إلى القواد الذين تركهم هولاكو في بغداد (١) .

D'Ohsson, Tome III, pp. 254-256.

(١) ...

Howorth, Vol. I, p. 202.

Quatremere, p. 311.

### الفصل الثالث

## موقف أهل بغداد من الفتح

رأينا فيما تقدم أن أهل بغداد كانوا طوائف مختلفة ، منهم أهل السنة الشيعة والنصارى واليهود ، كما رأينا أن لكل طائفة ميولا خاصة بها ومركزها يختلف عما لسوها . وسنرى فيما يلى أن موقف كل طائفة من هذه الطوائف ازاء غارة المغول اختلف تبعا لميلها ومصالحها . أما أهل السنة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من الأهلين فقد دافعوا دفاع المستميت خوفا على نفوذهم ، وأما من كان يجد فى الحالة الراهنة عبئا عليه فقد اقتتنص هذه الفرصة ليحرر نفسه من القيود ويتخلص من هذا العبء . والآن سنتناول الكلام بشيء من الإيجاز عن موقف كل من هذه الطبقات .

### ١ - موقف أهل السنة

كانت هذه الطائفة هي صاحبة الأمر فى بغداد لأن مدنهما هو مذهب الخليفة العباسى صاحب الأمر والسلطان وكانت تعتبر سقوط بغداد سقوطا لها وضياعا لنفوذها ؛ لذلك كانت هي التى وقفت أمام المغريين وهى التى لاقت من ظلمهم الشيء الكثير . وقد كان رأس هذه الطائفة الخليفة المستعصم وأتباعه الدفتردار الصغير وسلامان شاه . وإذا

أردنا أن ندرس موقف هذه الطائفة وجب أن نتكلّم عن موقف كل من هذه الشخصيات الثلاث لأن الجميع كانوا يسيرون وراءهم ويأتّصرون بأمرهم .

(أ) الخليفة المستعصم : أما الخليفة المستعصم فكان تقىاً طيب القلب إلا أن آفته كانت في ضعف إرادته وانقياده لاتباعه وتردداته ، وهو من هذه الوجهة كلويس السادس عشر والتبعة التي تقع عليه في سقوط بغداد كالتتبعة التي تقع على لويس السادس عشر في قيام الثورة الفرنسية . فكما أن آباء لويس السادس عشر أورثوه فيما أورثوه له عوامل الثورة الفرنسية ، كذلك أورث الخلفاء السابقون عوامل ضعف الدولة العباسية وانهيارها للمستعصم . وكما أن لويس السادس عشر ارتكب بضعف إرادته وتردداته وانقياده للملكية ماري أنطوانيت والأشراف أغلاطاً جرت عليه الثورة من الشعب وقد انقلب ملوكه وحياته ، كذلك المستعصم بانقياده للدفتردار الصغير وسليمان شاه وبضعف إرادته جر على نفسه وعلى الاسلام الدمار . ولو أنه نفذ نواياه وجرب على خططه اختطها لكان من الجائز أن تتخذ الحوادث مجرى غير الذى سلكته . فقد كان من أول الأمر – وعندما وصل إليه خطاب هولاكو يعتبر عليه فيه عدم مساعدته له ضد الاسماعيلية ويدعوه إلى التسلیم – يتافق مع وزير ابن العلقمي في ضرورة مسالمة المغول واستسلامهم بالمال ، ولكن لم يلبث غير قليل حتى عدل عن رأيه هذا بسبب تردداته وانقياده واتبع رأي الدفتردار الصغير وسليمان شاه الذي يقضي بمقاومة المغول . ولذلك نجده يرسل خطابه الثاني المملوء بعبارات التهديد إلى هولاكو ، ثم يتبع سياسة العداء ويقدم بذلك إلى هولاكو تكتأة يعتمد عليها في تبرير خططه التي ترمي إلى القضاء على

الدولة العباسية أمام الغان الأعظم مانجو الذي أوصاه بعدم  
محاجمة الخلافة العباسية إلا إذا وقف الخليفة منه موقف  
العداء والعرب كما تقدم .

ولو أن الخليفة المستعصم كان قوى الارادة حازما لما  
ضره أن يأخذ برأى الدفتردار وسليمان شاه الذي كان يقضى  
بضرورة المقاومة ، لكنه وقد عرف بالطيبة والضعف والبغل  
قد أخطأ خطأ عظيما حين اتبع مشورتهما . ويتجلى ذلك من  
جري المحادث ، فقد أمر الوزير وهو لا يزال متھمسا لفكرة  
الدفتردار وسليمان شاه بجمع الجناد استعدادا للاقاء المغول ،  
ولكنه بعد ذلك حين عاد إلى حالته الطبيعية وأخبره الوزير  
بأنه قد جمع الجناد وأنهم ينتظرون توزيع الأموال عليهم  
عاد فأهمل أمر التعبئة ولم يتكون الجيش اللازم لصد  
الأعداد (١) . أضاف إلى ذلك أنه بمثيله إلى الحسل وضيق  
نظره كان يضيع الفرص إذا واتته ، وليس أدلة على صحة  
ما نقول من أنه لم يحرك ساكنا حين أخذ هولاكو يمهد الأهمـ  
ل فهو بغداد واستعمال حسام الدين حاكم مدينة ديرتنك وما  
جاورها . وعلى الرغم من عمل حسام الدين هذا للتقارب من  
الخليفة وتکليفه ابن صلايا صاحب أربيل بالتوسط بينهما ،  
فإنه لم يطلب للأمن وأضاع هذه الفرصة الذهبية – فرصة  
کسب صاحب ديرتنك الذي كان في مقدوره أن يقف في  
 وجه المغول ويحول دون مواصلتهم السير إلى بلاده ولو  
إلى حين (٢) .

D'Ohsson, Tome III, p. 221.

(١)

Quatremere, p. 249.

و

D'Ohsson, Tome III, pp. 222-224.

(٢)

Quatremere, pp. 255-257.

و

كذلك كان من اثر تردد الخليفة وضعف ارادته ضياع حياته ، لأنه حين استولى المغول على الأسوار الشرقية وأمر هولاكو باقامة جسرین على دجلة شمالى بغداد وجنوبها وبذلك ضيق على بغداد الخناق ، عرض الدفتردار عليه فكرة الفرار عن طريق قناة دجليل والفرات ولكنه لم يبيت في الأمر ، مما جعل الدفتردار يفكر في الفرار وحده على ما ذكرنا سابقا ، هذا الى أن تباطؤ الخليفة وبقاءه في بغداد في الوقت الذي كان فيه المغول يشددون في حصارها كان معناه ضرورة تسليمه لهم في يوم من الأيام مادام لا يبدى نشاطا يستحق الذكر .

**(ب) الدفتردار الصغير :** كان الدفتردار الصغير رجلاً آنانيا يعمل لصالحته ، وقد اتبع طرائق شاذة حتى نال الحظوة عند الخليفة وأصبح أمره نافذاً في شؤون الدولة ، فجمع الأمواس والعيازين حوله وأخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة ويأتي بالأعمال المنكرة . ولكن موقفه أزاء الفتح لا غبار عليه . فقد سار من أول الأمر على رأس جيش الخليفة لانتظار هولاكو على حدود العراق الشرقية وصده عند التزوم ، وعسكر بين بعقوبا وباجسرا ، ولكنه رجع بهذه القوات قبل ملاقاة هولاكو عندما علم بأن بييجو نويان وزملاءه قد عبروا دجلة عند تكريت ويئموا شطر بغداد الغربية ، ولاقي جماعة من المغول وعلى رأسها سنجاك وهزمهم عند الأنبار ثم تبعهم حتى منطقة دجليل حيث دارت بينه وبين قوات بييجو نويان وزملائه معركة انتصر فيها أولاً ولكنه اضطر إلى الفرار والرجوع إلى بغداد ، حين علم بأن المغول قد لجأوا إلى الحيلة وأغرقوه معسكره ليلاً (١) .

D'Ohsson, Tome III, pp. 230-232.  
Quatremere, p. 281.

(١)

وقد ظل الدفتردار الصغير ببغداد الشرقية حتى ضيق هولاكو عليهما الخناق ففكوا في الفرار ، وبعد أن فشل في اقناع الخليفة بالفرار معه دبر أمر الفرار وحده وسار عن طريق دجلة جنوبا ولكن المغول كانوا قد اتخذوا العيطة فأحبطوا عمله (١) . ولو أنه نجح في الفرار ، لكان من المحتمل أن يجمع جيشاً لمناورة المغول في غير بغداد ، ولكن فشله قد جعل خضوع العراق أمراً محتوماً بعد سقوط بغداد .

وقد تبع ذلك خروج الدفتردار مع سليمان شاه في أول يوم من صفر سنة ٦٥٦ هـ وذهب إلى هولاكو تنفيذاً لأوامر الخليفة ثم قتله هو وأبنه في اليوم الثاني على ما ذكرنا .

(ج) سليمان شاه : لا يختلف دور الذي قام به سليمان شاه عن الدور الذي قام به الدفتردار الصغير ، فقد كان سليمان شاه رجلاً عسكرياً أقنع الخليفة بضرورة مقاومة هولاكو ، وكان مما قاله له انه مستعد للدفاع عن البلاد ضد المغول ، وإن « أعن شيء للرجل الشجاع أن يموت وسط القتال » ، ولذلك عينه الخليفة قائداً للجيش وكل إليه أمر الدفاع (٢) . وقد اشتراك مع الدفتردار الصغير في الوقائع التي تقدمت الاشارة إليها كما قتل على يد هولاكو في يوم ٢ من صفر سنة ٦٥٦ هـ وقتل معه سبعمائة من أتباعه .

## ٢ - موقف الشيعة

أما الشيعة فكان موقفهم أزاء الفتح من أسوأ المواقف ، لم يراعوا معاملة العباسين لهم بالحسنى طوال مدة خلافتهم

Ibid, pp. 291-293.

(١)

D'Ohsson, Tome III, p. 235.

ر

D'Ohsson, Tome III, p. 220.

(٢)

Quatremere, p. 244.

و

ولم يراغوا أن العراق وطنهم يجب الدفاع عنه أمام غارة المغرين . وقد حاول بعض المؤرخين من الشيعة أن يدافعوا عن موقفهم الشاذ ويجد لهم عذرا فذكر أنهم ثاروا لأنفسهم مما حل بهم من البلاء في الفتنة التي وقعت ببغداد سنة ٦٥٥ هـ على أيدي أهل السنة ورجال الشرطة الذين هاجموا محلات الشيعة وارتکبوا كثيرا من الجرائم . ولكنني لا آجد في هذا ما يبرر عملهم . وأرى في الوقت نفسه أن أهل السنة وإن كانوا قد بطشوا بهم بعض البطش فليس ذلك ببالغ معاشر ما ارتكبه الشيعة في أيام الدولة البويمية الشيعية ، فقد قال هلال الصابيء : « كانت طائفتهم ( يقصد طائفة الشيعة ) قد أسرفت بالتبسط والسلط وركوب المنكرات واتيان المحظورات » (١) .

بدأت نوايا الشيعة في الظهور عندما رأوا قوات المغول تطوق بغداد . فقد بذلوا كل ما في استطاعتهم لمساعدةهم في هجومهم كما أن المقيمين منهم في حلة أرسلوا إلى هولاكو وهو يحاصر بغداد وفدا يحمل رسالة يذكرون فيها أنه لا بد منتصر على الخليفة ، طبقاً لحديث أثر عن الإمام علي والأئمة الأخرى عشرية ويطلبون منه أن يعين حاكماً عليهم ، وقد أجابهم إلى ما طلبوا وأرسل إليهم بفاتيمور أخي أولجاي خاتون زوجته ليتبين حقيقة ميولهم ، فقابلوه بالترحاب وأقاموا له جسراً على نهر الفرات ، كما كافأهم على مسلكهم هذا فوضع بناء على طلبهم مقابر على والحسين تحت حراسة مائة جندي مغولي ، في الوقت الذي قام فيه المغول بأعمال التدمير والنهب في بغداد (٢) .

(١) هلال الصابيء - ذيل النيل لتجارب الأمم ، ص ٢٣٩ .

Quatremere, p. 311. Coke, Baghdad, p. 149. (٢).  
Howorth, vol. I, p. 202. D'Ohsson, Tome III, p. 255.

وقد جاء في كتاب الخميس ما يأتي : « وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد من أن التتار يبدلون السيف في أهل السنة فجاء بخلاف ما أراد وبدلوا السيف في أهل السنة والرافضة كلهم (١) » كما ذكر ابن شاكر الكتبى (٢) في معرض كلامه على الوزير مؤيد الدين بن العلقمي أيضاً « حكى أنه كان جالساً بالديوان فدخل عليه بعض التتار من ليس له وجاهة راكباً فرسه فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخطبه بما أراد وبالفرس على البساط وأصاب الشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهراء يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده ، وقال له بعض أهل بغداد يا مولانا انت فعلت هذا جميعه حمية وحميت الشيعة وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلقاً (كذا في الأصل وصحتها خلق) لا يحصى وارتكتب الفواحش مع نسائهم ، فقال بعد ان قتل الدوادار (الدفتردار) ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك» . ومعنى ذلك أن الشيعة قد حل بهم في أثناء الاضطرابات ما حل بأهل السنة ، وهذا بعيد لا أصدقه خصوصاً إذا علمنا أن ميدان نظائع المغول كان بغداد الشرقية التي لم يسكنها الشيعة ، كما نعلم أنه حين دخل المغول بغداد الغربية وتحول أهل السنة إلى بغداد الشرقية ظل هؤلاء الشيعيون في أماكنهم ولم يبرحوها . وليس من المعقول أن تكون العلاقة بين هؤلاً كرو والشيعة على ما ذكرنا في أثناء الحصار ثم لا يحميهم من جنده وهو الذي أرسل مائة من جنسوده لحماية قبر من يتذمرون له ، كما أنه هو الذي عين فخر الدين الدامفاني صاحب الديوان ببغداد ونظام الدين عبد المؤمن قاضياً لقضاياها وهما من الشيعة . وعلى كل حال، فإنه إذا كان قد

(١) الخميس ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) فرات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

حل بالشيعة عنت ما ، فإنه لابد أن يكون قليلاً بالنسبة لما حل  
بأهل السنة .

(أ) موقف الوزير ابن العلقمي : . ومما يوضح هذا  
الموقف الذى وقفته الشيعة ما فعله مؤيد الدين بن العلقمي  
وهو كما نعلم من أكبر الشخصيات البارزة فيهم . فإنه على  
السرغم من أنه كان وزير الخليفة المستعصم لم يسلم من  
وصمة الخيانة ولم ينزعه كثير من المؤرخين عما فعله غيره من  
الشيعة . وسنحاول فيما يلى أن نفصل الكلام عن آراء المؤرخين  
فى موقف ابن العلقمي من الفتح المفouلى لبغداد ثم ندل  
برأينا بعد ذلك .

١ - المؤرخون الذين يتهمون ابن العلقمي بالخيانة  
وأقوالهم : تنقسم المراجع الأصلية التى تكلمت عن الوزير  
مؤيد الدين محمد بن العلقمي إلى قسمين أحدهما يحمل  
أصحابه وهم من الفرس والعرب على السواء على الوزير  
حملة شديدة ويتهمونه بالخيانة ولا يكادون يتذكرون شيئاً  
فى سبيل الصاق هذه التهمة به . وهؤلاء يدينون بعقائد  
المذهب السنى الذى يختلف عن المذهب الشيعى الذى يدين  
بعقائده الوزير ، وهم فى الوقت نفسه كثيرون ، وليس من  
عجب فى ذلك اذا علمنا أن العصر الذى تلا سقوط بغداد كان  
لا فيه كتاب الا وعليه هذه العبارة : « لعن الله من لم يلعن ابن  
العلقمى » . ومن بين هؤلاء المؤرخين ابن شاكر فى كتابه فوات  
الوفيات وأبو الفدا فى كتابه المختصر فى أخبار البشر والذيار  
بكرى فى كتابه الخميس فى أحوال أنفس نفيس وابن خلدون  
فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر المشهور باسم تاريخ

ابن خلدون والسيوطى فى كتابه *الخلفاء والمقبس* يزى فى كتابه *السلوك* لمعرفة دول الملوك والحافظ شمس الدين الذهبي فى كتابه دول الاسلام ، وهؤلاء كلهم من مؤرخي العرب(١) . ومنهاجى سراج صاحب كتاب *طبقاتى ناصرى* وميرخند ووصاف العضرة الدين كتبوا فى حكم أحد المغول وهم من الفرس

ويتلخص رأى أصحاب هذا الفريق من المؤرخين فى رمى ابن العلقمى بالتهم الآتية :

**أولاً :** أنه حد المغول على الاستيلاء على بغداد . وفي ذلك يقول المقريزى (٢) : « انه استجر التتار حتى كان ما كان » ، ويقول أبو الفدا (٣) : « انه أرسل الى التتر أخيه يستدعىهم » ، بينما يذكر ابن خلدون (٤) أن الوزير أوصى ابن الصلايا صاحب أربيل وهذا أرسل كتابا الى هولاكو وهو في طريقه الى قلعة الموت يستحثه للمسير الى بغداد ويسهل عليه أمرها . أما ابن شاكر (٥) ، فقد أظهر الوزير بمظاهر الماكر الغادر حيث يقول : « انه لما كان يكاتب التتار تحيل الى أن أخذ رجلا وحلق رأسه حلقا بلينا وكتب ما أراد عليه بالابر ونفخ عليه الكحل وتركه عنده الى أن طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه وقال اذا وصلت من هم بحلق رأسك

(١) يمكننا ان نضيف الى هؤلاء القلقشندي فقد ذكر في كتابه *صبح الاعشى* ج ٣ ، ص ٢٧٧ أن الوزارة ظلت في الدولة العباسية حتى انقضت بقتل التتار المستعصم سنة ٦٥٦ هـ ثم قال « وزيره يومئذ مؤيد الدين بن الطقطي وقتله هولاكو ملك التتار بعد قتل المستعصم لمالاته على المستعصم مع التتار » غير أن القلقشندي متاخر كما انه يخالف جميع المؤرخين في قوله ان هولاكو قتل ابن العلقمي .

(٢) المقريزى - *السلوك* ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

(٣) أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ، ص ٥٤٢ .

(٥) خوات الوفيات ج ١ ، ص ١٥٢ .

ودعهم يقرون ( هكذا ) ما فيه » ولم يهمل الذهبي الصاق هذه التهمة بالوزير فذكر (١) : « أنه أخذ يكاتب التتار ويراسلونه وال الخليفة غافل » .

ثانياً : انه مهد لانتصار المغول بأن أقنع الخليفة بانقاص الجند ودعاه الى بذل المال المتوفى من ذلك في استمالة المغول ، وقد قال الدياري بكرى (٢) : « فان وزيره ( يقصد وزير المستعصم ) ابن العلقمي الرافضي كان كتب كتاباً الى هولاكو ملك التتار في الدشت ( هكذا ) أنك تحضر الى بغداد وأنا أسلّمها لك » . وكان قد داشر قلب اللعين الكفر ، فكتب هولاكو أن عساكر بغداد كثيرة فان كنت صادقاً فيما قلته وداخلا في طاعتنا فرق عساكر بغداد ونحن نحضر . فلما وصل كتابه الى الوزير دخل الى المستعصم وقال ان جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة والمددو قد رجع من بلاد العجم والصواب انك تعطى دستور الخمسة عشر ألفاً من عساكرك وتتوفر معلومهم » فأجا به المستعصم لذلك ، فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاه من بغداد ومنعهم من الاقامة بها ، ثم بعد شهرين فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفاً من الديوان ، ثم كتب الى هولاكو بما فعل . وقال السيوطي (٣) عند كلامه على الخليفة المستعصم : « وكان أبوه المستنصر قد استكشـر من الجنـد جـداً وـكان مع ذـلك يصـانـع التـتـارـ ويـهـادـنـهـ وـيرـضـيـهـ ، فـلـمـاـ اـسـتـخـلـفـ الـمـسـتـعـصـمـ كـانـ خـلـيـاـ مـنـ الرـأـيـ وـالـتـدـبـirـ فـأـشـارـ عـلـيـهـ »

(١) دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٢) الخيس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٣) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .

الوزير بقطع أكثر الجندي وأن مصانعة التتار وأكرامهم يحصل به المقصود . ففعل ذلك » . ولم يخالفهم المقريزى (١) بل قال انه قطع أرزاق الجندي .

ثالثا : ولم يكتف أفراد هذا القسم الأول بالصاق التهمنتين السابقتين وهما مراسلة التتار واستدعاؤهم لفتح بغداد ثم التمهيد لهم بانقاص جيش الخلافة ، بل أضافوا إلى ذلك تهمة أشد ورموه في الصميم حين ذكروا أنه عندما استجاب المغول دعوته وجاءوا إلى العراق أخذ يساعدهم ضد الخلافة العباسية التي يتولى وزارتها بشتى الطرائق ، فمن ذلك أنه كان اذا جاء خبر من التتار كتمه عن الخليفة وكان يطالع بأخبار الخليفة التتار (٢) » . هذا إلى أنه أرسل أتباعه ليلاً فقطعوا دجلة وأغرقوا معسكر الدفتردار الصغير (٣) وبذلك مكنوا المغول من الانتصار في منطقة دجبل بعد أن هزموا في الأنبار . وأهم من ذلك أنه أقنع الخليفة بالخروج من بغداد ومقابلة هولاكو كما أخرج منها كثيرا من العلماء وكان بذلك سببا في قتلهم وتسليم بغداد ، وفي ذلك يقول أبو الفدا (٤) : « وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم و قال إن هولاكو يبيقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر ، وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة ، ثم استدعي الوزير الفقهاء والأمثال فاجتمع

(١) المقريزى - السلوك - لعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .

(٣) الدياري بكرى - الخميس في أحوال أنس نقيض ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٤) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

هناك جميع سادات بغداد والمدرسوں وكان بينهم محيي الدين ابن الجوزی وأولاده ، وكذلك بقى يخرج الى التتر طائفة بعد طائفة ، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم » . وذكر السيوطي (١) أيضا : « لما دخلت سنة ٦٥٦ هـ وصل التتار الى بغداد وهم مائتا ألف ويتقدمهم هولاکو ، فخرج اليهم عسكر الخليفة فهزم العسكر ودخلوا بغداد يوم عاشوراء ، فأشار الوزير - لعنه الله - على المستعصم بمصانعتهم وقال أخرج اليهم أنا في تقرير الصلح ، فخرج وتوثق لنفسه منهم وورد إلى الخليفة وقال إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ويبقيك في منصب الغلافة كما بقى صاحب الروم في سلطنته (كذا) ولا يريد إلا أن تكون الطاعة له كما كان من أجدادك مع السلاطين السلاجوقية وينصرف عنك بجيشه فليجب مولانا إلى هذا فان فيه حقن دماء المسلمين ويتمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريده ، والرأي أن تخرج إليه . فخرج إليه في جمع من الأعيان فأنزل في خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأمثال ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضررت أعناقهم » . ولم يختلف ما ذكره الديار بكرى أو الذهبي (٢) في ذلك عما تقدم .

هذا ولم يغفل هؤلاء المؤرخون عن ذكر بعض الأسباب القوية التي دفعت مؤيد الدين محمد بن العلقمى الى هزة الخيانة . ومن تلك الأسباب حنق الوزير على الخليفة المستعصم لتقديمه الدفتردار الصغير عليه وغل يده بعد أن كان متصرفا في جميع الشئون . وقد أدى ابن شاكر بهذا

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء . من ١٨٦ .

(٢) الديار بكرى - الخميس ج ٣٠ من ٤٢٠٠ ، والذهبي - سلسلة دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

السبب (١) ولم يكتف بذكره مجردا ، بل حاول أن يزيد في أهميته وذكر أن المغول بعدما نالوا ما يريدون عاملوا الوزير بمعاملة سيئة وأن الناس ذكروا ذلك للوزير فقال لهم : « بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك » كما أتى أيضا بشعر ونسبة إلى الوزير محاولا أن يثبت أن الوزير أحسن بضياع نفوذه وأنه غضب له ،وها هي الأبيات :

وزير له من بأسمه وانتقامه  
بطى رقاع حشوها النظم والنشر  
كما تسجع الورقاء وهي حمامه  
وليس لها نهى يطاع ولا أمر

وقد ذكر السيوطي (٢) ما يثبت أن الوزير كان يأمل رجوع نفوذه على أيدي المغول ، حيث قال : « ان الوزير كاتب التتار وأطماعهم في البلاد وسهل عليهم ذلك وطلب أن يكون نائبهم فوعده بذلك » .

وهناك سبب آخر ذكره المؤرخون هو انتقامته لطائفته الشيعة لما نزل بها من أعمال الظلم والعنف على أثر فتنه قامت بينها وبين أهل السنة سنة ٦٥٥ هـ وتدخل ابن الخليفة أبو بكر والدوادار وأمروا الشرطة فنهبوا الكرخ محلة الشيعة وأساءوا إلى الأهلين ، وقد ذكر هذا السبب أبو الفدا والديار بكري . أما أبو الفدا فقال عند كلامه على سنة ٦٥٦ هـ (٣) : « في أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكتها في العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم يا الله ، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي

(١) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .

(٣) أبو الفدا - المختصر ، ج ٣ ص ٢٤٢ .

كان رافضيا وكان أهل الكرخ أيضا رافض ، فجرت فتنه بين السننیة والشیعہ ببغداد على جاری عادتهم ، فأمر أبو بکر ابن الخليفة ورکن الدین الدوادار العسکر ، فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوها منهن الفواحش ؛ فعظم ذلك على الوزیر ایش العلقمی وكاتب التتر وأطعمهم فی ملك بغداد » . وقال الديار بکرى (١) : « وفي سنة خمس وخمسين وستمائة ثارت فتنه مهولة ببغداد بين السننیة والرافضة أدت الى نهب عظیم وخراب وقتل عدّة من الرافضة فغضب لها وتنمر ابن العلقمی الوزیر وجر التتار على المراق ليشتفي من السننیة » .

وهناك سبب ثالث يضاف الى هذین السببین هو رغبة ابن العلقمی فی ازالة الخلافة العباسیة واقامة خلافة علویة محلها . وقد ذکر الذھبی (٢) أن : « ابن العلقمی الرافضی جهد أن يزيل دولة بنی العباس ويقيم علویا » . كما ذکر الديار بکرى (٣) : « وكان قصد الوزیر بمجيء هولاکو أشياء منها أنه كان رافضیا خبيشا وآراد أن ينقل الخلافة من بنی العباس الى العلویین » . وقال السیوطی (٤) أيضا : « رکن المستمصم الى وزيره مؤید الدین العلقمی الرافضی فأهلك الحرج والنسل ولعب بالخليفة كيف آراد وباطن التتار وناصحهم فی المجيء الى العراق وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسیة ليقيم خلیفة من آل على » .

واذا كنا قد ذکرنا آن میرخند ووصاف الحضرۃ ومنهاجی سراج من ضمن افراد هذا القسم الأول الذى يتهم الوزیر

(١) الديار بکرى - الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) الذھبی - دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٣) الديار بکرى - الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٤) السیوطی - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٦ .

ابن العلقمي بالخيانة ، فلييس ذلك منا الا اعتقادا على ما ذكره بعض مؤرخي الفرنجة ، اذ ان سيد أمير على (١) يذكر أن ميرخند ووصاف الحضرة من ضمن المؤرخين الذين يرون أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي كان خائنا كبيرا ، كما أن براون (٢) يذكر لنا أن منهاجي سراج صاحب كتاب طبقاتى ناصرى اتهم الوزير بالخيانة ويصمه بأنه أنقص قوات الخليفة وأقنعه بالتسليم لهولاكو ويرجع ذلك الى طمعه ورغبتة فى الانتقام لطائفته مما حل بها على أيدي ابن الخليفة الأكبر من العنت والارهاق ، ويستعمل أشنع الأوصاف اذا ما تكلم عنه وينزل عليه أشد اللعنات . ولم ينس دوسون أن يذكر لنا شيئا يوضح رأى وصف الحضرة فى الوزير ، ومن ذلك ما نقله عنه من قوله (٣) « أخطأ ابن العلقمي فى حسابه حين ظن أنه سيحوز حكومة بغداد لأن ابن عمران هو الذى حاز هذا المركز وضم اليه ابن العلقمي لذلك أخذ هذا يعدل عن سياسته التى تنطوى على الخيانة بعد أن رفض طاعة الخليفة وأصبح تابعا لحاكم بعقوبا » . كذلك ذكر دوسون رأى ميرخند فى الوزير بقوله ان ما ذكره ميرخند لا يختلف الا قليلا عما ذكره الذبهى ، بعد أن بين هذا يرى أن الوزير كاتب التتار وجرهم الى بغداد بعد أن أنقص جند الخلافة وأقنع الخليفة بعد ذلك بالتسليم (٤) . وعلى ذلك ، فان آراء وصف الحضرة وميرخند ومنهاجي سراج والتهم التى يرمون بها الوزير لا تخرج عما ذكرنا حين لخصنا آراء مؤرخى العرب .

Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 396.

(١)

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 464.

(٢)

D'Ohsson, Tome III, p. 252, Note I.

(٣)

Ibid, p. 253, Note, I.

(٤)

٢ - المؤرخون الذين يبرئون ابن العلقمي وأقوالهم :

أما القسم الثاني من المؤرخين فلا يتهم أفراده مؤيد الدين بن العلقمي بالخيانة ، بل يحاولون أن يظهروه بمظهر الوطني الغيور ، فمنهم ابن طباطبا صاحب الفخرى في الآداب السلطانية ورشيد الدين الذي ترجم كترمير Quatremere Hist-des Mongols جزءاً من كتابه جامع التواريخ وسماه تاريخ المغول . وقد سلك هؤلاء المؤرخين طريقاً يختلف كل الاختلاف عن الطريق الذي سلكه الأولون . فابن طباطبا يذكر بصرىح العبارة ما يأتي عند كلامه على ابن العلقمي : «ونسبة الناس إلى أنه خامر، وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة ( يقصد دولة الخانات فارس ) فان السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير ( ابن العلقمي ) وأحسن إليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه » . ويروى ابن طباطبا بعد ذلك هذه الحكاية ، زاعماً أنها تبرئ الوزير (١) : « حدثني كمال الدين أحمد بن الضعاك وهو ابن أخت الوزير مؤيد الدين بن العلقمي قال : لما نزل السلطان هولاكو على بغداد أرسل يطلب أن يخرج الوزير إليه . قال : فبعث الخليفة فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه فقال له الخليفة : قد أنفذ السلطان يطلبك وينبغي أن تخرج إليه . فخرج الوزير من ذلك وقال : يا مولانا اذا خرجت فمن يدبر البلد ومن يتولى المهام ؟ فقال له الخليفة لا بد من أن تخرج . قال : فقال : السمع والطاعة . ثم مضى إلى داره وتهيأ للخروج ثم خرج ، فلما حضر بين يدي السلطان وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان وكان الذي تولى تربيته ( كذا في الأصل ولعلها

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ، من ٢٤٨ - ٢٤٩ .

ترتيبه بمعنى ادخاله على السلطان للمثول بين يديه كما يفعل الامناء في الوقت الحاضر ) في الخضراء السلطانية الوزير السعيد نصیر الدين محمد الطوسي - قدس الله روحه - فلما فتحت بغداد سلمت اليه والي على بهادر الشحنة فشكث الوزير شهورا ثم مرض ومات رحمة الله في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة « .

أما رشيد الدين (١) فيتكلم عن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي باعتباره رجلا مخلصا ي يريد للخلافة كل خير ولكنه يخالف غيره من أتباع الخليفة فيرى ضرورة مساعدة المغول واستئصاله هولاكو بمال ، ويذكر من أقواله : « ببذل المال يمكننا أن نتغلب على منافس كهذا » ولذلك دعا الخليفة المستعصم - بعد أن تسلم خطاب هولاكو الثاني الذي أرسله إليه من همدان يدعوه إلى الاستعداد للحرب - إلى تقديمihil العربية المطهمة إلى أمراء هولاكو وارسال الرسل العقلاء لكتابه هذا إلى التسليم بالخطبة له وصك العملة باسمه . وقد كان الدفتردار الصغير وسلامان شاه قائد جند الخليفة يريان غير رأيه في ضرورة مقاومة المغول بالقوة ، ولذلك ترى رشيد الدين يذكر في أكثر من موضع ، أن الدفتردار الصغير هو الذي اتهم الوزير بمصالحة المغول ، من ذلك ما ذكره أن الوزير ابن العلقمي أخبر الخليفة بما كان يدبره الدفتردار وأعوانه من المؤامرات والمكاييد ، حتى ان الخليفة استدعي الدفتردار وسأله عن حقيقة تلك المؤامرات ثم أمره بالاقلاع عنها ، فقال له الدفتردار ان « الوزير رجل مضلل أقصته نزغات الشيطان عن الطريق المستقيم ، وأدى به عقله المظلم إلى مساعدة

هولاكو والجيش المغولى . ولقد حاك المكائد ضدى حتى يحول الشكوك التى تحوم حوله . ولا شك أنه عدو الخليفة وأنه يتآمر لمصلحة هولاكو ، حتى انهم يتبادلان الجواسيس والأخبار بعضهما مع بعض » . ومن ذلك أيضا ما ذكره نفس المؤلف عند كلامه على الوقت الذى أعقب المراسلات بين هولاكو وال الخليفة فقد قال : « فى هذه الفترة كان الدفتردار عدو الوزير وأعوانه الذين كانوا من عامة الشعب ومن المشاغبين فى بغداد يقولون ، ان الوزير على اتفاق مع هولاكو خان وانه يرغب فى نصرة هذا الأمير وفى ضياع الخلافة ويعمل على تدبیر مؤامرة ترمى الى تحقيق سياسته» . وعلى كل حال ، فان رشيد الدين لا يظهر أقل شك فى سيرة الوزير بل ويحاول أن يوهم القارئ بأنه رجل يعمل على إنقاذ الخلافة من محنتها وأن الخليفة ظلممه حين قرب الدفتردار الصغير وجعل له الكلمة النافذة فى الوقت الذى شل فيه يد الوزير ابن العلقمى .

٣ - مجهود الفرنجة فى بحث موقف ابن العلقمى : الآن وقد انتهينا من سرد آراء أصحاب المراجع الأصلية من عربية وفارسية فى الحكم على الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى وجب علينا أن نذكر آراء مؤرخي الفرنجة المحدثين فى هذا الموضوع . ومن الغريب أن نجد هؤلاء المؤرخين الذين لم يدعوا موضوعا الا وكشفوا عن مجاهله حين يتكلمون فى هذا الموضوع لا يأتون بجديد ، بل يخرجون منه كما دخلوا فيه ، ثم لا يسعهم الا الاقرار بأن الباب مازال مفتوحا للبحث والتنقيب .

وقد يكون أسبيرن Osborn صاحب كتاب الاسلام في عهد خلفاء بغداد أقل مؤرخي الفرنجة اهتماماً بهذا الموضوع؛ لأنه اذا ما تكلم عنه ظهر لنا اقتناعه بخيانة الوزير ابن العلقمي فسرد ما قاله أصحاب القسم الأول فيه من انه دعا المغول للقضاء على الخلافة البعايسية ، ومهد لهم بانقاص قوات الخلافة (١) .

ويأتي في الصف الثاني السيد أمير علي في كتابه موجز تاريخ الأمم الاسلامية وسير ولیام میور في كتابه الخلافة قيامها وانحلالها وسقوطها ، فانهما اكتفيا بالقول بأن هناء مؤرخين يتهمون ابن العلقمي بالخيانة وأخرين يعتبرونه وطنيا غیورا ولكنهما لم يبديا رأيا خاصا أو يأخذوا بأحد الرأيين . قال السيد أمير علي في هذا الصدد (٢) : « ويقال انه — أى مؤيد الدين محمد بن العلقمي — دعا التتار للحضور الى بغداد ، وقد وصف مؤرخو العرب من أمثال ابن خلدون وآبو الفدا والمقریزی والسيوطی الوزیر بأنه خائن ، وأيدهم في ذلك میرخند ووصاف . أما رشید الدين وحده فيصفه بأنه خادم أمین كان يرغب كل الرغبة في انقاد البيت العبايسی من السقوط المحقق ولكنه لم يكن له حول ازاء جنون الخليفة وتردداته » على حين يقول سیر ولیام میور (٣) : « ومن العجيب أن الوزیر كان شیعیا . لذلك نرى المؤرخین السنتینیان يحملون عليه بل ويتهمنوه بالعمل ضد مواطنیه المنکوبین باتصاله بالغول ، بينما يتکلم عنه غيرهم باعتباره وطنيا غیورا . والحقيقة أننا لا نرى حاجة الى البحث فيما وراء

Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, pp. 94-395.

(١)

Sayed Ameer Ali. A Short History of the Saracens, p. 396

(٢)

Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall, p. 587.

(٣)

أعمال الخليفة الجنوبي وأضطراب أمور مملكته المداعبة  
اذا ما اردننا استقصاء أسباب هذا السقوط المريع» .

أما هورث وريتشارد كوك فقد سارا خطوة أبعد مما ذكرنا فنراهما يميلان إلى أحد هذين الرأيين دون أن يحكمما على ابن العلقمي كشخصية مستقلة بل كأحد أفراد الشيعة . وفي ذلك يقول هورث(١) : «ويتهمه أغلبية مؤرخي المسلمين بالخيانة ، ولما كان من طائفة الرافضة فقد كان طبيعيا أن يفرج بالقضاء على نفوذ الأسرة العباسية واقامة نفوذ العلوبيين ، ومن المحتمل أن تكون الفقرة (لعن الله من لم يلعن ابن العلقمي) لها ما يتحققها» . كما قال ريتشارد كوك (٢) : « وقد لطخ المؤرخون السنّيون اسم الوزير . ويجب أن نقول هنا ان العوادث مضافا اليها عدم اخلاص الشيعة الذين ينتسب اليهم تؤدي إلى الشك في أنه كان على اتصال مشين بالغول . وقد كان الشعور ضده على أشدّه بين أهل السنة ، حتى ان الكتب التي ظهرت بعد بسنين غداة وكانت تدرس في معاهد العلم الاسلامية كانت تحمل هذه العبارة « لعن الله من لا يلعن العلقمي » وبصرف النظر عن سلوك الوزير الشخصي فإن مساعدة الشيعة الخونة والمسيحيين للمغول لا تدع الا مجالا ضيقا للشك » .

وقد تكون أبعد خطوة في بحث مسألة ابن العلقمي وابداء رأى فيها لدوسون وبراون . أما دوسون فانه بعد أن أدى بآراء المؤرخين الذين يتهمون ابن العلقمي بالخيانة قال (٣) : « يتهم الوزير ابن العلقمي عادة بالخيانة . . . . .

Howorth, History of the Mongols, Vol. I, p. 201.

(١)

Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 152.

(٢)

D'Ohsson, Histoire des Mongols, Tome III, pp. 249, 252-254.

(٣)

والحقيقة أن سلوكه يساعد على تحقيق هذا الرأي » . وأما براون فهو الوحيد من بين مؤرخي الفرنجة الذين اهتموا بهذا الموضوع ، فقد خصص له صفحتين في كتابه (١) وأتى برأى صاحب طبقاتي ناصرى ممن يتهمون الوزير بالخيانة ثم برأى ابن طباطبا الذى يدافع عنه ، وذكر أنه يأسف حين يرى أن ما أتى به ابن طباطبا يمكن استعماله ضده ، وأخيراً أدى برأيه قائلاً ، إنه لا يستبعد أن يكون ابن العلقمى قد اغتر بوعود المغول فاشترك مع نصير الدين الطوسى - الذى كان شيعياً مثله ، والذى سبق أن خان الشيشة وحرض هولاكو على القضاء على الخلافة العباسية - فى اقتناع الخليفة بالتسليم للمنفول وبذلك كان سبباً فى سقوط بغداد وقتل الخليفة . ويرى براون أن موت الوزير بعد قتل الخليفة بثلاثة شهور يؤيد رأيه فى أن المغول استغلوه حتى حصلوا على ما يبتغون ثم نبذوه نبذ النواة . ولكنـه فى آخر الأمر يقول : « ومع ذلك ، فالمسألة مشكوك فيها وكل الاحتمالات تجعل وضوحها الآن على درجة من التحقيق مستحيلاً ، لذلك يجب على من لا يتبع ابن الطقطقى فى الدعاء للوزير بالرحمة ألا يؤيد على الأقل اللعنات التى صبها عليه مؤلف كتاب طبقاتي ناصرى ، الذى أظهر تعصباً لأهل السنة أشد مما أظهره ابن الطقطقى للشيعة » . ومن ذلك نرى أنه قد ترك هذه المسألة دون أن تحل حلاً نهائياً .

٤ - تحليل أقوال المؤرخين فى موقف ابن العلقمى :  
بقى علينا وقد استعرضنا آراء المؤرخين من أقدمين ومحدثين ومن عرب وفرس وفرنجة أن ندلل برأينا فى هذا الموضوع

الدقيق . وستتبع دون شك نصيحة براون فلن نغلى فى اتهام الوزير ولن نغلى فى تبرئته وإنما سنحاول أن نتخذ لنا رأياً يؤيده الواقع وتستنده البراهين القوية . ونحب قبل أن ندل برأينا أن نعلق على آراء الفريقين من أصحاب المراجع الأصلية كل بما يستحقه .

(أ) **تحليل أقوال المؤرخين الذين يتهمون ابن العلقمى :**  
 أما الفريق الأول الذى اتهم الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى بالخيانة فلا شك أنه بالغ كثيراً وحمل العهود أكثر مما يجب أن تحمل . يتضح ذلك اذا ما تناولنا آراءه بالتحليل ، فمثلاً اهتمام أفراده بالقول بأن ابن العلقمى جر المulous إلى بغداد ومباغتهم في التبعة التي تقع عليه من وراء ذلك ، أمر يدل على ضيق نظرهم وجهلهم بالشئون الخارجية في العالم اذ ذاك ، ولو أن محيط معارفهم كان متسعًا لعلموا أن المجلس الذي اختار الخان الأعظم مانجو قرر ارسال حملة بقيادة هولاكو للقضاء على الحشيشية واحتضان الخليفة العباسى (١) ، وتو كانوا بعيدى النظر لعلموا أن الوزير لو فرض وأنه استدعاهما ما كان ليؤثر فيهم لو لم تكن دعوه موافقة لميادئهم . كما أنهم حين ذكروا أن الوزير مهد للمغول بانقاوص جند الخليفة لم يشندوا عن هذه القاعدة . ونحن من جانبنا لا يمكننا أن نقبل ما ذكره فيها على علاقته ؛ لأننا نعلم أن الخليفة كان قد سلب كل السلطة من الوزير وأبعده عنه

Browne, Literary History of Persia. Vol. II, p. 452.

(١)

Camb. Med. Hist. Vol. IV, p. 641.

و

Howorth, Vol. I, p. 193.

و

وقرب الدفتردار وسليمان شاه (١) . وكيف يمكن للوزير في مثل تلك الظروف أن ينقص الجندي ونحن نعلم في الوقت نفسه أن الدفتردار وسليمان شاه كان من رأيهما مقاومة المغول . ولو فرضنا أن الوزير كان قد مهد لهولاكو وأنه نقص الجندي قبل مجيئه بعده سنتين ، فلماذا لم يبادر الدفتردار وسليمان شاه بجمع الجندي والاستعداد للاقتال العدو بعد أن صار لهما الأمر والنهاي . وقد ذكر أحد أفراد الفريق الأول كما سبق أن الوزير أرسل بعض آعوانه لقطع دجلة واغراق معسكر الخليفة عند دجبل ليلا ، ولا يمكننا أن نصدق هذا الخبر ، لأن مثل هذا العمل يستدعي معرفة الوزير وتتبعه أخبار المعارك التي دارت بين جيش الخليفة والمغول أولا بأول . ولو علمنا أن الوزير في ذلك الوقت كان في بغداد بعيدا عن ساحة القتال وأن الحوادث كانت متلاحقة فانتصر جيش الخليفة على جيش سنحان عند الأنبار في يوم ٩ المحرم سنة ٦٥٦ هـ ثم تبعه وتلاقي مع جيوش المغول التي كانت تحت قيادة بيجو نويان عند دجبل في اليوم التالي وانتصر عليها في آخر النهار ثم أفرق معسكر جيش الخليفة الذي أدى إلى هزيمته في المساء (٢) - إذا عرفنا ذلك صعب علينا أن نصدق أنه كان للوزير دخل في هذه المسألة ، ولو أنه فعل ذلك فهل من المعقول أن يضل تدبیره خافيا على الخليفة ؟ وإذا كان الخليفة قد علم به فهل من المعقول أن يضل الوزير في بغداد دون أن يلحقه أذى مع أن أعداءه الدفتردار وسليمان شاه كانوا يتربصون به الدوائر ؟ أضف إلى ذلك أن الخليفة أرسله

D'Ohsson, Tome III, p. 214-2-5.

Quatremere, p. 229.

Ibid, pp. 279-281.

(١)

(٢)

عدة مرات في مراسلات إلى هولاكو، وهذه أمور لا تترك مجالا للشك في أن الخليفة كان يزال يثق به ، وإن كان قد أعطى السلطة لأعدائه الدفتردار وسليمان شاه تحت ضغط الخوف وأنه لم يصله شيء عن عمل الوزير على اغراق الجيش . ومع ذلك فنحن نعلم أن مهاجمة الجيوش المغولية لبغداد الغربية دبرت فجأة ولم يعلم بها أحد في حاضرة الدولة العباسية بدليل أن جيوش الخلافة كانت على حدود العراق الشرقية ولم تتركها إلا بعد أن علمت بذلك الهجوم . هذا وقد ذكر براون أن اغراق معسكر الخليفة قام بتدميره المهندسون الصينيون الذين كانوا يرافقون الجيش المغولي (١) ، كما ذكر دوسون أن المغول هم الذين أغرقوا السهل الواقع خلف معسكر جيش الخليفة (٢) ، وهذا القول أقرب في نظرى إلى الحقيقة .

وليست هذه الأمثلة هي كل ما يدل على شطط أفراد الفريق الأول ، بل هناك مسألة أخرى لا تقل أهمية عما ذكرنا وهي مبالغة هؤلاء المؤرخين في أهمية اقناع الوزير للخليفة بالخروج إلى هولاكو ، لأنهم يعتقدون أنه لو لا اقناع الوزير للخليفة وقوله إن هولاكو يريد أن يزوج ابنته من ابنه أبي بكر لما خرج ، وهذا خطأ ممحض . الواقع أن حصار المغول لبغداد كان قد بلغ أشده في ذلك الوقت وأن مركز الخليفة كان قد أصبح حرجا خصوصا بعد أن قتل المغول الدفتردار وسليمان شاه وأتباعهما وبعد أن دب الرعب في قلوب البغداديين ؛ فخرج بعضهم يعرض تسليم المدينة على هولاكو . ولو أن الخليفة لم يسارع إلى الخروج وتقديم نفسه

Browne. Literary History of Persia, Vol. II, p. 461. (١)  
D. Ohsson, Tome III, p. 231. (٢)

إلى هولاكو لا يضطر فيما نرى إلى التسليم بعد قليل أو لدكته عليه بغداد دكا .

**(ب) تحليل أقوال المؤرخين الذين يدافعون عن ابن العلقمي :** وإذا كنا لم نوافق الفريق الأول على مبالغته، فأجدر بنا إلا نوافق الفريق الثاني على رأيه من أساسه: وليس هذا من جانبنا سرعاً بل لأننا لو حاولنا أن نحلل ما قاله أفراد هذا الفريق لما ثبت لنا منها شيء . فإن ابن طباطبا حين يحاول أن ينفي عن ابن العلقمي تهمة المخاصرة ويدلل على ذلك بحسن معاملة هولاكو ويقول «فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع انوثوق إليه » يبرهن على غير ما يقصد كما قال براون ويثبت بذلك أنه نظرى يتناهى الناحية العملية فى الموضوع . اذ المعقول أن هولاكو وقد خامر من أجله الوزير لابد أن يكافئه ويقربه ثم يشركه فى حكومة بغداد على آثر انتصاره كما أشرك غيره ممن خامر مثل ابن عمران . وليس هذا هو كل ما نراه فى هذه المسألة المهمة بل إن ابن طباطبا حين يحاول مرة أخرى تبرئة ابن العلقمي فى هذه الحكاية الطويلة التي تقدمت الاشارة إليها لا يوفق التوفيق كله لأن : أولاً - الذى يحكى عنه هذه الحكاية الطويلة هو ابن أخت الوزير، وثانياً - لأنه يقول فلما حضر (ابن العلقمي) بين يدي السلطان (هولاكو) وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان » . وأى كلام يستحسن لهولاكو الا اذا كان فى مصلحته . وأى رجل يرضى عنه الا اذا كان فى صفه او على الأقل قد ارتاح إليه . وثالثاً - لأنه يقول ان الذى تولى ترتيبه فى الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسى . وهو على ما نعلم الخائن الذى كان سبباً فى تسليم ركن الدين خورشاد رئيس الحشيشية ، كما انه هو الذى حرض هولاكو

حين حذر الفلكى حسام الدين من غزو بغداد على عدم سماع كلامه وعلى السير فى تنفيذ خطته حتى النهاية ، وأكده له أنه سينجح فيما يقدم عليه . رابعا - لأنه يقول فى آخر الأمر ان بغداد لما فتحت سلمت الى الوزير والى على بهادر ، وهل يعقل أن يسلّمها هولاكو اليه دون أن يكون ذلك مكافأة له على عمل أتاه ؟ وأى عمل أعظم فى نظر هولاكو من مساعدته على الوصول الى غرضه من دخول بغداد وازالة الخلافة العباسية منها .

أما رشيد الدين فانه وان حاول أن يظهر الوزير كرجل مخلص لا يختلف عن غيره من أتباع الخليفة الذين عملوا على نصرته فى معنته اللهم الا باختلاف رأيه فى ضرورة استعمال المغول ، فاته فى سياق كلامه ذكر أمورا لا يسعنا أن ندعها تمر دون أن نأخذها عليه لأننا نرى أنها كفيلة بهدم رأيه :

**أولاً :** ما ذكره من أن رسول هولاكو عندما جاءوا الى بغداد لأول مرة يحملون الرسالة الأولى التي يدعوه هولاكو فيها الخليفة الى تجريد بغداد من الحصون وتقديم فروض الطاعة ، أهانهم أهل بغداد وبصقوا عليهم ومنزقا ثيابهم وأن الوزير هو الذى أرسى خلصوهم منهم (١) .

**ثانياً :** بعد أن ذكر رشيد الدين أن الدفتردار سليمان شاه أقنعوا الخليفة بضرورة استعمال القوة ضد المغول قال(٢) : « وقد كان من أثر ذلك أن طلب الخليفة من الوزير أن يعد الجند حتى يوزع عليهم الذهب والفضة وأن يسلم قيادتهم لسليمان شاه حتى يبر بوعده ، وقد أحسن الوزير بعدم رغبة

Quatremere, p. 237.

Ibid.

(١)

(٢)

ال الخليفة في صرف أمواله ولكنـه أرادـ لا يتعرـض لـغضـبـ  
أعدـائـه فأـمرـ بـجـمـعـ الجـنـدـ وـلـكـنـهـ طـلـبـ أنـ يـكـونـ جـمـعـهـمـ  
بـرـفقـ وـبـبـطـءـ حـتـىـ لاـ يـحـسـ العـدـوـ بـحـرـكـتـهـ هـذـهـ ،ـ وـبـعـدـ أنـ  
أـخـبـرـ الضـابـطـ الـذـيـ عـهـدـ إـلـيـهـ بـجـمـعـ الجـنـدـ الـوزـيرـ بـأـنـ مـهـمـتـهـ  
قـدـ اـنـتـهـتـ بـعـدـ خـمـسـةـ أـشـهـرـ وـأـنـ الجـنـدـ يـنـتـظـرـونـ الـخـلـيـفـةـ  
لـيـوـزـعـ عـلـيـهـمـ الـأـمـوـالـ ،ـ لـمـ يـكـنـ مـنـ الـوزـيرـ إـلـاـ أـخـبـرـ الـخـلـيـفـةـ  
بـذـلـكـ »ـ فـهـوـ هـنـاـ يـذـكـرـ أـنـ الـوزـيرـ عـنـدـمـاـ أـمـرـهـ الـخـلـيـفـةـ باـعـدـادـ  
الـجـنـدـ لـمـ تـكـنـ لـهـ رـغـبـةـ فـىـ اـعـدـادـهـ وـلـوـ خـوفـهـ مـنـ أـعـدـائـهـ لـمـ  
نـفـذـ هـذـاـ الـأـمـرـ ،ـ هـذـاـ إـلـىـ أـنـ الـمـؤـرـخـ رـشـيدـ الـدـيـنـ لـاـ يـخـفـىـ عـنـاـ  
أـنـ الـوزـيرـ حـيـنـ بـدـأـ فـىـ التـنـفـيـذـ أـخـدـ يـمـاطـلـ ،ـ مـحـتـجـاـ بـأـنـ الـعـدـوـ  
عـنـ قـرـبـ وـيـجـبـ إـلـاـ يـحـسـ بـحـرـكـتـهـ هـذـهـ ،ـ وـهـذـاـ يـكـفـىـ فـيـمـاـ  
أـرـىـ لـأـخـلـهـارـ نـوـايـاهـ السـيـئـةـ نـوـعـ الـخـلـافـةـ وـلـاـ أـهـمـيـةـ لـمـاـ ذـكـرـهـ  
قـبـلـ ذـلـكـ مـنـ أـنـ هـذـهـ أـحـسـ بـعـدـ رـغـبـةـ الـخـلـيـفـةـ فـىـ صـرـفـ أـمـوـالـ  
لـأـنـهـ لـوـ كـانـ يـرـيدـ حـتـىـ جـمـعـ الجـنـدـ لـمـ فـقـدـ الـوـسـائـلـ لـجـمـعـ الـمـالـ  
الـلـازـمـ لـهـمـ .ـ

**ثالثاً :** هـذـاـ إـلـىـ أـنـ رـشـيدـ الـدـيـنـ ذـكـرـ لـنـاـ أـنـ الـوزـيرـ  
خـرـجـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـةـ إـلـىـ هـوـلـاـكـوـ أـشـاءـ تـبـادـلـ الـمـرـاسـلـاتـ بـيـنـهـ  
وـبـيـنـ الـخـلـيـفـةـ ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ لـمـ يـذـكـرـ لـنـاـ أـنـ هـنـاكـ أـحـدـ اـعـتـدـىـ  
عـلـيـهـ ،ـ مـعـ أـنـ الدـفـتـرـدـارـ وـسـلـيـمـانـ شـاهـ كـانـ نـصـيـبـهـمـاـ الـقـتـلـ  
عـنـدـمـاـ وـقـعـاـ فـىـ يـدـ هـوـلـاـكـوـ (١)ـ .ـ

**رابعاً :** أـنـ رـشـيدـ الـدـيـنـ لـمـ يـضـنـ عـلـيـنـاـ بـمـاـ حـدـثـ فـيـ  
آخـرـ الـأـمـرـ حـيـنـ ضـاقـتـ الدـنـيـاـ فـيـ أـعـيـنـ الـخـلـيـفـةـ ،ـ فـاـنـهـ ذـكـرـ أـنـهـ  
لـمـ اـشـتـدـتـ بـهـ الـحـالـ عـلـىـ أـشـرـ قـتـلـ هـوـلـاـكـوـ لـلـدـفـتـرـدـارـ وـسـلـيـمـانـ  
شـاهـ اـسـتـدـعـيـ وـزـيـرـهـ وـسـأـلـهـ عـمـاـ يـفـعـلـهـ فـأـجـابـهـ بـقـوـلـهـ :

يطنون أن الأمر سهل وانما  
هو السيف حدت للقاء مضاربه

كما يذكر لنا أيضاً أن هولاكو بعد أن ذهب من بغداد إلى قرية وقف في ١٤ من صفر سنة ٦٥٦ هـ استدعي الخليفة إليه ، وأن الخليفة في ذلك الوقت المصيّب سأله وزيره عما يفعله فلم يكن منه إلا أن أجاب بقوله « ان ذقنا طويلة » متهم كما ومشيراً إلى ما قاله الدفتردار عنه عند بدء الخطر المغولي (١) . فقد أشار الوزير على الخليفة بارسال هدية ولكن هذا لم يسمع له وسمع للدفتردار الذي نهاه عن سماع الوزير واصفاً له بهذا الوصف الذي قصد به أنه ماكر خبيث .

٥ - الرأى الأخير في ابن العلقمي : إننا لا يسعنا بعد كل هذا إلا أن نقول أن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي لا يمكن أن يكون بريئاً من تهمة الخيانة للخلافة العباسية ، إلا أنه في الوقت نفسه لا يمكن أن يكون قد ارتكب كل الجرائم التي حاول المؤرخون السنويون أن يسندوا لرتقابها إليه . وكل ما في الأمر أنه غضب لما حاق بطائفته من المظالم ولتقديم الدفتردار الصغير عليه ؛ ولكنه كان عاجزاً كل العجز عنأخذ الثأر لنفسه وابعاد الأذى عن طائفته . فلما جاء المغول وأحاطوا ببغداد وجد فيهم من يأخذ بثأره وثار طائفته ، كما رأى ببعد نظره أن النصر سيكون حليفهم لقوتهم وضعف الخلافة العباسية ، لذلك نراه لا يتزدد في اتخاذ سياسة تقسيمه من المغول وفي الوقت نفسه لا تشير شك

ال الخليفة فيه ، ولذلك أيضا نراه يتظاهر بأن من رأيه استمالة المغول بالمال لا ملاقاتهم بالقوة ، حتى اذا جاءت رسائل هولاكو الى بغداد تحمل رسالته الأولى وهاجمهم البيهاديون عند عودتهم أرسل الوزير بعض أعوانه ليخلصوا هؤلاء الرسل من أيديهم ، و مما يجب ملاحظته أيضا أن الوزير تباطأ في جمع الجند عندما كلفه الخليفة بجمعهم تنفيذا لرأي الدفتدار وستيلمان شاه . وما امتناع الوزير عن تقديم المشورة للخليفة في آخر أمره وعندما أصبح الموقف حرجا الا لأنه رأى أن الانتصار قد أصبح من نصيب المغول ، كما أراد أن ينتقم من الخليفة الذي أبعده وشل يده عن مباشرة أمور الدولة . وليس ببعيد أن يكون ابن العلقمي في مراسلاتة العديدة بين الخليفة وهو لا يزال على الحصول على ثقة هولاكو باخباره بما يدور في بغداد ، كما أن نصير الدين الطوسي الذي كان مقربا من هولاكو محترما عند المغول استعمل نفوذه في مساعدته للحصول على رضا هولاكو فمهده له الطريق كل التمهيد ، وإن لنا من قول ابن طباطبا الشيعي لدليل على صحة هذا القول الأخير :

### ٣ - موقف أهل الذمة

علمنا مما تقدم كيف كان النصارى واليهود في بغداد يتمتعون بالطمأنينة في أحياهم النبالة في جميع الأذاء ، ورأينا كيف كان رؤساؤهم ينعمون بالغنى والاحترام ، هذا إلى أنهم كانوا جميعا يتمتعون بالحرية في أداء شفائر دينهم . وقد يدعونا ما كان لهم من مركز ممتاز في بغداد إلى الاعتقاد بأنهم سيقفون جميعا صفا واحدا أمام أي خطوة ينزل بالعباسيين ، ولكننا سنرى فيما يلى أن الواقع ينکن بـ هذا الاعتقاد .

حقيقة أن اليهود وقفوا ازاء فتح المغول لبغداد موقفاً يحسدون عليه ، فقد حاربوا حتى آخر لحظة مع اخوانهم المسلمين وقايسوا معهم ما قاسوا من المذابح التي أعقبت دخول بغداد (١) ، ولكن المسيحيين وقد كانوا يفوقونهم عدداً كما كانوا أكثراً منهم تقرباً إلى الخلفاء واتصالاً بالحياة العامة في بغداد لم يفعلوا مثل ما فعل اليهود ، بل سالمو المغول وتقربوا إليهم وتمكنوا من كسب عطف هولاكو بتأثير زوجته المسيحية دوكوز خاتون (٢) .

ولو أن فعل المسيحيين اقتصر على ذلك ، لكن من السهل ايجاد مبرر لهم سواء في حبهم في الحياة وتعلقهم بها أو في خوفهم من المغول خصوصاً بعد أن صبح نجاحهم أمراً متوقعاً . ولكنهم وقد ضنوا بالحياة على بعض المسلمين عندما كان في قدرتهم تقديم المساعدة لهم لن يجدوا من يحاول الدفاع عن موقفهم . فقد صرخ هولاكو للبطريق النسطوري بجمع المسيحيين في أحدى الكنائس حتى يميزوا عن غيرهم فلا يتعرض لهم الجندي المغولي عند نهب بغداد ، ففعل ، وحاول بعض المسلمين أن يأوا إلى الكنيسة مع اخوانهم المسيحيين حتى ولو بتقديم كل ثرواتهم فلم يقبل البطريق النسطوري وتركهم تحت رحمة السيف المغولي (٣) .

وعلى كل حال ، فإن المسيحيين لم يشتراكوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة التي عاشوا فيها زمناً طويلاً تحت حمل

Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 152.

(١)

D'Ohsson Tome III, p. 270.

(٢)

D'Ohsson, Tome III, p. 241.

(٣)

Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 149.

الخلفاء العباسيين ونجوا من العذاب الذى صبه المغول على  
تلك المدينة وأهلها وكان موقفهم فى هذا الأمر يشبه تماماً  
موقف الشيعة . ولم يدافع عن بغداد فى محنتها ويلاقى  
العذاب لأننا لا أهل السنة واليهود .

## خاتمة القول في زوال الخلافة العباسية من بغداد

سرت موجة الضعف في الخلافة العباسية منذ أيام المعتصم وانتهى الأمر بوقوع الخلافة تحت سيطرة الأجانب من بويعيين وسلامقة . وهي وإن تمكنت بعد ذلك من استعادة السلطة والتخلص من الأجانب والاستقلال بأمورها ( ٥٥١ - ٦٥٦ هـ ) ، فإن ذلك لم يكن سوى استيقاظ فجائي تبعه الزوال ، كما يحدث حين يتوجه المصباح قبل أن يخبو نوره .

ولا يمكننا أن ننسب زوال الخلافة العباسية من بغداد إلى سبب واحد أو أن نبالغ كما بالغ مؤرخو العرب في الدور الذي قام به مؤيد الدين محمد بن العلقمي حتى كادوا ينسبون إليه وحده سبب زوال الخلافة العباسية ، بل يتحقق لنا أن نرجع هذا الزوال إلى عدة أسباب مشتبكة بعضها ببعض ، منها اختلال الحالة الداخلية في أملاك الخلافة من جميع نواحيها الحربية والسياسية والطائفية والعمانية في عهد الاستقلال الأخير ، ومنها اشتداد ساعد المغول وتوسيعهم في الفتح حتى أصبحوا في أواخر عهد المستعصم يطوقون أملاك الخلافة العباسية من جميع الجهات تقريباً . ولا تكون مغالين إذا قلنا أن من هذه الأسباب نجاح الخلافة العباسية في

سياستها الخارجية في ذلك العهد ، لأنه يحتمل أن يكون ذلك النجاح قد نظر إليه من ناحية الخلفاء بأكثـر مما يستحق فظنوا أن الدول الإسلامية التي تحترمـهم يمكنـها أن تعين الخلافة اذا نـزل بها مـكرـوه أو حـاقـ بها خـطـرـ من الأـخـطـارـ ، على حينـ كانتـ هـذـهـ الدـوـلـ قدـ بـلـغـتـ درـجـةـ كـبـيرـةـ من الـضـعـفـ والـانـحلـالـ حتـىـ أـصـبـعـ أـكـثـرـهـاـ خـاصـعـاـ لـسـلـطـانـ المـفـولـ . ولا يـبعـدـ أنـ يـكـونـ الـخـلـيـفـةـ الـمـسـتعـصـمـ قدـ تـرـسـمـ خـطاـ الخـلـفـاءـ الـذـيـنـ سـيـقـوـهـ فـىـ هـذـاـ الـمـضـمـارـ وـلـاـ أـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ عـدـمـ اـهـتـمـامـهـ بـدـعـوـةـ هـوـلـاكـوـ لـهـ إـلـىـ التـسـلـيمـ وـرـكـوـبـهـ مـتـنـ الشـطـطـ حتـىـ قـالـ لـهـ فـىـ كـتـابـهـ إـلـيـهـ كـمـاـ سـبـقـ أـنـ ذـكـرـنـاـ : «ـ إـنـ مـلـاـيـنـ مـنـ الـخـيـالـةـ وـالـرـجـالـةـ عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ لـلـحـربـ رـهـنـ اـشـارـتـيـ حتـىـ إـذـ حـلـتـ سـاعـةـ الـأـنـقـاثـ جـفـفـواـ مـيـاهـ الـبـحـرـ »ـ .

كان زوال الخلافة على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ حدا فاصلاً بين عهدين في بغداد ، عهد تسلط على العالم الإسلامي في السياسة والأدب والعلوم والفنون انقضى وعهد تقلص في النفوذ السياسي والأدبي والفنى بدأ يظهر شبحه المخيف . فقد كانت بغداد قبل هذا العادث المشئوم حين كان يقيم فيها الخليفة العباسي - اللهم الا اذا استثنينا هذه الفترة التي انتقلت فيها حاضرة الدولة الى سامرا ( ٢٢١ - ٢٧٩ هـ ) - رئيس العالم الإسلامي وقلب الاسلام النابض . وكانت وان فقدت قوتها المادية لما أصاب الخلافة من ضعف واتحـالـ لاـ تـزـالـ مـحـلـ اـحـتـرـامـ جـمـيعـ الـمـسـلـمـينـ ، كـمـاـ انـ نـفـوذـهـ الـمـعـنـوىـ كـانـ لـاـ يـبـذـلـ يـنـتـشـرـ فـىـ الـأـرـجـاءـ الـإـسـلـامـيـةـ ، وـكـانـ الـأـمـرـاءـ وـالـسـلـاطـينـ الـمـسـلـمـونـ يـلـتـمـسـونـ الـقـوـةـ لـعـرـوـشـهـمـ وـالـثـبـاتـ فـىـ نـظـرـ الـجـماـهـيرـ باـعـتـرـافـ الـخـلـيـفـةـ الـعـبـاسـيـ بـسـلـطـانـهـمـ . هـذـاـ إـلـىـ أـنـ الـخـلـفـاءـ الـعـبـاسـيـنـ كـانـوـاـ يـعـمـلـونـ عـلـىـ تـشـجـعـ الـعـلـمـاءـ وـتـقـرـيـبـ أـهـلـ

الأدب ويشيدون العمارات الفخمة ويجمعون الكنوز النفيضة التي أدهشت المغول حين استولوا على بغداد ، كما أدهشت كنوز فارس العرب عندما فتحوا تلك البلاد في فجر الإسلام . وبعد أن انتشر النفوذ المغولي ذيلت بغداد وتخلت عن مركز الرئاسة السياسية وذلك لأن أبناء هولاكو حين أقاموا مملكة لأسرتهم في غرب آسيا تدخل تحت سيطرتها فارس والعراق العربي قسموها إلى قسمين ، وجعلوا بغداد عاصمة لأحدهما وهو العراق العربي ولكنها لم تكن ذات نفوذ وكان يزورها أبناء هولاكو أحياناً كما كان بعضهم يقضى الشتاء فيها ، وكانت أصبحان عاصمة للقسم الثاني أعلى منها درجة وأرفع مكانة (١) .

تلك هي حالة بغداد السياسية منذ زالت الخلافة منها على أيدي المغول . أما الحالة الأدبية فيها فقد انحطت تماماً بعد ذلك الوقت ؛ إذ أحرق المغول الكتب وقتلوا الأدباء وشتبوا من نجا منهم من الموت ، كما أنهم بعد أن استقر لهم الأمر في بغداد لم يكن يهمهم ازدهار الأدب العربي وذلك يفسر لنا كيف تناهت بغداد عن مركز الصدارة الأدبية وخلفتها في ذلك مدينة القاهرة التي أصبحت في أيام المماليك مركزاً للعلماء والأدباء ، والتي ساعدت على نقل آراء الشرق إلى الغرب ، ثم كانت بذلك من بين العوامل في ايقاظ التهضة في أوروبا (٢) .

ولم يقتصر التغيير الذي حدث في بغداد بعد زوال الخلافة العباسية منها على الناحية السياسية والأدبية بل

Coke, Baghdad, p. 155.

(١)

Nicholson, Literary Hist. of the Arabs, p. 443.

Camb. Med. History Vol, pp. 464-643.

(٢)

تعدى ذلك الى الناحية الاجتماعية وحالة الطبقات . فالشيعة الذين مالاوا المغول وتقرروا الى هولاكو ظلوا طوال حكم أحفاده ايلعانات فارس في أحسن حال ، وبلغ من ذلك أن بنى السلطان غازان محمود (١٢٩٦م) تكايا تعرف بدار السيادات لأحفاد على الفقراء ، كما أن أخاه السلطان أولجايتو اعتنق مذهبهم وحاول أن يفرضه على آفراد أسرته (١) . وكان السنيون على العكس من ذلك في أسوأ حال في حكم المغول . أما المسيحيون الذين ساعدوا هولاكو فقد لاقوا من ايلعانات فارس كثيراً من العسف وفقدوا ما كان لهم من الحقوق في أيام الخلفاء العباسيين ، وكان ذلك أحسن جزاء لهم على خيانتهم ، وقد بلغ من سوء حالهم أن البطريق التسخوري اضطر إلى نقل بطريق قيته من بغداد إلى أربيل؛ ليتفادى ما كان ينزل به من اضطهاد ، كما أن جميع المسيحيين في بغداد في أيام السلطان محمود غازان (١٢٩٦ - ١٣٠٥م) حين قوى الشعور ضدتهم اضطروا إلى التزام منازلهم وصارت نساقهم يذهبون إلى الموانئ للبيع والشراء بدلاً منهم ؛ وذلك لأنهن كن يلبسن ثياب المسلمين فلا يمكن تمييزهن (٢) .

ولم يقتصر الأثر الذي أحدثه زوال الخلافة العباسية على تغيير الحال في بغداد ، بل تعدى ذلك إلى العالم الإسلامي كله ، ذلك لأن زوال الخلافة العباسية من بغداد كان معناه زوال آخر حكومة عربية لها شبه سيطرة على العالم الإسلامي وتحول التفوق إلى الدول الأعجمية . فالمغول نشروا نفوذهم في فارس والعراق العربي (١٢٥٧ - ١٣٣٥م) وقامت على أنقاض دولة الروم الإسلامية في آسيا الصغرى عشر

Coke, Baghdad the City of Peace, pp. 163, 165.

(١)

Coke, Baghdad the City of Peace, pp. 158, 164.

(٢)

امارات تركية صغيرة (١) ، وتمكن المماليك بعد صند تيار المغول وهزيمتهم في عين جالوت من تركيز سلطتهم في مصر والشام، كما قامت في شمال أفريقيا أسرات حاكمة من البر بن على أنقاض دولة الموحدين مثل الأسرة المرinية أو أسرة بنى مرين التي حكمت في مراكش مدة طويلة (٥٩١ - ٨٧٥ هـ = ١١٩٥ - ١٤٧٠ م.) والأسرة الحفصية التي حكمت في تونس أكثر من ثلاثة قرون (٦٢٦ - ٩٨١ هـ = ١٢٢٨ - ١٥٧٤ م.) والأسرة الزيانية أو أسرة بنى زيان التي حكمت في الجزائر منذ سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م.) حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٤ م.) (٢)

وإذا كانت قد ظهرت في العالم الإسلامي بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد دويلات عربية ، فقد كانت هذه الدويلات ضعيفة عاجزة ، كما أنها لم تتمكن من الاحتفاظ بسلطتها زمنا طويلا بل انتهى أمرها بالزوال على أيدي الأعاجم أو بالخضوع لهم ،مثال ذلك امارة بنى نصر في غرناطة التي قامت في إسبانيا سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م.) على أنقاض دولة الموحدين وأمارة بنى رسول التي قامت في بلاد اليمن وحكومات آشراف مكة والمدينة التي دانت بالطاعة لسلطين المماليك في مصر ثم لسلطين العثمانيين وظلت على ذلك حتى القرن التاسع عشر (٣)

(١) هذه الامارات هي كراسi Karasi وصاروخان Sarukhan وأيدين Aydin ومنتشا Mantasha وتكا Takka وحميد Hamid وقرمان Karaman وكرميان Karmiyan وقوزال احمدلى Kizil Ahmadly وعثمان Lane-Poole, Muh. Dyns, pp. 49-57, 80, 184-194, 246, 259. (٢) Cam. Med. Hist. Vol. IV, p. 643; Encyc. Islam ; Arts. Hafṣids Zayanids. ملاحظة : أسس امارة بنى رسول عمر بن رسول الذي كان حامكا لملكة من قبل بدأ أبوب سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م.). (٣) Lane-Poole, Muh. Dyns., pp. 27, 99-103. Enc. Islam, Arts. Mekka, Medina, San'a Zabid.

هذا فيما يتعلق بحال بغداد وحالة العالم الاسلامى بعد زوال الخلافة العباسية على ايدي المغول . أما الخلافة نفسها فلم يكن فى زوالها هذه المرة نهاية العهد بها ، بل انها انتقلت الى مصر حين رأى الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م ) أحد السلاطين المالكية فى مصر ان وجودها يشد من ازره ويكسب حكمه صبغة شرعية هو فى أشد الحاجة اليها لاستناده على القووة وحدتها . وقد اتباع السلاطين المالكية الذين جاءوا بعده هذه الطريقة ، واستمروا في الخلافة في القاهرة نحو قرنين ونصف قرن (٦٦٠ - ٩٤٩ هـ = ١٢٦٢ - ١٥٤٣ م ) ، وكان أفرادها شبه أسرى يعتمدون على كرم المالكية وعطفهم ولا يتدخلون في شئون الحكم ، بل يقضون أوقاتهم في زيارة الأمراء وحضور الولائم ، كما أنهم كانوا يحضرون تقليد السلطان الجديد ، وبالجملة فقد كانت حالتهم لا تختلف كثيراً عن حالة مشايخ الطرق الصوفية في أيامنا هذه (١) .

## مصادر الكتاب

### (أ) المصادر العربية :

- ١ - ابن الأثير (٦٣٠ هـ - ١٢٣٨ م) - على أحمد بن أبي الكرم ، الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً (المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ)
- ٢ - البندارى (من علماء القرن السابع) - الفتح بن علي زبدة النصرة ونخبة العصرة (القاهرة سنة ١١١٨ هـ)
- ٣ - ابن جبير (٦٦٤ هـ - ١٢١٧ م) .  
رحلة ابن جبير (القاهرة سنة ١٩٠٨ م)
- ٤ - حسن ابراهيم حسن (الدكتور)  
الفاطميون في مصر (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٣ م)
- ٥ - حسن ابراهيم حسن (الدكتور)  
تاريخ الاسلام السياسي (القاهرة سنة ١٩٣٥ م)
- ٦ - ابن خلدون (٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م)  
العيون وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء  
(بولاق سنة ١٢٨٤ هـ)

- ٧ - ابن خلkan (٦٨١ هـ - ١٢٨١ م )  
وفيات الأعيان جزءان ( بولاق سنة ١٢٧٥ هـ )
- ٨ - الديار بكري ( ٩٦٦ هـ - ١٥٥٨ / ١٥٥٩ م )  
الخميس فى أحوال أنفس نفيس جزءان  
( القاهرة سنة ١٨٢٣ )
- ٩ - الذهبي ( ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ / ١٣٤٨ م ) - شمس الدين  
محمد بن أحمد - كتاب دول الاسلام جزءان ( مطبعة  
دائرة المعارف الناظامية - حيدر آباد سنة ١٣٣٧ هـ )
- ١٠ - السيوطي ( ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م ) - عبد الرحمن بن  
أبي يكر جمال الدين  
تاريخ الخلفاء ( القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ )
- ١١ - ابن شاكر الكتبى ( ٧٦٤ هـ - ١٣٦٣ م )  
فوات الوفيات جزءان ( بولاق سنة ١٢٩٩ م )
- ١٢ - أبو شجاع ( ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م ) - محمد بن  
الحسين بن عبد الله الوزير ظهير الدين أبو شجاع  
الروذراوري  
ذيل كتاب تجارب الأمم ( القاهرة سنة ١٩١٤ م )
- ١٣ - الصولى ( ٩٣٠ هـ - ١٩٤٢ / ٩٤١ م ) - أبو بكر محمد  
ابن يحيى  
كتاب الأوراق الجزء الثالث ( القاهرة سنة ١٩٣٥ م )
- ١٤ - ابن طباطبا ( انتهى من وضع كتابه سنة ٧٠١ هـ )  
الفخرى في الآداب السلطانية ( القاهرة سنة ١٩٢٧ م )

- ١٥ - ابن العبرى ( ٦٨٤ هـ - ١٢٨٦ م ) - جريجورى  
 أبو الفرج بن هرون الملطى  
 تاريخ مختصر الدول ( المطبعة الكاثوليكية للأباء  
 اليسوعيين ، بيروت سنة ١٨٩٠ م ) .
- ١٦ - أبو الفدا ( ٧٣٢ هـ - ١٣٣١ م )  
 المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء ( المطبعة الحسينية  
 بالقاهرة سنة ١٢٨٦ هـ )
- ١٧ - القلقشندى ( ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م ) - أبو العباس  
 أحمد ، صبح الأعشى في صناعة الاتشاد ١٤ جزءا  
 ( القاهرة سنة ١٩١٣ - ١٩١٧ م )
- ١٨ - المسعودي ( ٩٥٦ هـ - ٣٤٦ م )  
 مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان  
 ( بولاق سنة ١٣٠٣ هـ و ١٨٨٥ م )
- ١٩ - مسکويه ( ٤٢١ هـ - ١٠٣١ م )  
 تجارب الأمم ( القاهرة سنة ١٩١٤ م )
- ٢٠ - المقرئي ( ٨٥٤ هـ - ١٤٤١ م )  
 السلوك في معرفة دول الملوك الجزء الأول في مجلدين  
 ( نشره الدكتور زيادة ) .
- ٢١ - النسوى ( من علماء القرن السابع ) - شهاب الدين  
 محمد بن أحمد ، سيرة جلال الدين منكبيشى ( باريس  
 سنة ١٨٠١ م تصحيح هودامى ) .

٢٢ - هلال الصابيء (٤٤٨ هـ - ١٠٥٦ م) - أبو الحسين

ابن المحسن بن أبي اسحاق ابراهيم

الجزء الثامن من تاريخ الوزراء

(القاهرة سنة ١٩١٤ م)

٢٣ - ياقوت (٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) - شهاب الدين

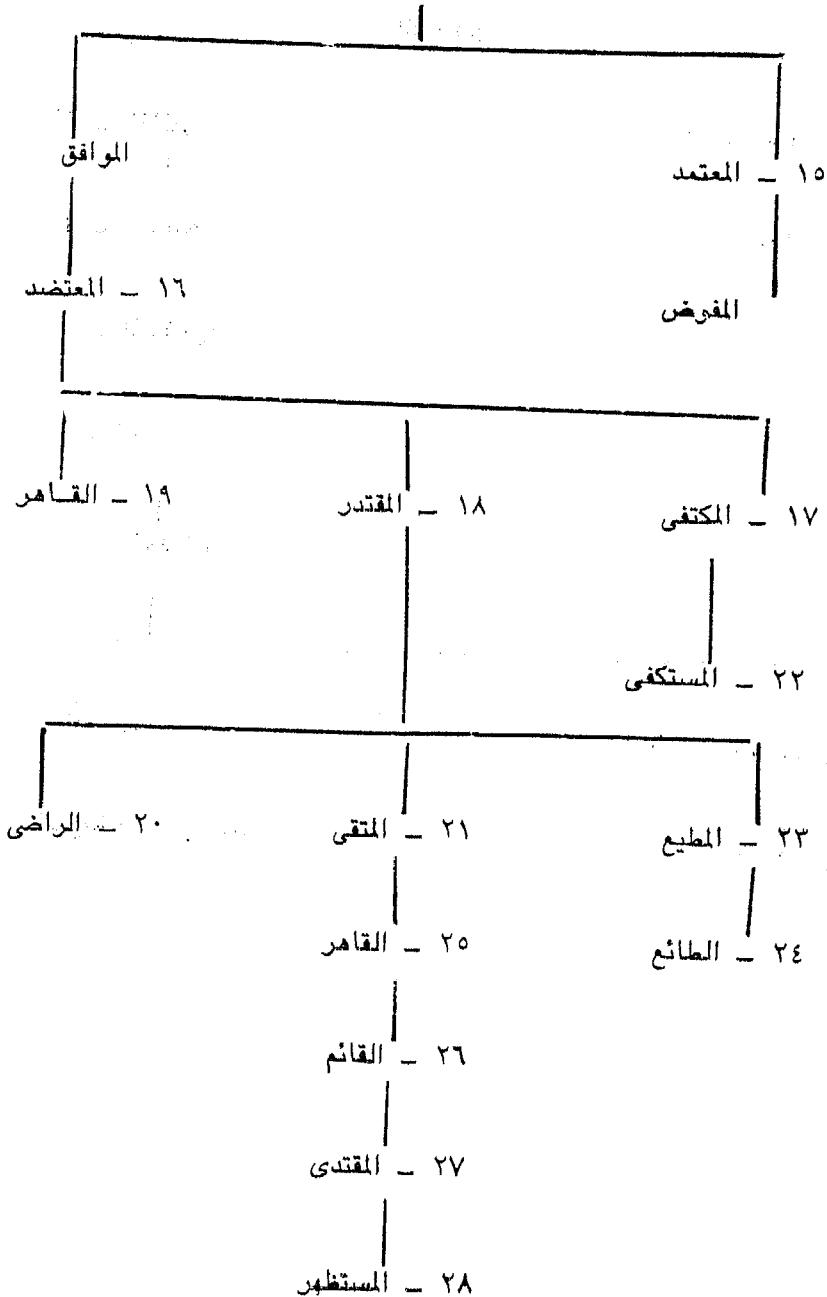
أبو عبد الله الحموي الرومي

معجم البلدان ١٢ جزءاً (القاهرة سنة ١٩٠٦ م) .

### (ب) المصادر الافرنجية :

1. Arnold (T. W.) The Caliphate (Oxford, 1924).
2. Asher (trans), Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, vols 1-11. (London & Berlin 1840, 1841).
3. Browne, Literary History of Persia, vols., I (London 1909). II (London 1906).
4. Browne, Account of a Rare Manuscript History of the Seljuks. (Hertford, 1906).
5. Coke (Richard), Baghdad the City of Peace. (London 1927).
6. Gilman. The Saracens from the Earliest Times to the Fall of Baghdad. (London, 1895).
7. Harold Bowen. Life and Times of Aly Ibn Iea « The Good Vizier ». (Cambridge, 1926).
8. Howorth, History of the Mongols, I-IV. (London 1927).
9. Khuda Bukhsh, Contributions to the History of the Islamic Civilisation. (Calcutta, 1905).
10. Lane-Poole (Stanley), The Muhammadan Dynasties, Chronological and Goniological Tables with Historical introduction. (Westminster, 1893) and (Paris, 1925).
11. Muir (William), The Caliphate, its rise, Decline & Fall. (Edinburgh, 1924).
12. Nicholson, Literary History of the Arabs (London 1914).
13. Noelaeke, Sketches from Eastern History.
14. D'Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguiz Khan Jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan, Tomes I-IV (Amsterdam 1852).
15. Osborn, Islam under the Caliphs of Baghded London, 1876).
16. Quatremère (trad), Histoire des Mongoles.
17. Sayed Ameer Aly, A Short History of the Saracens (London 1916).
18. G. Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphete. (Oxford 1900).
19. Cambridge Medieval History, vol. IV.
20. Encyclopedia of Islam.
21. Encyclopedia Britannica.

**سلسلة فسب الخلفاء العباسيين المتأخرين**  
**المتوكل**



**(تابع) سلسلة النسب**

**المستظهر**

٢٩ - المسترشد

٣٠ - الراشد

٣١ - المقتفي

٣٢ - المستجد

٣٣ - المستضيء

٣٤ - الناصر

٣٥ - الظاهر

٣٦ - المستنصر

٣٧ - المستعصم

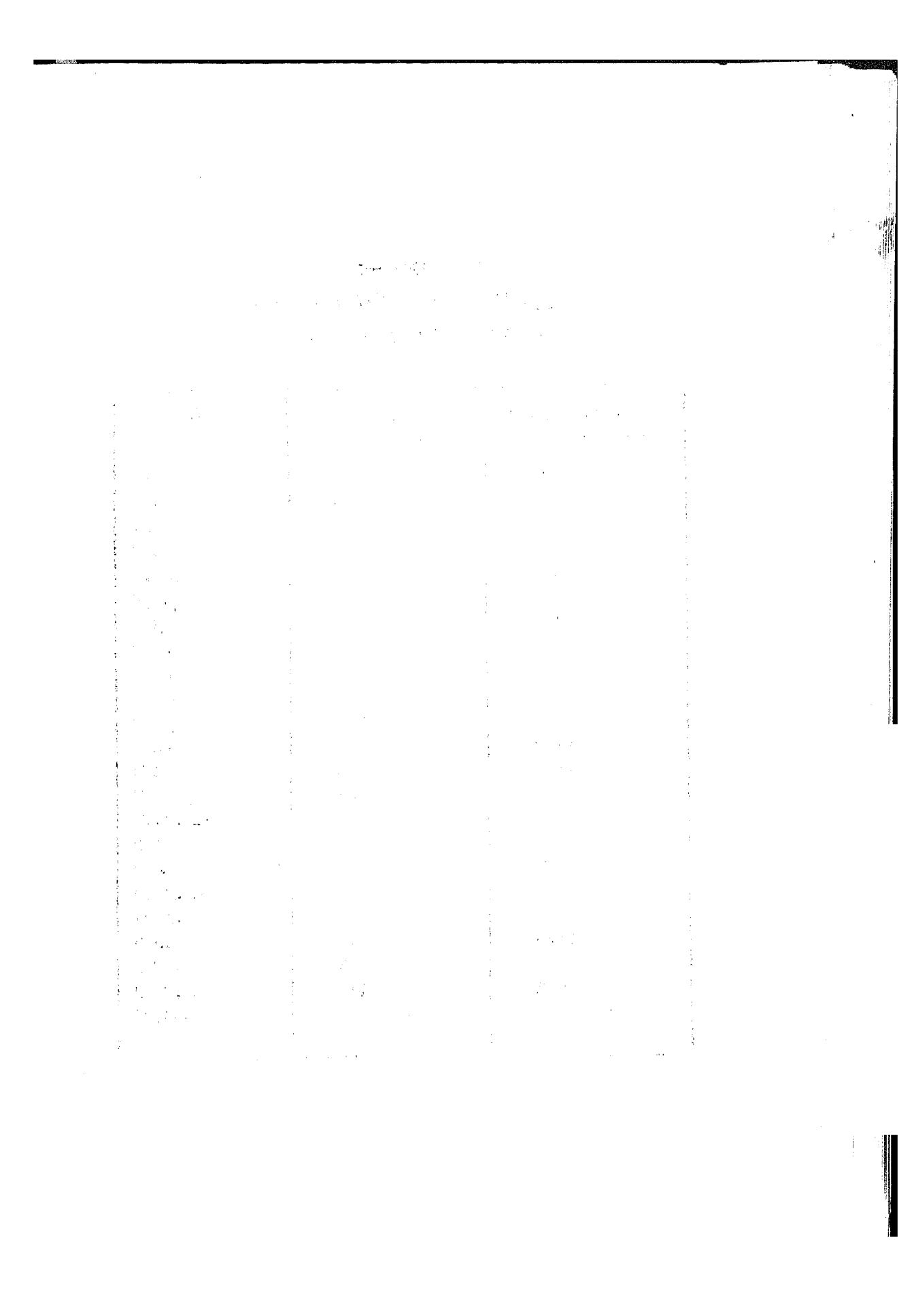
المستنصر

ال الخليفة العباسي بمصر

## جدول

يبيّن مدة حكم الخلفاء العباسيين المتأخرين  
 (٢٥٦ - ٨٧٠ هـ / ١٢٥٨ - ١٢٤٢ م)

الاسم	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
المعتمد	٢٥٦	٨٧٠
المعتضد	٢٧٩	٨٩٢
المكتفي	٢٨٩	٩٠٢
المقدار	٢٩٥	٩٠٨
القاهر	٢٢٠	٩٣٢
الراضي	٢٢٢	٩٣٤
المتقي	٢٢٩	٩٤٠
المستكفي	٢٢٣	٩٤٤
المطیع	٣٣٤	٩٤٦
الطاائع	٣٦٣	٩٧٤
القادر	٣٨١	٩٩١
القائم	٤٢٢	١٠٣١
المقتدى	٤٦٧	١٠٧٥
المستظہر	٤٨٧	١٠٩٤
المترشد	٥١٢	١١١٨
الراشد	٥٢٩	١١٣٥
المتفى	٥٣٠	١١٣٦
المستنجده	٥٠٥	١١٦٠
المسخرون	٥٦٦	١١٧٠
الناصر	٥٧٥	١١٨٠
الظاهر	٦٢٢	١٢٢٥
المستنصر	٦٢٣	١٢٢٦
المستعصم	٦٤٠	١٢٥٨ - ١٢٤٢



## اقرأ في هذه السلسلة

- |   |  |
|---|--|
| <p>جوزيف دامرسون<br/>سبع معارك فاصلة في العصر الـ ٢٠</p> <p>د. ليتوابر تشامبرز رايت<br/>سياسة الولايات المتحدة الأمريكية أيام مصر</p> <p>د. جون شنبلر<br/>كيف تعيش ٣٥ يوماً في السنة</p> <p>بيير البير<br/>الصحافة</p> <p>د. غبريل وهبة<br/>التراث الكوميديا الأليمة لادلتها في الفن التشكيلي</p> <p>د. رسليس عوض<br/>الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية ويعدها</p> <p>د. محمد نعسان جلال<br/>حركة عدم الانحياز في عالم متغير</p> <p>فرانكلين ل. يامر<br/>الفكر الأوروبي الحديث</p> <p>شركة الربيبي<br/>الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي</p> <p>د. سعيد الدين أحمد حسين<br/>التنشئة الأسرية والإبناء الصغار</p> <p>ج. دادلى أندرود<br/>تلفزييات الفيلم الكبير</p> <p>جوزيف كونراد<br/>مختارات من الأدب الشخصي</p> <p>د. جورمان دون شندر<br/>الحياة في الكون كيف تنشات وأين توجد</p> <p>ثلاثة من العلماء الأمريكيين<br/>مسيرة الدفاع الاستراتيجي حرب الفضاء</p> <p>د. السيد عليوة<br/>ادارة المصانع الدولية</p> <p>د. مصطفى عساف<br/>البيكروميوفن</p> <p>مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والحداثين<br/>مختارات من الأدب الياباني</p> <p>«الشعر» - الدراما - المكتاب «قصيدة»</p> | <p>بيل شول وآدينت<br/>القوة النفسية للألمرام</p> <p>د. صفاء خلوصي<br/>فن الترجمة</p> <p>والفتئي ماتلو<br/>توكولستوي</p> <p>نيكيلور برومبير<br/>سلطان</p> <p>فيكتور هوجو<br/>وسائل وأحاديث من المثل</p> <p>فيبريلر هيربرت دروج<br/>الجزء والكل «مماورات في مضمون الفرياء التربية»</p> <p>سدنى هوك<br/>التراث القائمون - ماركس<br/>والماركسيون</p> <p>ف. ع. آديتكروف<br/>فن الأدب الروائي عند تولستوي</p> <p>هادي نعسان البهتي<br/>أدب الأطفال «فلاسفته ، ف-tone<br/>وسماته»</p> <p>د. نعمة رحيم العزارى<br/>محمد حسن الزيات كتابها وتألقها</p> <p>د. فاضل احمد الطائى<br/>اعلام العرب في الكيمياء</p> <p>جلال المشري<br/>فكرة المسرح</p> <p>هدى باريسوس<br/>الجمجم</p> <p>السيد عليوة<br/>صنع الغبار السياسي في منتظمات الإدارة العامة</p> <p>جاكيب برونوفسكى<br/>التطور الحضاري للإنسان</p> <p>د. روجر ستروجان<br/>هل تستطيع تعليم الأطفال<br/>للأطفال؟</p> <p>كانى ثير<br/>تربيسة الدواجن</p> <p>١٠ سيبشر<br/>المؤتمر وعالمه في مصر<br/>الثانية</p> <p>د. ناجوم بيتروفيتش<br/>التدخل والطبيعة</p> <p>برتراند رسل<br/>أحلام الأعلام وقصص أهري</p> <p>د. راينر نكاياما جايدوتاسكي<br/>الاكترونيات والحياة الحديثة</p> <p>الدنس مكسلى<br/>نقطة مقابل نقطه</p> <p>ت. و. فريمان<br/>الجغرافيا في مائة عام</p> <p>رايموند وليانز<br/>الثقافة والمجتمع</p> <p>د. ج. فوريز و. ج. ديكستر هول<br/>تاريخ العلم والتكنولوجيا</p> <p>ليسترديل راي<br/>الارض القامضة</p> <p>والتر آلن<br/>الرواية الانجليزية</p> <p>لويس فارجاس<br/>المرشد إلى فن المسرح</p> <p>فرانسوا دوماس<br/>آلهة مصر</p> <p>د. قدرى حنفى وأخرون<br/>الإنسان المصرى على الشاشة</p> <p>أولج فولكفت<br/>القاهرة مدينة المفيلة وليلة</p> <p>ماشم النحاس<br/>الهوية القومية في السينما</p> <p>ديفيد وليان ماكنول<br/>مجموعات القوedo - صيانتها<br/>تصنيفها - عرضها</p> <p>عزيز الشوان<br/>موسيقى تعبير نفسى ومنطق</p> <p>محسن جاسم المسوى<br/>عصر الرواية</p> <p>ديلان توماس<br/>مجموعة مقالات نقدية</p> <p>جون لويس<br/>الإنسان ذلك الكائن الفريد</p> <p>جول ويست<br/>الرواية الحديثة - الإنجليزية<br/>والفرنسية</p> <p>د. عبد الله شعراوى<br/>المسرح المصري المعاصر<br/>أصله وبداياته</p> <p>أنور العذاؤى<br/>على محمود طه الشاهن والأشعاع</p> |
|---|--|

**جابريل بايد  
تاریخ ملکة الارضی فی مصر  
الحدیث**

الظرفی دی کرسنی وکیلیت هیتوچ  
اعلام الفلسفه المیسیاسیة  
الماصریة

دوایت سوین  
كتابه السیتاویو للسیتما

ڈافیلیسکی ف۔ س  
الزمن وقایسه ( من جزء من  
المیلیون جزء من الشاشة وحقی  
مليارات المستعين )

مهند ابراهیم القرضاوی  
اچھے تکیف الهواء

بیتر ردای  
الخدمة الاقتصادیة والانشیاط  
الاجتساعی

جوزیف داموس  
سبعة موظفین فی العصور  
الوسعی

س۔ م۔ بورا  
التوجیہ الیوقاتیة

د۔ عاصم محمد ردق  
مراکز الصناعة فی مصر  
الإنسانیة

دونالد د۔ سمیرون وترمان  
اندرسن  
العلم والطائی واثارس

د۔ انور عبد الملك  
الشارع المعنی والتک

ولت وتبیان روستو  
حوال حول التنمية الانتصاعیة

فره۔ س۔ میں  
پیسیط الکیدام

جون لویس برکهارت  
العادات والتقاوی المعنی  
من الامثال الشععیة فی عهد  
محمد علی

الآن کاسپیار  
التحول السیتمانی

سامان عبد المطی  
التحقیقات السیاسیة فی مصر  
بین النشریة والنشریت

هرید هول وشاندرا ویکراما سینج  
المیلر التویثیة

حسین حلمی المهنیس  
دنما الشاشة ( بین المقارنی  
والتطبیق ) المیسیماو للتلیفیزیون

- ب۔ کوملان  
الاساطیر الافريقیة والرومانيّة  
د۔ توماس ا۔ هاريس  
التوافق الشنس - تحمل  
العمادات الاساسیة  
لجنة الترجمة ،  
الجلس الأعلى للثقافة  
الدليل البيلوبیونی  
روایت ادبیات العالمیة ۱  
روی آرمز  
لغة الصورة فی السیتما المعاصرة  
ناجی متنبیو  
الثورة الاصلاحیة فی اليابان  
بول هاریسون  
العالم الثالث غدا  
میکائل البی وجیمس لفوله  
الاقراض الكبير  
آدامز فیلیپ  
دلیل تنظیم المباحث  
فیکتور مورجان  
تاریخ اللکود  
محمد کمال اسماعیل  
التحليل والتوزیع الورکسکرین  
ایو الناسم الفردوسی  
الشاھتمامة ۲ چ  
بیریتون بورنر  
الحياة الکریمة ۲ چ  
جاله کراس جولیو  
كتابه القاریع فی مصر القمری  
القاسیع عشر  
محمد فؤاد کریمیان  
قيام الدولة العثمانیة  
تفنی پار  
التمهیل السیتما والتلیفیویت  
تاجر، شین ینج ینج و آخرین  
مقفلات من ادبیات الایسیادیة  
ناصر خسرو علی  
سقراطامہ  
نادین جورجید نجریس اوچوت  
واخرون  
سقوط المطر وقصص اخري  
احمد محمد الشنواری  
كتب غیرت الشن العلسانی  
۷ چ  
جان لویس بوری واخرون  
فی اللند السیتمانی الفرانسی  
العثمانیون فی اوریا  
بول کرلز

- روی روپرشنون  
الهیوین والایدز واثنھما فی  
المجتمع  
دور کاس ماکلینتوک  
صور افريقيه . نظرۃ على  
حيوانات افريقيا  
هاشم النحاس  
نبیب محفوظ على الشاهنة  
د۔ محمود سری طه  
الکومبیوت فی مجالات الحياة  
بیتر لوری  
المدررات حقائق نفسیة  
بوریس فیدرودینش سیرجییف  
وقائیف الاعضاء فی الالف  
الیام  
ویلیام بینز  
الہندسة الوراثیة للجمعیع  
دیفید الدربون  
تریبیہ اعمالک الریثیة  
احمد محمد الشنواری  
كتب غیرت الشن العلسانی  
جون . ر۔ بورد و میلتون جولیدنجر  
الفلسفه و قضايا العصر ۳ چ  
آنرلہ توینی  
اللکر الشاریخی عند الافرقی  
د۔ صالح رضا  
ماضی و قضایا فی الفن  
التشکیل المعاصر  
م۔ ه۔ کنچ و آخرین  
النشیۃ فی البلدان الشامیة  
چورج جامرف  
پدایہ بلا ذہایہ  
د۔ السيد طه السيد ابو سیدرة  
الحرف والصیفات فی مصر  
الإنسانیة منه الشیخ العربی  
حتی تھایہ العصر الفاطمی  
جایلیون جایلیه  
حوال حول المظاہر الرئیسین  
لکھون ۳ چ  
اریک موریس والان هو  
الارهابی  
سیل الدرید  
اختانون  
ارش کیستان  
القیلة الثالثة عشرة ویهود  
الیوم

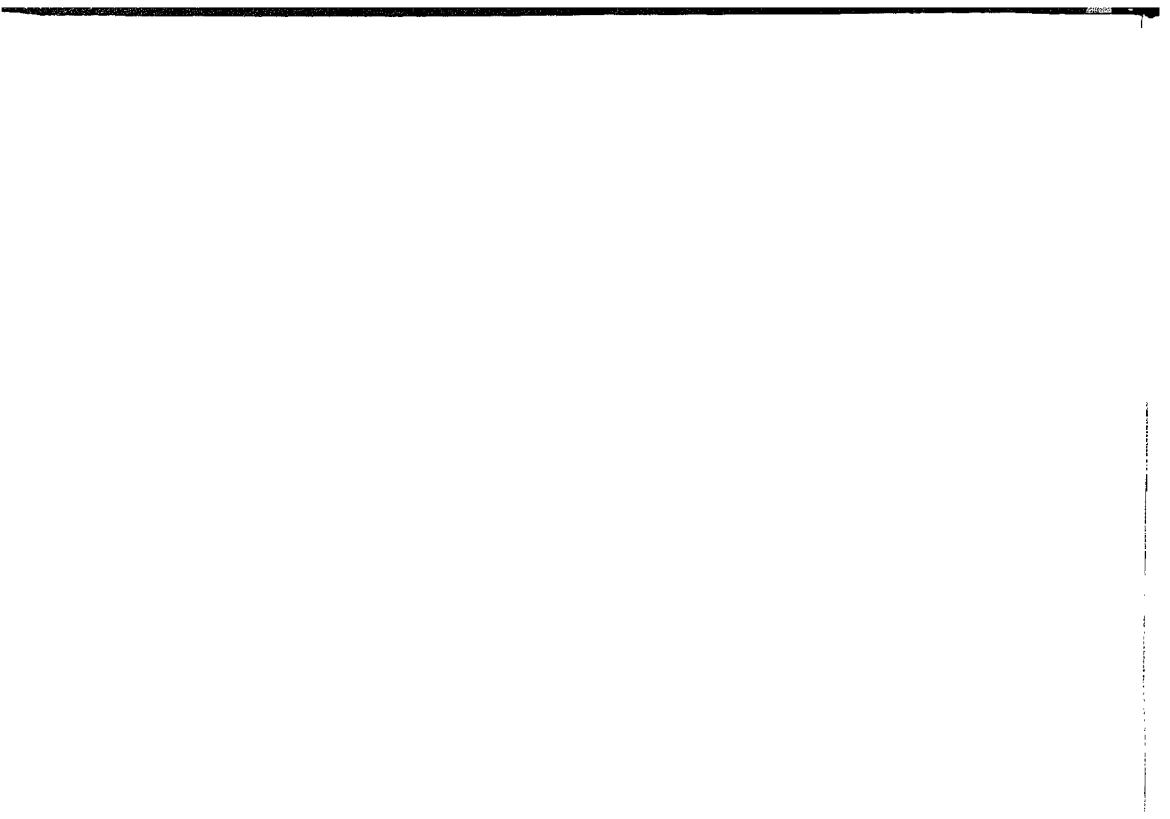
كريستيان ساليه	د. بيارة نور الدين	موريس بير براند
السيارات في السينما الفرنسية	الزهر في ألف عام	صنع الخلاوة
بول وارت	منيكان رانسيمان	زيمونت هيز
خليا نظام الفجم الأمريكي	الحملات الصليبية	حمليات في الإفراج
جورج ستاينر	د. ج. ولز	جوناثان ريل سميث
بين تولستوي ودostويفسكي	مصالم تاريخ الإنسانية	الحملة الصليبية الأولى وكفرة
٢	٤	المرابط الصليبية
يانكت لافيت	جوستاف جرونيباروم	المزيد
الرومانية والواقعية	حضارة الإسلام	الكنائس القبطية القديمة في
محمود سامي عطا الله	د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ	مصر
الفيلم التسجيكي	وصلة بينيتون إلى مصر والهجاء	ريتشارد شاخت
جوزيف بتن	٣	رواد الفلسفه الحديثة
وحله جوزيف بتن	جلال عبد الفتاح	ترانيم زرادشت
ستانلى جيه سولومون	الكون ذلك المجهول	عن كتاب الأفستا المقدس
الواع الفيلم التسجيكي	أرنولد جنل واخرون	الحاج يوسف المصري
هارى ب. ناش	الظل من الخامسة إلى العاشرة	وحات فارقها
الصفر والبيض والسود	٤	هربرت ثيلر
جوزيف بتن	بادي أوبينبورد	الاتصال والهيمنة الثقافية
فن الفوجة على الإسلام	أفيقيا - الطريق الأفو	برتراند راسل
كريستيان بيريش نوكلر	د. محمد زينهم	السلطة والفرد
الحياة الفرعونية	فن الزجاج	بيتر ثيكولتز
جوزيف بندام	برينسلي ماينتنسكي	السينما الخيالية
موجه تاريخ العلم والحضارة	السيمر والعلم والمدين	أنوارد ميري
في الصين	آنم متن	عن النقد السينمائي الأمريكي
ليندارى داشنى	المضاربة الإسلامية	فلاتلي لويس
ثقلية التصوير	فانس بكاره	مصر الرومانية
ت. ج. ه. جيمز	الهم يصفون البشـر	ستيفن أوزمنت
كتلـة الفراـحة	عبد الرحمن عبد الله الشـيخ	التاريخ من شفى جواهـيه
رودولف فون هايسبريج	بوميات وحلـة فاسـكو داجـاما	مونـي بـراح وأخـرون
حلة الأمـير روـولـكـ إلىـ الشـرق	إيفـري شـاتـرـمان	الـسينـماـ العـربـيـةـ مـنـ الـخـلـيـجـ إـلـيـ الـمـحيـطـ
٣	كـوتـلـاـ المـتـدـدـدـ	فـانـسـ بـكارـدـ
مالـكمـ درـابـرىـ	سوـنـدارـىـ	أـنـهـ يـصـلـعـونـ البـشـرـ
الـرواـيـةـ الـيـومـ	الـفلـسـفةـ الـجـوهـرـيةـ	جاـبـرـ مـحمدـ الجـذـارـ
ولـيمـ مـارـسـدنـ	مارـتنـ قـانـ كـريـفالـدـ	ماـسـتـرـيفـختـ
وـرـحـلـةـ مـارـكـ بـولـوـ	حـربـ الـاسـتـقـلـالـ	دـ.ـ أـبـرـارـ كـريمـ اللهـ
هنـزـ بـيرـبنـ	فـرانـسـيسـ جـ بـرجـيـنـ	مـنـ مـمـ الشـالـ
أـيقـنـ أـورـبـاـ فـيـ الصـصـورـ الـوـسـطـىـ	الـإـلـاـمـ الـشـاهـيـ	جـ.ـ سـ.ـ فـريـزـنـدـ
ديـنـيدـ شـيلـينـ	عبدـ مـياـشـ	الـكـاتـبـ الـحـدـيـثـ وـعـالـمـ
وـقـلـيـةـ الـأـدـبـ الـأـصـاصـ وـقـرـاءـةـ الشـفـرـ	الـجـريـدةـ الـصـيـرىـةـ مـنـ مـحـمـدـ عـلـىـ	٢
اسـقـعـ مـلـيـونـ	لـلـسـادـاتـ	سـورـيـالـ عـبـدـ الـمـلـكـ
الـعـلـمـ وـاقـلـاقـ الـاسـتـقـلـالـ	جـ كـارـفـيلـ	هـدـيـثـ الـقـهـفـ
روـنـالـدـ دـافـيدـ لـانـجـ	قـبـيـسيـةـ الـفـاهـيـمـ الـهـنـيـسـيـةـ	مـنـ رـوـاـيـةـ الـآـدـابـ الـهـنـدـيـةـ
الـحـكـمـ وـالـجـنـينـ وـالـحـمـةـ	تـوـمـاسـ لـيـهـارـتـ	لـورـيـتوـ تـوـدـ
كارـلـ بـيرـ	فـنـ الـمـالـمـ وـالـبـانـقـيـمـ	مـدـخلـ إـلـىـ عـلـمـ الـلـفـةـ
بـحـثـ عـنـ عـلـمـ الـفـضـلـ	ادـوارـدـ دـوـبـيـوـنـ	اسـحـقـ عـظـيمـوفـ
فـرـمـانـ كـلـارـكـ	الـتـكـيـرـ الـلـاجـيـدـ	الـشـمـوسـ الـلـثـيـجـوـةـ
الـقـصـادـ الـسـيـاسـيـ لـلـعـلـمـ	وـيلـيـامـ هـ ماـشـيـزـ	اسـارـ السـوـيـرـ ثـوـفـاـ
وـالـكـنـتـوـلـوـجـيـاـ	ماـ مـيـجـاـوـجـيـاـ	ماـ بـعـدـ الـحـدـاثـةـ

روبرت سكولز وأندروه افق أدب الخيال العلمي	ونفراد هولدر كانت ملكة على مصر	السيد نصر الدين السيد اطلالات على الزمن الآتي
بـ من ديفيز المفهوم الحديث للمكان والزمان	جيمس هنري بريست تاريخ مصر	مسرح عطية البرنامج النووي الإسرائيلي والأمن القومي العربي ٤
سـ هوارد الشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا وـ بارتولد	بيون دافير الدقائق الثلاث الأخيرة	د ليوبورسكالنا الحب
تاريخ الترك في آسيا الوسطى فلاديمير تيمانيانو تاريخ أوروبا الشرقية	جورج ومارى فيلدمان سينما الفيلم	إيغور إيفانش هيجل تاريخ الأدب الإنجليزي
بريل جارسيا ماركيز الجنرال في المأهله	جـ كورنتن الحضارة الفينيقية	ميربريت ريب التربية عن طريق الفن
هنرى برجسون الشخص	إرنست كاسبررو في المعرفة الثقة فيه	وليام بيتر معجم التكنولوجيا الحيوية
محضفى محمود سليمان الزنزال	كـ دكتش ومسيس الثاني	الفين توبلر تحول السلطة ٦ جـ
ـ مـ و شـ ضمير المهندس	جان بول سارتر وأخرون مخترارات من المسرح العالمي	يوسف شارة مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية
ـ ١٠ رـ جـ الحيثيون	ـ وزـانـد وجـاك يـانـسـ الطفل المصرى القديم	رولاند جاكسون الكيمياء فى خدمة الإنسان
ـ ستـيو مرـسـكـاتـمـ الحضارـاتـ السـامـيهـ	ـ نـيكـولاـسـ ماـيدـ ـ شـرـلـوكـ هوـلـنـ	ـ تـ جـ جـيمـرـ ـ الـحـادـىـ الـقـرـاعـهـ
ـ الـبرـتـ حـورـانـىـ ـ تـارـيـخـ الشـعـوبـ العـرـبـيـهـ	ـ مـيجـيلـ دـىـ لـيـسـ ـ الـفـنـانـ	ـ جـرجـ كـاشـمـارـ ـ مـاـذـاـ تـنـشـبـ الـحـرـوبـ ٢ـ جـ
ـ حـمـودـ قـاسـمـ ـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ الـمـكـتـوبـ بـالـفـرـنـسـيـهـ	ـ جـوسـبـىـ سـىـ لـوـنـاـ ـ مـوسـولـينـىـ	ـ حـسـامـ الدـيـ رـكـيـاـ ـ اـنـطـوـنـ بـرـوـكـرـ
	ـ الـمـلـىـ عـنـ الـرـمـوـفـ الـصـمـ	ـ اـزـرـاـ فـ هـوـجـلـ ـ الـمـعـجـزـةـ الـبـابـاتـيـهـ
	ـ عـدـرـتـ مـنـ الشـعـرـ الـإـسـبـانـيـ	

### مطباع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٤٤١ / ١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 6014 — 8



في أواخر القرن الثاني عشر، توحدت قبائل المغول البربرية على يد تيموجين، أحد زعماء قبائلها، الذي أسمى نفسه باسم جانكيز خان. وانطلقت تلك القبائل من مواطنها الصحراوية المجده في وسط آسيا لتعيث في الأرض فساداً، شرقاً في الصين، وجنوباً في الهند، وشمالاً في روسيا. وكان من أولى ضحاياها الممالك الإسلامية الشرقية في فارس والعراق والشام. وقد عامل المغول الشعوب المفتوحة بقسوة ووحشية باتت مضربياً للمثل على مدار التاريخ، وكان استخفافهم بالحياة الإنسانية لا حدود له، فلم يتورعوا عن قتل الأسرى والتنكيل بأهل المدن المفتوحة، حتى لمن حصلوا منهم على عهود بالأمان، ولم يقيموا وزناً ولا احتراماً للتراث الثقافي والحضاري لتلك الأمم، فكان الخراب والدمار يسيران في ركبهم أينما حلوا. وقد تضافر مع العبرية الحربية والاستراتيجية لجانكيز خان وغيره من قادة المغول، ما كان العالم الإسلامي يعانيه من ضعف ووهن بسبب التمزق والفرقعة. ولم تستطع الجيوش وقف تقدم المغول الذين اجتاحوا إيران، ثم العراق وبعدها الشام، ولم يعد أمامهم سوى مصر لكي يبسروا سلطانهم على العالم الإسلامي، ولو لا بسالة جيش مصر بقيادة السلطان سيف الدين قطز الذي ألحق بالمغول أول هزيمة كبيرة لهم في عين جالوت، لربما تغير تاريخ العالم ولربما انقطعت مسيرة الحضارة الإنسانية. وهذا الكتاب يعرض لشطر من تلك الصفحة الدموية في تاريخ الحضارة الإسلامية التي وصفها المؤرخون المعاصرون بأنها من أشد المحن والنكبات التي ألمت بالإسلام.